سورة فصلت

خمسون وأربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ
وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

اعلم أن في أول هذه السورة احتمالات: أحدها وهو الأقوى: أن يقال: (حم) اسم للسورة وهو في موضع المبتدأ وتنزيل خبره. وثانيها: قال الأخفش: تنزيل رُفع بالابتداء وكتاب خبره. وثالثها: قال الزجاج: تنزيل رُفع بالابتداء وخبره كتاب فُصلت آياته. ووجهه أن قوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ تخصص بالصفة وهو قوله ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فجاز وقوعه مبتدأ.

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء: أولها: كونه تنزيلاً والمراد المنزّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور، يقال: هذا بناء الأمير، أي مبنيه، وهذا الدرهم ضَرْب السلطان، أي مضروبه، والمراد من كونها منزلاً أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمَر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد ﷺ ويبلغها إليه، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلاً. وثانيها: كون التنزيل من الرحمن الرحيم، وذلك يدل على كون التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسبًا لتلك الصفة، فكونه تعالى رحمانًا رحيمًا صفتان دالتان على كمال الرحمة، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة، والأمر في نفسه كذلك؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم. وثالثها: كونه كتابًا، وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع، وإنما سمي كتابًا لأنه جمع فيه علوم الأولين

والآخرين. ورابعها: قوله: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ والمراد أنه فُرقت آياته وجُعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة، فبعضها في وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان، وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح، وبعضها في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار، وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين، وبالجملة فمن أنصف عَلِم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن. وخامسها: قوله ﴿قُرۡءَانًا﴾ والوجه في تسميته قرآنًا قد سبق، وقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا﴾ نُصب على الاختصاص والمدح، أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من صفته كيت وكيت، وقيل: هو نصب على الحال. وسادسها: قوله ﴿عَرَبِيّٗا﴾ والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وسابعها: قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ والمعنى إنا جعلناه عربيًّا لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد، فإن قيل: قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ متعلق بماذا؟ قلنا: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿تَنزِيلٞ﴾ أو بقوله: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي تنزيل من الله لأجلهم أو فُصلت آياته لأجلهم، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآنًا عربيًّا كائنًا لقوم عرب. لئلا يفرق بين الصلات والصفات. وثامنها وتاسعها: قوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يعني بشيرًا للمطيعين بالثواب ونذيرًا للمجرمين بالعقاب، والحق أن القرآن بشارة ونذارة، إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة، كما يقال: شعرٌ شاعر وكلامٌ قائل. الصفة العاشرة: كونهم مُعْرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه. فهذه هي الصفات العشرة التي وصف الله القرآن بها.

ويتفرع عليها مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أنه وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، والمنزل والتنزيل مُشعر بالتصيير من حال، فوجب أن يكون مخلوقًا. الثاني: أن التنزيل مصدر، والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين. الثالث: المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق أو المكتوب الذي هو المفعول. الرابع: أن قوله: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ يدل على أن متصرفًا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز، وذلك لا يليق بالقديم. الخامس: أنه إنما سمي قرآنًا لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض، وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل. السادس: وصفه بكونه عربيًّا، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم، وما جُعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بدّ وأن يكون محدثًا ومخلوقًا. الجواب: أن كل هذه الوجوه

التي ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات، وهي عندنا محدثة مخلوقة، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ، والله أعلم.

المسألة الثانية: ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية، فأما حَمْلها على معانٍ أُخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعًا، وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن، مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر، وللصوفية طرق كثيرة في الباب ويسمونها علم المكاشفة، والذي يدلل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وإنما سماه عربيًا لكونه دالاً على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة، وأن ما سواه فهو باطل.

المسألة الثالثة: ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من سائر اللغات، كقوله: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] و﴿سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] فإنهما فارسيان، وقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] فإنها من لغة الحبشة، وقوله ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء: ٣٥] فإنه من لغة الروم. والذي يدل على فساد هذا المذهب قوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى. وعندنا أن هذا باطل، وليس للشرع تصرُّف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا من وجه واحد، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها، مثلاً: الإيمان عبارة عن التصديق، فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق، والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء، كذا القول في البواقي، ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

المسألة الخامسة: إنما وصف الله القرآن بكونه: ﴿عَرَبِيًّا﴾ في معرض المدح والتعظيم، وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات.

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم، ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لا في غيره، فنقول: لا شك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة، وهي مركبة من الحروف، فالكلمة لها مادة وهي الحروف، ولها صورة وهي تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب. فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها:

أما التي بحسب مادتها فهي آحاد الحروف، واعلم أن الحروف على قسمين: بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع، وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع، وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع، ولا يشتبه شيء منها بالآخر. وأما الحروف المستعملة في سائر

اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض، وذلك يخل بكمال الفصاحة، وأيضًا الحركات المستعملة في سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهي النصب والرفع والجر، وكل واحد من هذه الثلاثة فإنه يمتاز عن غيره امتيازًا ظاهرًا جليًّا، وأما الإشمام والرَّوْم فيقل حصولهما في لغات العرب، وذلك أيضًا من جنس ما يوجب الفصاحة.

وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهي أنواع:

أحدها: أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج، وأيضًا الحروف على قسمين، منها صُلبة ومنها رخوة، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة: الصُّلبة المتقاربة، والرخوة المتقاربة، والصُّلبة المتباعدة، والرخوة المتباعدة، فإذا توالى في الكلمة حرفان صُلبان متقاربان صعب اللفظ بها؛ لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جاريًا مجرى ما إذا كان الإنسان مقيدًا ثم يمشي، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج، وتوالي الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء، ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل.

وثانيها: أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب في السمع، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب. وثالثها: الوزن فنقول: الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، وأعدلها هو الثلاثي لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة، والحركة لا بد لها من مبدأ ووسط ومنتهى، فهذه ثلاث مراتب، فالكلمة لا بد وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة، أما الثنائية فهي ناقصة، وأما الرباعية فهي زائدة، والغالب في كلام العرب الثلاثيات، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها، وأما سائر اللغات فليست كذلك، والله أعلم.

المسألة السادسة: قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني إنما جعلناه عربيًّا لأجل أن يعلموا المراد منه، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحِكم - تمسكوا بهذه الآية وقالوا: إنها تدل على أنه إنما جعله عربيًّا لهذه الحكمة، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز.

المسألة السابعة: قال قوم: القرآن كله غير معلوم، بل فيه ما يُعلم وفيه ما لا يُعلم. وقال المتكلمون: لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني إنما جعلناه عربيًّا ليصير معلومًا، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه.

المسألة الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يدل على أن الهادي من هداه الله وأن الضال من أضله الله، وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه؛ لأنا بينا أن كونه نازلاً من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجَلِّ المطالب، وكونه قرآنًا عربيًّا مفصلاً يدل على أنه في غاية الكشف والبيان، وكونه بشيرًا ونذيرًا يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات؛

لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات؛ وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم، وذلك يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله، ولا ضال إلا من أضله الله.

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه، بيّن أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة، وذكروا ثلاثة أشياء: أحدها: أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ وأكنة جمع كنان، كأغطية جمع غطاء، والكنان هو الذي يُجعل فيه السهام. وثانيها: قولهم: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم وثقل من استماع قولك. وثالثها: قولهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة (من) في قوله ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا﴾ أنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجابًا حصل وسط الجهتين، وأما بزيادة لفظ (مِن) كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب، وما بقي جزء منها فارغًا عن هذا الحجاب، فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب، هكذا ذكره صاحب (الكشاف) وهو في غاية الحسن.

واعلم أنه إنما وقع الاقتصار على هذه الأعضاء الثلاثة، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن، والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف، فلما بيّن أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب.

واعلم أنه إذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب، فإذا سمع منه كلامًا لم يفهم معناه كما ينبغي، وإذا رآه لم تصر تلك الرؤية سببًا للوقوف على دقائق أحوال ذلك المرئي، وذلك المدرك والشاعر هو النفس، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء، فإذا كان الأمر كذلك كان قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ استعارات كاملة في إفادة المعنى المراد، فإن قيل: إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم، وذكر أيضًا ما يقرب منه في معرض الذم فقال: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨]. ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والإثبات في سورة الأنعام فقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: إنه لم يقل هاهنا إنهم كذبوا في ذلك إنما الذي ذمهم عليه أنهم قالوا: إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا. وهذا الثاني باطل، أما الأول فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه.

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا، ويجوز أن يكون المراد فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبوا في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ بل إنما أتوا بالكفر والكلام الباطل في قولهم ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمَر محمدًا ﷺ أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ وبيان هذا الجواب كأنه يقول: إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبرًا وقهرًا؛ فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا بمجرد أن الله عزّ وجلّ أوحى إليّ وما أوحى إليكم، فأنا أُبلغ هذا الوحي إليكم، ثم بعد ذلك إن شرَّفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه، وإن خذلكم بالحرمان رددتموه، وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي، ثم بيّن أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين: العلم والعمل، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد؛ ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به، وهو المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ ونظيره قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[فصلت: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[الأنعام: ١٥٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ وجهان: الأول: فاستقيموا متوجهين إليه. الثاني: أن يكون قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ معناه فاستقيموا له. لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض.

واعلم أن التكليف له ركنان: أحدهما: الاعتقاد، والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد، فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل، والرأس والرئيس فيه الاستغفار، فلهذا السبب قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ فإن قيل: المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة ما لا ينبغي، وذلك مقدم على فعل ما ينبغي، فلمَ عكس هذا الترتيب هاهنا وقدم ما ينبغي على إزالة ما لا ينبغي؟ قلنا: ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به، كما قال ﷺ: «**وَإِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١) .

ولما رغَّب الله تعالى في الخير والطاعة، أمَر بالتحذير عما لا ينبغي فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم في هذه الآية من وجوه: الأول: أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وذلك لأن الموجودات إما الخالق وإما الخلق، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة، ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا،

---

(١) تقدم تخريجه.

وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحدًا، وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها، كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم، كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال؛ لأنه ضد الشفقة على خلق الله. إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفًا بصفات ثلاثة: أولها: أن يكون مشركًا وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وثانيها: كونه ممتنعًا من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وثالثها: كونه منكرًا للقيامة مستغرقًا في طلب الدنيا ولذاتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾. وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام: الأمس واليوم والغد: أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم. وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة، وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال؛ فلهذا حَكَم الله عليه بالويل فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا ترتيب في غاية الحسن، والله أعلم. الوجه الثاني في تقرير كيفية النظم أن يقال: المراد بقوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم: (لا إله إلا الله)، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]. الثالث: قال الفرّاء: إن قريشًا كانت تطعم الحاج، فحرَّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا في إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية، فقالوا: إنه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين: أحدهما: كونه مشركًا. والثاني: أنه لا يؤتي الزكاة، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير في حصول ذلك الوعيد، وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيرًا عظيمًا في زيادة الوعيد، وذلك هو المطلوب.

المسألة الثالثة: احتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر، فقال: إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر، وهو قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وذكر أيضًا بعدها ما يوجب الكفر، وهو قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفرًا لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحًا؛ لأن الكلام إنما يكون فصيحًا إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه. ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حَكَم بكفر مانعي الزكاة.

والجواب: لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غير مقطوع، من قولك: مننت الحبل، أي قطعته، ومنه قولهم: قد مَنَّه السفر، أي قطعه، وقيل: لا يُمن عليهم، لأنه تعالى لما سماه أجرًا، فإذًا الأجر لا يوجب المنّة، وقيل: نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝١٢﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ في الآية الأولى أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية، وذلك بأن بيّن كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة، فمَن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟! فهذا تقرير النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير: (أينكم لتكفرون) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد، وأما نافع في رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة، إلا أنهما يمدان، والباقون بهمزتين بلا مد.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، وقد ذكر عنهم شيئين منكرين: أحدهما: الكفر بالله، وهو قوله: ﴿لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ وثانيهما: إثبات الشركاء والأنداد له، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولاً مغايرًا لإثبات الأنداد له، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه: الأول: قولهم: إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى. فلما نازعوا في ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله. الثاني: أنهم كانوا ينازعون في صحة التكليف وفي بعثة الأنبياء، وكل ذلك قدح في الصفات المعتبرة في الإلهية، وهو كفر بالله. الثالث: أنهم كانوا يضيفون إليه الأولاد، وذلك أيضًا قدح في الإلهية وهو يوجب الكفر بالله، فالحاصل أنهم كفروا بالله لأجل قولهم بهذه الأشياء، وأثبتوا الأنداد أيضًا لله لأجل قولهم بإلهية تلك الأصنام. واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال: كيف يجوز الكفر بالله، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أندادًا لله

تعالى، مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين، وتمم بقية مصالحها في يومين آخرين، وخَلَق السموات بأسرها في يومين آخرين؟ فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به وإنكار قدرته على الحشر والنشر، وكيف يُعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الأنبياء، وكيف يُعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أندادًا له في المعبودية والإلهية؟! فإن قيل: من استدل بشيء على إثبات شيء، فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مُسلَّمًا عند الخصم حتى يصح الاستدلال به، وكونه تعالى خالقًا للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض، وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحي الأنبياء، والكفار كانوا منازعين في الوحي والنبوّة، فلا يُعقل تقرير هذه المقدمة عليهم، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم. قلنا: إثبات كون السموات والأرض مخلوقة بطريق العمل ممكن، فإذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم، وحينئذٍ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذي هو جماد لا يضر ولا ينفع في المعبودية والإلهية؟ بقي أن يقال: فحينئذٍ لا يبقى في الاستدلال بكونه تعالى خالقًا للأرض في يومين أثر، فنقول: هذا أيضًا له أثر في هذا الباب، وذلك لأن أول التوراة مشتمل على هذا المعنى، فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب، فكفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقة، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذٍ يحسن أن يقال لهم: إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق الأشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة، كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكًا له في المعبودية والإلهية؟ فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوي حسن.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم، فكيف أثبتم له أندادًا من الخشب والحجر؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقًا للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك: فالأول: قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ والمراد منها الجبال، وقد تقدم تفسير كونها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في سورة النحل، فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ ولِمَ لم يقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧] ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: ٣] قلنا: لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، ولكنه تعالى قال: خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض؛ ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى. والنوع الثاني مما أخبر الله تعالى في هذه الآية: قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ والبركة كثرة

الخير، والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان، وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد شق الأنهار، وخلق الجبال، وخلق الأشجار والثمار، وخلق أصناف الحيوانات، وكل ما يُحتاج إليه من الخيرات. والنوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وفيه أقوال: الأول: أن المعنى: وقَدَّر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، قال محمد بن كعب: قَدَّر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان. والقول الثاني: قال مجاهد: وقَدَّر فيها أقواتها من المطر. وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان، والمعنى أن الله تعالى قَدَّر لكل أرض حظها من المطر. والقول الثالث: أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى، فقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدنًا لنوع آخر من الأشياء المطلوبة، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس، فصار هذا المعنى سببًا لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال، ورأيت من كان يقول: صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض، قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبها من الأرض متعينًا.

ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أُخر، وذكر أنه خلق السموات في يومين، فيكون المجموع ثمانية أيام، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، فلزم التناقض. واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا: المراد من قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ مع اليومين الأولين. وهذا كقول القائل: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يومًا. يريد كلا المسافتين، ويقول الرجل للرجل: أعطيتك ألفًا في شهر وألوفًا في شهرين. فيدخل الألف في الألوف والشهر في الشهرين.

السؤال الثاني: أنه لما ذكر أنه خلق الأرض في يومين، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط، فلمَ ترك هذا التصريح، وذكر ذلك الكلام المجمل؟ والجواب: أن قوله: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فيه فائدة على ما إذا قال (خلقت هذه الثلاثة في يومين)، وذلك لأنه لو قال: خلقت هذه الأشياء في يومين. لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال: عملت هذا العمل في يومين. مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء، ثم

قال بعده: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان.

السؤال الثالث: كيف القراءات في قوله ﴿سَوَآءٗ﴾؟ والجواب: قال صاحب (الكشاف): قرئ (سواء) بالحركات الثلاثة: الجر على الوصف، والنصب على المصدر، استوت سواء أي استواء، والرفع على هي سواء.

السؤال الرابع: ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء؟ فنقول: إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة في أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالأيام الموجودة في سائر الأماكن، فبيّن تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة.

السؤال الخامس: بم يتعلق قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؟ الجواب فيه وجهان: الأول: أن الزجاج قال: قوله: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي في تتمة أربعة أيام. إذا عرفت هذا فالتقدير: وقدّر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام لأجل السائلين، أي الطالبين للأقوات المحتاجين إليها. والثاني: أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل: هذا الحصر والبيان لأجل من سأل كم خلقت الأرض وما فيها. ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ من قولهم استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهًا لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه وامتد إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها، من غير صرف يصرفه عن ذلك.

البحث الثاني: ذكر صاحب (الأثر) أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض، فأحدث الله في ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان، أما الزبد فيبقى على وجه الماء، فخَلَق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات.

واعلم أن هذه القصة غير موجودة في القرآن، فإن دل عليه دليل صحيح قُبل وإلا فلا، وهذه القصة مذكورة في أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة، وهذا هو المعقول لأنا قد دللنا في المعقولات على أن الظلمة ليست كيفية وجودية، بدليل أنه لو جلس إنسان في ضوء السراج وإنسان آخر في الظلمة، فإن الذي جلس في الضوء لا يرى مكان الجالس في الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلمًا، وأما الذي جلس في الظلمة فإنه يرى ذلك الذي كان جالسًا في الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئًا، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين، فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركّبها وجعلها سموات وكواكب وشمسًا وقمرًا، وأحدث صفة الضوء فيها،

فحينئذٍ صارت مستنيرة، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر - كانت مظلمة، فصح تسميتها بالدخان؛ لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور، فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان، والله أعلم بحقيقة الحال.

البحث الثالث: قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ مُشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] مُشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض. واختلف العلماء في هذه المسألة، والجواب المشهور أن يقال: إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولاً، ثم خلق بعدها السماء، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض، وبهذا الطريق يزول التناقض. واعلم أن هذا الجواب مشكل عندي من وجوه الأول: أنه تعالى بيّن أنه خلق الأرض في يومين، ثم إنه في اليوم الثالث ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة؛ لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة، وقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة، وحينئذٍ يعود السؤال المذكور. الثاني: أنه قد دلّت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة، فهي في أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضًا، فهي منذ خُلِقت كانت مدحوة، وإن قلنا: إنها غير كرة ثم جُعلت كرة فيلزم أن يقال: إنها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة، وذلك باطل. الثالث: أن الأرض جسم في غاية العظم، والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول دخوله في الوجود يكون مدحوًّا، فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ثم صارت مدحوة قول باطل، والذي جاء في كتب التواريخ أن الأرض خُلقت في موضع الصخرة ببيت المقدس، فهو كلام مشكل لأنه إن كان المراد أنها على عظمها خُلقت في ذلك الموضع، فهذا قول بتداخل الأجسام الكثيفة وهو محال، وإن كان المراد منه أنه خلق أولاً أجزاء صغيرة في ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التي خلقت أولاً، فهذا يكون اعترافًا بأن تخليق الأرض وقع متأخرًا عن تخليق السماء. الرابع: أنه لما حصل تخليق ذات الأرض في يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين آخرين وتخليق السموات في يومين آخرين، كان مجموع ذلك ستة أيام، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمان آخر بعد الأيام الستة، فحينئذٍ يقع تخليق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل. الخامس: أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ كناية عن إيجاد السماء والأرض، فلو تقدم إيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ يقتضي إيجاد الموجود وأنه محال باطل.

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور، ونقل الواحدي في (البسيط) عن مقاتل أنه قال: خَلَق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان، وقال لها قبل أن يخلق الأرض. فأضمر فيه (كان) كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] معناه إن يكن سرق، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] والمعنى فكان قد جاءها. هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف؛ لأن تقدير الكلام (ثم كان قد استوى إلى السماء)، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ثم تقتضي التأخير، وكلمة (كان) تقتضي التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض، وذلك دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره، وقد بينا أن قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إنما حصل قبل وجودهما، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله: ﴿ٱئْتِيَا﴾ على الأمر والتكليف، فوجب حمله على ما ذكرناه. بقي على لفظ الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؟ الجواب: المقصود منه إظهار كمال القدرة، والتقدير: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما، كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ، ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعَين أو مكرهَين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ على الطوع لا على الكره، وقيل: إنه تعالى ذكر السماء والأرض ثم ذكر الطوع والكره، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض بتخصيص السماء بالطوع لوجوه: أحدها: أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف، تشبه حيوانًا مطيعًا لله تعالى، بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال، تارة تكون في السكون وأخرى في الحركات المضطربة. وثانيها: أن الموجود في السماء ليس لها إلا الطاعة، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] وأما أهل الأرض فليس الأمر في حقهم كذلك. وثالثها: السماء موصوفة بكمال الحال في جميع الأمور، قالوا: إنها أفضل الألوان وهي المستنيرة، وأشكالها أفضل الأشكال وهي المستديرة، ومكانها أفضل الأمكنة وهو الجو العالي، وأجرامها أفضل الأجرام وهي الكواكب المتلألئة، بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغير الذوات والصفات، فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الأرض بالكره، وإذا كان مدار خلق الأرض على الكره كان أهلها موصوفين أبدًا بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿أَتَيْنَا﴾ ومن قوله ﴿أَتَيْنَا﴾؟ الجواب: المراد ائتيا إلى الوجود والحصول. وهو كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وقيل: المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، أي بأرض مدحوة قرارًا ومهادًا، وأي بسماء مقببة سقفًا لهم، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد، كما تقول: أتى عمله مَرضيًا وجاء مقبولاً، ويجوز أيضًا أن يكون المعنى: لِتأتي كل واحدة منكم صاحبتها الإتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير،

من كون الأرض قرارًا للسماء وكون السماء سقفًا للأرض .

السؤال الثالث: هلا قيل : طائعَين على اللفظ أو طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون؟ الجواب : لما جُعلن مخاطبات ومجيبات ووُصفن بالطوع والكره، قيل طائعِين في موضع طائعات، نحو قوله ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء، وقال: الأرض في جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة في جوف الجبل الكبير، فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة على العقل والحياة غالبة، إلا أن هذا القول باطل؛ لإجماع المتكلمين على فساده .

ثم قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ وقضاء الشيء إنما هو إتمامه والفراغ منه، والضمير في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع إلى السماء على المعنى، كما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ونحوه ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا مفسرًا بسبع سموات، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز .

ذكر أهل الأثر أنه تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين، وخلق سائر ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة، فإن قيل: اليوم عبارة عن النهار والليل، وذلك إنما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يُعقل حصول اليوم؟ قلنا: معناه إنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرًا بيوم .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ قال مقاتل: أمَر في كل سماء بما أراد. وقال قتادة: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال السدي: خلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البَرَد. قال: ولله في كل سماء بيت يحج إليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة، ولو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة. والأقرب أن يقال: قد ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص، فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة، ومنهم ركوع لا ينتصبون، ومنهم سجود لا يرفعون، وإذا كان ذلك الأمر مختصًا بأهل ذلك السماء، كان ذلك الأمر مختصًا بتلك السماء .

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ أي وكان قد خص كل سماء بالأمر المضاف إليها، كقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] والمعنى فكان قد جاءها، هذا ما نقله الواحدي، وهو عندي ضعيف؛ لأن تقدير الكلام: (ثم كان قد استوى إلى السماء وكان قد أوحى)، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة (ثم) تقتضي التأخير وكلمة (كان) تقتضي التقديم فالجمع بينهما يفيد التناقض، ونظيره قول القائل: (ضربت اليوم زيدًا ثم ضربت عمرًا بالأمس)، فكما أن هذا باطل فكذا ما ذكرتموه، وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي إلى وقوع التناقض

والركاكة فيه، والمختار عندي أن يقال: خَلْق السموات مقدم على خلق الأرض. بقي أن يقال: كيف تأويل هذه الآية؟ فنقول: الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد، والدليل عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩] فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين، لكان تقدير الآية: أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون. وهذا محال؛ لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذي وُجد (كن) ثم إنه يكون. وهذا محال، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد، بل هو عبارة عن التقدير، والتقدير خلق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ معناه أنه قضى بحدوثه في يومين، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا في مدة كذا - لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحدث السماء، وحينئذٍ يزول السؤال، فهذا ما وصلت إليه في هذه الموضع المشكل.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان، فأطاعا وامتثلا، وعند هذا حصل في الآية قولان:

القول الأول: أن تجري هذه الآية على ظاهرها فنقول: إن الله تعالى أمَرهما بالإتيان فأطاعاه. قال القائلون بهذا القول: وهذا غير مستبعد، ألا ترى أنه تعالى أمَر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبا: ١٠] والله تعالى تجلى للجبل قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[الأعراف: ١٤٣] والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤] وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاً وفهمًا، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما؟! ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه: الأول: أن الأصل حَمْل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع، وههنا لا مانع، فوجب إجراؤه على ظاهره. الثاني: أنه تعالى أخبر عنهما فقال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[الأحزاب: ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة بالله، مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها، والإشكال عليه أن يقال: المراد من قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، وعلى هذا التقدير فحال توجُّه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال: (يا موجود كن موجودًا)، وذلك لا يجوز فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب، فلم يجز توجيه الأمر عليها، فإن قال قائل: روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: قال سبحانه للسموات: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك. وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك. وكان الله

تعالى أودع فيهما هذه الأشياء ثم أمَرهما بإبرازها وإظهارها. فنقول: فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ حدوثهما في ذاتهما، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يُظهرا ما كان مودعًا فيهما، إلا أن هذا الكلام باطل؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ والفاء للتعقيب، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث.

القول الثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض، بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووُجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع، ونظيره قول القائل: قال الجدار للوتد: لمَ تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني، فإن الحجر الذي ورائي ما خلاني ورائي.

واعلم أن هذا عدول عن الظاهر، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره، وقد بينا أن قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إنما حصل قبل وجودهما، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ على الأمر والتكليف، فوجب حمله على ما ذكرنا.

واعلم أن إثبات الأمر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة، أو أنه تعالى أمَرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات، ثم إنه تعالى أسكنهم فيها، وأيضًا ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامي أوهامهم.

ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النيرات التي خلقها في السموات، وخص كل واحد بضوء معين، وسر معين، وطبيعة معينة، لايعرفها إلا الله.

ثم قال: ﴿وَحِفْظًا﴾ يعني وحفظناها حفظًا، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع، فأعد لكل شيطان نجمًا يرميه به ولا يخطئه، فمنها ما يحرق، ومنها ما يقتل، ومنها ما يجعله مخبلاً، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال: «**خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالشَّجَرَ فِي يَوْمَيْنِ، وَخَلَقَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ فِي يَوْمِ الْجُمْعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ**» ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**» قالوا: ثم استراح. فغضب رسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨][(١)].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤٩/ ٢٧٨٩)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٧)، حديث رقم (٨٣٢٣)، وأبو يعلى في (مسنده) (١٠/ ٥١٣)، حديث رقم (٦١٣٢)، جميعًا من طريق أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى لأم سلمة عن أبي هريرة... به.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، وما أحسن هذه الخاتمة!! لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦] واحتج عليه بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به؟! وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية؟! ولما تمم تلك الحجة قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وبيان ذلك أن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذٍ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ بمعنى إن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التي ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ والإنذار هو التخويف، قال المبرد: والصاعقة: الثائرة المهلكة لأي شيء كان، وقرئ: (صَعْقة مثل صَعْقة عاد ثمود) قال صاحب (الكشاف) وهي المرة من الصعق.

ثم قال: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وفيه وجهان: الأول: المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة. ويقول الرجل: استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتي فيه.

الوجه الثاني: المعنى: أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم، فإن قيل: الرسل الذين جاؤوا من قبلهم ومن بعدهم، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤوهم؟ قلنا: قد جاءهم هود وصالح

داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤوهم.

ثم قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني أن الرسل الذين جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك، قال صاحب (الكشاف): أنْ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بمعنى (أي) أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه لا تعبدوا، أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله.

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل، وقالوا: الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة؛ لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معناه: فإذًا أنتم بشر ولستم بملائكة، فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم. وهو المراد من قوله: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلاً، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالمًا بالشعر والسحر والكهانة فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علمًا وما يخفى علي!! فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ لمَ تشتم آلهتنا وتضللنا؟! فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن، أي بنات من شئت من قريش، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢] إلى قوله: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا، لا نرى عتبة إلا قد صبأ! فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت! فغضب وأقسم لا يكلم محمدًا أبدًا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، أمسكت بفيه وناشدته بالرحم، ولقد علمت أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

واعلم أنه تعالى لما بيّن كفر قوم عاد وثمود على الإجمال، بيّن خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذاالاستكبار فيه وجهان: الأول: إظهارالنخوة والكِبر، وعدم الالتفات إلى الغير. والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا مخصوصين بكِبَر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم،

فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهيه.

واحتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القوة لله، فقالوا: القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله: ﴿اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يدل على إثبات القوة لله تعالى، ويتأكد هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فإن قيل: صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي، فما معنى قوله: إن الله أشد منهم قوة؟ قلنا: هذا ورد على قانون قولنا: الله أكبر.

ثم قال: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة.

واعلم أن نظم الكلام أن يقال: أما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ اعتراض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم إلى الاستكبار.

واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق، فقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق، وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مضاد للتعظيم للخالق، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى؛ فلهذا المعنى سلّط الله العذاب عليهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وفي الصرصر قولان: أحدهما: أنها العاصفة التي تصرصر، أي تصوت في هبوبها، وفي علة هذه التسمية وجوه: قيل: إن الرياح عند اشتداد هبوبها يُسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم. وقيل: هو من صرير الباب، وقيل: من الصرة والصيحة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] والقول الثاني: أنها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها، وأصلها من الصر وهو البرد، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧] وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الرِّيَاحُ ثَمَانٍ: أَرْبَعٌ مِنْهَا عَذَابٌ: الْعَاصِفُ وَالصَّرْصَرُ وَالْعَقِيمُ وَالسَّمُومُ، وَأَرْبَعٌ مِنْهَا رَحْمَةٌ: النَّاشِرَاتُ وَالْمُبَشِّرَاتُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَالذَّارِيَاتُ**» [(١)] وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمي. والمقصود أنه مع قِلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في (العظمة) (٤/ ١٣٠٥/ ٢) من طريق هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو. . . فذكره موقوفًا، ورواه ابن أبي الدنيا في (المطر والرعد) (١/ ١٧٦)، حديث رقم (١٧١) من طريق وهب بن منبه عن ابن عباس. . . به موقوفًا.

وأما قوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (نَحْسات) بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء، قال صاحب (الكشاف): يقال: نحِس نَحْسًا نقيض سعد سعدًا فهو نحس، وأما نَحْس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فَعْل أو وصف بمصدر.

المسألة الثانية: استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحسًا وبعضها قد يكون سعدًا، وقالوا: هذه الآية صريحة في هذا المعنى. أجاب المتكلمون بأن قالوا: ﴿أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يُبصر فيه ويُتصرف. وأيضًا قالوا: معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها. أجاب المستدل الأول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشئومات لأن النحس يقابله السعد، والكدر يقابله الصافي، وأجاب عن السؤال الثاني أن الله تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايرًا لذلك العذاب الذي وقع فيها.

ثم قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب فيه أنهم استكبروا، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الخزي والهوان والذل إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أي أشد إهانة وخزيًا ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي أنهم يقعون في الخزي الشديد، ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزي عنهم.

ولما ذكر الله قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ (ثمود) بالرفع والنصب منونًا وغير منون، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء، وقرئ بضم الثاء، وقوله: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي دللناهم على طريق الخير والشر ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

واعلم أن صاحب (الكشاف) ذكر في تفسير الهدى في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية، وهذه الآية تبطل قوله؛ لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل، فثبت أن قيد كونه مفضيًا إلى البغية غير معتبر في اسم الهدى.

وقد ثبت في هذه الآية سؤال يُشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جوابًا شافيًا فتركناه، قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الأعذار والعلل، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل، وقوله: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى، فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد. وأقول: بل هذه الآية من أدل الدلائل على أنهما إنما يحصلان من الله لا من العبد، وبيانه من وجهين: الأول: أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى؛ لأنهم أحبوا تحصيله، فلما وقع في قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده، فإن حصل ذلك الترجيح

لا لمرجح فهو باطل، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن المعلوم بالضرورة أن أحدًا لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلاً، بل ما لم يظن في ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلمًا لا يرغب فيه، فإقدامه على اختيار ذلك الجهل لا بد وأن يكون مسبوقًا بجهل آخر، فإن كان ذلك الجهل الثاني باختياره أيضًا لزم التسلسل وهو محال، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب.

ولما وصف الله كفرهم قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ و﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي داهية العذاب و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يريد من شركهم وتكذيبهم صالحًا وعقرهم الناقة، وشرع صاحب (الكشاف) ههنا في سفاهة عظيمة. والأولى أن لا يُلتفت إليه أنه وإن كان قد سعى سعيًا حسنًا فيما يتعلق بالألفاظ، إلا أن المسكين كان بعيدًا من المعاني.

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يعني وكانوا يتقون الأعمال التي كان يأتي بها قوم عاد وثمود. فإن قيل: كيف يجوز للرسول ﷺ أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود، مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمة محمد ﷺ، وقد صرّح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وجاء في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات؟! قلنا: إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك، وإن كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفي في التخويف.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا، أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير، وقرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب، أضاف الحشر إلى نفسه، والتقدير يحشر الله عزّ وجلّ أعداءه الكفار من الأولين والآخرين. وحجته أنه

معطوف على قوله ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ [فصلت: ١٨] فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ، ويقويه قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥] ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧] وأما الباقون فقرؤوا على فعل ما لم يسم فاعله لأن قصة ثمود قد تمت وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ابتداء كلام آخر، وأيضًا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله ﴿ٱحْشُرُوا﴾ [الصافات: ٢٢] وهم الملائكة، وأيضًا أن هذه القراءة موافقة لقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] وأيضًا فتقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فكان الأَوْلى على هذا التقدير أن يقال: ويوم نحشر أعداءنا إلى النار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم، أي يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التقدير حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم. وعلى هذا التقدير فكلمة ﴿مَا﴾ صلة، وقيل: فيها فائدة زائدة وهي تأكيد أن عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة، كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١] أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به.

المسألة الثانية: روي أن العبد يقول يوم القيامة: يا رب العزة ألست قد وعدتني أن لا تظلمني؟! فيقول الله تعالى: فإن لك ذلك. فيقول العبد إني لا أقبل على نفسي شاهدًا إلا من نفسي. فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه (١)، فذلك قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها، فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه. والثاني: أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة. والثالث: أن يظهر تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان، وتلك الأمارات تسمى شهادات، كما يقال: يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه. واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة، أما القول الأول: فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة، فاللسان مع كونه لسانًا يمتنع أن يكون محلاً للعلم والعقل، فإن غَيَّر الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لسانًا وجلدًا، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود، فإن قلنا: إن الله تعالى ما غَيَّر بنية هذه الأعضاء، فحينئذٍ يمتنع عليها كونها ناطقة فاهمة، وأما القول الثاني: وهو أن يقال: إن الله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٠/ ٢٩٦٩) من طريق الشعبي عن أنس بن مالك. . . به.

تعالى خلق هذه الأصوات والحروف في هذه الأعضاء، وهذا أيضًا باطل على أصول المعتزلة؛ لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذي فعل الكلام، لا ما كان موصوفًا بالكلام، فإنهم يقولون: إن الله تعالى خلق الكلام في الشجرة، وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة، فهاهنا لو قلنا: إن الله خلق الأصوات والحروف في تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك، ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الأعضاء، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لا من الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ وأيضًا أنهم قالوا لتلك الأعضاء: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فقالت الأعضاء: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هي تلك الأعضاء، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى. فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين، وأما القول الثالث: وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز، والأصل عدمه، فهذا منتهى الكلام في هذا البحث، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم، لأن عندنا البنية ليست شرطًا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل، وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطًا للحياة ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: ما رأيت للمفسرين في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سببًا وفائدة، وأقول: لا شك أن الحواس خمسة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ولا شك أن آلة اللمس هي الجلد، فالله تعالى ذكر هاهنا من الحواس [ثلاثة أنواع] وهي السمع والبصر واللمس، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم؛ لأن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه؛ لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام، فكان هذا داخلًا فيه، فبقي حس الشم وهو حس ضعيف في الإنسان، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي. إذا عرفت هذا فنقول: نُقل عن ابن عباس أنه قال: المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج. قال: وهذا من باب الكنايات كما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وأراد النكاح، وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣] والمراد قضاء الحاجة، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الْآدَمِيِّ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ»(١) وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيدًا شديدًا في الإتيان بالزنا؛ لأن مقدمة الزنا

---

(١) **إسناده حسن**: أخرج أحمد في (مسنده) (٥/ ٣) من طريق الجريري أبي مسعود عن حكيم بن مغاوية عن أبيه. . . به، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٥١)، حديث رقم (١١٤٦٩) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ . . . به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٧٧)، حديث رقم (٣٦٤٥) من طريق يزيد بن هارون، أنبأنا سعيد بن إياس الجريري عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه. . . به. وقال: هذا حديث مشهور ببهز بن حكيم عن أبيه وقد تابعه الجريري فرواه عن حكيم بن معاوية وصح به الحديث ولم يخرجاه، وقد رواه أبو قزعة الباهلي أيضًا=

إنما تحصل بالكف، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ.

ثم حكى الله تعالى أنهم يقولون لتلك الأعضاء: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم في المرة الأولى حالما كنتم في الدنيا، ثم على خلقكم وإنطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث - كيف يُستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة، إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة، ولكن ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار. عن ابن مسعود قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر عليَّ ثقفيان وقرشي فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما تقولون؟ فقال الرجلان: إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلا لم يسمع. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهذا نص صريح في أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شيء من المعلومات عن علمه، فإنه يكون من الهالكين الخاسرين، قال أهل التحقيق: الظن قسمان: ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد: أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل، قال ﷺ حكاية عن الله عزّ وجلّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[(٢)] وقال ﷺ: «**لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ**»[(٣)] والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال. وقال قتادة: الظن نوعان: ظن مُنجٍ وظن مُردٍ، فالمنجي قوله: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وأما الظن المردي فهو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ قال صاحب

=عن حكيم بن معاوية. اهـ. ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) (٣/ ٢)، حديث رقم (١٤٧٦) من طريق يزيد بن هارون عن الجريري، عن حكيم بن معاوية عن أبيه. . . به.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (قوله: وما كنتم تستترون) (٤/ ١٨١٨)، حديث رقم (٤٥٣٨)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤١/ ٢٧٧٥)، كلاهما من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. . . به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد)، باب: (السؤال بأسماء الله تعالى) (٦/ ٢٦٩٤)، حديث رقم (٦٩٧٠)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥)، كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . به.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الجنة وصفة نعيمها)، باب: (الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت) (٤/ ٢٢٠٥)، حديث رقم (٨١)، وأبو داود في كتاب (الجنائز)، باب: (ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت) (٣/ ١٣٦٠)، حديث رقم (٣١١٣)، وابن ماجه في (الزهد)، باب: (التوكل واليقين) (٢/ ١٣٩٥)، حديث رقم (٤١٦٧)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٢٥)، جميعًا من طريق الأعمش. . . به.

(الكشاف): (وذلكم) رفع بالابتداء (وظنكم) و(أرداكم) خبران، ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر.

ثم قال: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ﴾ يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه، لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم، أي مقامًا لهم ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ (وإن يُستعتَبوا فما هم من المُعتبِين) أي إن يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي لا سبيل لهم إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار، أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الصحاح): يقال: قايضت الرجل مقايضة، أي عاوضته بمتاع، وهما قَيِّضان كما يقال بَيِّعان، وقَيَّض الله فلانًا، أي جاءه به وأتى به له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر، فقالوا: إنه تعالى ذكر أنه قَيَّض لهم أولئك القرناء، وكان عالمًا بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فإن يزينوا الباطل لهم، وكل مَن فعل فعلاً وعلم أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر لا محالة، فإن فاعل ذلك الفعل لا بد وأن يكون مريدًا لذلك الأثر، فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر. أجاب الجبائي عنه بأن قال: لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعًا له، وبأن قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] يدل على أنه لم يرد منهم إلا العبادة، فثبت بهذا أنه تعالى لم يُرد منهم المعاصي. وأما هذه الآية فنقول: إنه تعالى لم يقل: وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم. وإنما قال: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى أنه تعالى أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه، فقيض أحد الزوجين

للآخر، والغني للفقير، والفقير للغني، ثم بيّن تعالى أن بعضهم يزين المعاصي للبعض.

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه، وهو أن مَن فعل فعلاً وعَلِم قطعًا أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر، فإن فاعل ذلك الفعل يكون مريدًا لذلك الأثر، فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعَلِم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فإنهم يقعون في ذلك الكفر والضلال، وما ذكره الجبائي لا يدفع ذلك، قوله ولو أراد الله منهم المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين لله. قلنا: لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعًا له لوجب أن يكون الله مطيعًا لعباده إذا فعل ما أرادوه، ومعلوم أنه باطل، وأيضًا فهذا إلزام لفظي لأنه يقال: إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد، فهذا إلزام للشيء على نفسه، وإن أردت غيره فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وذكر الزجاج فيه وجهين: الأول: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا، فزينوا أن الدنيا قديمة، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك. الثاني: زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه. وعبّر ابن زيد عنه فقال: زينوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة، وما بقي من أعمالهم الخسيسة.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فقوله: (في أمم) في محل النصب على الحال من الضمير في (عليهم)، والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين في جملة (أمم) من المتقدمين ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ واحتج أصحابنا أيضًا بأنه تعالى أخبر بأن هؤلاء (حق عليهم القول) فلو لم يكونوا كفارًا لانقلب هذا القول الحق باطلاً وهذا العلم جهلاً، وهذا الخبر الصدق كذبًا، وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال، فثبت أن صدور الإيمان عنهم وعدم صدور الكفر عنهم محال.

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (والغوا فيه) بفتح الغين وضمها، يقال لغى يلغَى ولغا يلغو، واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى وفي اللفظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيرًا في منع الناس عن استماعه، فقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضًا، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوًا وباطلاً؛ لتُخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير

مفهومة للناس، فبهذا الطريق تغلبون محمدًا ﷺ. وهذا جهل منهم لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل، والله تعالى ينصر محمدًا بفضله. ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لأن لفظ الذوق إنما يُذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب الشديد، فإذا كان القليل منه عذابًا شديدًا فكيف يكون حال الكثير منه؟!

ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ واختلفوا فيه: فقال الأكثرون: المراد جزاء سوء أعمالهم. وقال الحسن: بل المراد أنه لا يجازيهم على محاسن أعمالهم؛ لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة، فلا جرم لم يتحصلوا إلا على جزاء السيئات.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ والمعنى أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بيّن أن ذلك الأسوأ الذي جُعل جزاء أعداء الله هو النار.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في جملة النار دار السيئات معينة وهي دار العذاب المخلد لهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون في القراءة، وإنما سماه جحودًا لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوا للحسد.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء، بيّن أن الكفار عند الوقوع في العذاب الشديد يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ والسبب في ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جني وإنسي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الانعام: ١١٢] وقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦] وقيل: هما إبليس وقابيل لأن الكفر سُنة إبليس، والقتل بغير حق سُنة قابيل. وقرئ (أرْنا) بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخِذ فخْذ، وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت (أرني ثوبك) بالكسر، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء، معناه أعطني ثوبك.

ثم قال تعالى: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ قال مقاتل: يكونان أسفل منا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ قال الزجاج: ليكونا في الدرك الأسفل من النار. وكان بعض تلامذتي ممن يميل إلى الحكمة يقول: المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب، وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ثم قال: والمراد بقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يعني يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها، وأن لا يكونا مسؤولَين عليها قاهرَين لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه، وقد ذكرنا مرارًا أن الكمالات على ثلاثة أقسام: النفسانية والبدنية والخارجية، وأشرف المراتب النفسانيةُ، وأوسطها البدنية، وأدونها الخارجية، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلم اليقيني والعمل الصالح، فإن أهل التحقيق قالوا: كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيمًا في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال أيضًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وسمعت أن القارئ قرأ في مجلس العبادي هذه الآية، فقال العبادي: والقيامة في القيامة - بقدر الاستقامة.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة عَلِمنا أن ذلك القول كان مقرونًا باليقين التام والمعرفة الحقيقية، إذا عرفت هذا فنقول: في الاستقامة قولان: أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة. الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة. أما على القول الأول ففيه عبارات: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (ثم استقاموا) أي لم يتلفتوا إلى إله غيره. قال ابن عباس في بعض الروايات: هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير ألبتة عن دينه، فكان هو الذي قال: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وبقي مستقيمًا عليه لم يتغير بسبب من الأسباب. وأقول: يمكن فيه وجوه أخرى، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهًا بقيت له مقامات أخرى، فأولها: أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وأيضًا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم، فهذا هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وأما على القول الثاني - وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان

بالأعمال الصالحة - فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، قالوا: وهذا أَوْلى حتى يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ متناولاً للقول والاعتقاد، ويكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ متناولاً للأعمال الصالحة.

ثم قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: عند الموت وقيل: في مواقف ثلاثة: عند الموت وفي القبر وعند البعث إلى القيامة ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أن بمعنى (أي) أو مخففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن، واعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع، ومعلوم أن دفع المضرة أَوْلى بالرعاية من جلب المصلحة، والمضرة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي، وههنا دقيقة عقلية وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر، والحاضر مقدم على الماضي، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلاً، فإذا وُجد يصير حاضرًا، فإذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضيًا، وأيضًا المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولاً، والماضي في كل حالة أبعد حصولاً؛ ولهذا قال الشاعر:

فَلَا زَالَ مَا تَهْوَاهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدِ وَلاَ زَالَ مَا تَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسِ(١)

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أَوْلى بالدفع من المضار الماضية، وأيضًا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجودًا في الماضي، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أَوْلى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم. إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإن قيل: البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانيًا بحصولها، كان الإخبار الثاني إخبارًا ولا يكون بشارة، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير، فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارًا ولا يكون بشارة، فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشارة؟ قلنا: المؤمن يسمع أن من كان مؤمنًا تقيًا كان له الجنة، أما من لم يسمع ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا الكلام من

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر ابن دراج القسطلي، والبيت هكذا:

ولا زالَ مَا ترْجُوهُ أقْرَبَ من غَدِ ولا انْفَكَّ مَا تخشاهُ أبْعَدَ من أمْسِ

وابن دراج القسطلي هو: أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي أبو عمر. ٣٤٧-٤٢١ هـ/ ٩٥٨ - ١٠٣٠م. شاعر كاتب من أهل (قسطلّة درّاج) قرية غرب الأندلس، منسوبة إلى جده. كان شاعر المنصور أبي عامر، وكاتب الإنشاء في أيامه. قال الثعالبي: كان بالأندلس كالمتنبي بالشام. وأورد ابن بسام في الذخيرة نماذج من رسائله وفيضًا من شعره.

الملائكة كان هذا إخبارًا بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك، فكان ذلك بشارة.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعًا من الأهوال ومن الفزع الشديد، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق.

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥] ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات في الأوراح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها، وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون: كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة، فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس، والقطرة بالنسبة إلى البحر، والتعلقات الجسمانية هي التي تَحُول بينها وبين الملائكة، كما قال ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ»(١) فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية، فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصل الأثر بالمؤثر، والقطرة بالبحر، والشعلة بالشمس، فهذا هو المراد من قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تتمنون، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] فإن قيل: فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ وبين قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قلنا: الأقرب عندي أن قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ إشارة إلى الجنة الجسمانية، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

ثم قال: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ والنُّزُل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال، قال العارفون: دلّت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية مجرى النزل، والكريم إذا

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٣)، حديث رقم (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٣٣٥)، حديث رقم (٣٦٥٧٤)، كلاهما من طريق علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة. . . بنحوه، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٦٦). وقال: فيه أبو الصلت لا يعرف ولم يرو عنه علي بن زيد، وفي إسناده علي بن يزيد عن جدعان ضعيف وشيخه أبو الصلت. قال ابن حجر: مجهول.

أعطى النُّزُل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها، وتلك الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلي والكشف التام، نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلاً بفضله وكرمه، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات، ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك أن تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات، وعبّر عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة. وفيه وجه آخر: وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام، وفوق التام، أما التام فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام.

إذا عرفت هذا فنقول: إن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]إشارة إلى المرتبة الأولى، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق، وهو المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهذا أيضًا وجه حسن في نظم هذه الآيات. واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصابًا وافيًا من العلوم الإلهية الكشفية، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن.

المسألة الثانية: من الناس من قال: المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو الرسول ﷺ، ومنهم من قال: هم المؤذنون. ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه.

والدعوة إلى الله مراتب:

فالمرتبة الأولى: دعوة الأنبياء عليهم السلام وهي راجحة على دعوة غيرهم من وجوه: أحدها: أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً، ثم الدعوة بالسيف ثانيًا، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين. وثانيها: أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل. وثالثها: أن نفوسهم أقوى قوة، وأرواحهم أصفى جوهرًا، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل، فكانت دعوتهم أفضل. ورابعها: أن النفوس على ثلاثة أقسام: ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين، فالقسم الأول العوام، والقسم الثاني هم الأولياء، والقسم الثالث هم الأنبياء، ولهذا السبب قال ﷺ: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[1] وإذا عرفت هذا فنقول: إن نفس الأنبياء حصلت لها مزيتان: الكمال في الذات، والتكميل للغير، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل، إذا عرفت هذا فنقول: الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان: العلم والقدرة، أما العلماء، فهم نواب الأنبياء في العلم، وأما الملوك، فهم نواب الأنبياء في القدرة، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد. وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء، ثم العلماء على ثلاثة أقسام: العلماء بالله، والعلماء بصفات الله، والعلماء بأحكام الله: أما العلماء بالله، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لا نهاية لها، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لا نهاية لها، وأما الملوك فهم أيضًا يدعون إلى دين الله بالسيف، وذلك بوجهين: إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا: المرتد يُقتل. وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفًا، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة، فكان ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات، وبتقدير أن يكون محيطًا بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة، فهذا هو الكلام، في مراتب الدعوة إلى الله.

---

(١) **لا أصل له:** أورده الهروي في (المطبوع) (١/ ١٢٣)، حديث رقم (١٩٦). وقال: لا أصل له كما قال الدميري والزركشي والعسقلاني، وكذلك قاله العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٨٣)، حديث رقم (١٧٤٤).

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، إذا عرفت هذا فنقول: كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجبًا؛ لأن كل ما لا يكون واجبًا فالواجب أحسن منه، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، إذا عرفت هذا فنقول: الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمتقضى هذه الآية، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة، ثم نقول: الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج أن الأذان واجب، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال،،وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال؛ لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان، ينتج من الشكل الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في أن الأَوْلى أن يقول الرجل: (أنا مسلم) أو الأولى أن يقول: (أنا مسلم إن شاء الله)، فالقائلون بالقول الأول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير: ومَن أحسن قولاً ممن قال: إني من المسلمين، فحَكَم بأن هذا القول أحسن الأقوال، ولو كان قولنا (إن شاء الله) معتبرًا في كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية.

المسألة الخامسة: الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة: أولها: الدعوة إلى الله. وثانيها: العمل الصالح. وثالثها: أن يكون من المسلمين: أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، فيكون هذا الرجل موصوفًا بخصال أربعة: أحدها: الإقرار باللسان، والثاني: الأعمال الصالحة بالجوارح. والثالث: الاعتقاد الحق بالقلب. والرابع: الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وعلم أنا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدئ من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه، وذكر الوجوه الكثيرة، وأردفها بالوعد والوعيد، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وأجاب عنها أيضًا بالوجوه الكثيرة، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغَّب محمدًا ﷺ في أن لا يترك الدعوة

إلى الله، فابتدأ أولاً بأن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] فلهم الثواب العظيم، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعًا على أحسن وجوه الترتيب، ثم كأن سائلاً سأل فقال: إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به. فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعًا لهذا الإشكال فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق، والصبر على جهالة الكفار، وترك الانتقام، وترك الالتفات إليهم، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] وما ذكروه في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فكأنه قال: يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبًا للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة، وهم بالضد من ذلك، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعًا لك من الاشتغال بهذه الحسنة.

ثم قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش، استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة، تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظَّمه فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال الزجاج: أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك الانتقام.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس، فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذَّ ولم تشتغل بالانتقام، فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات، ويحتمل أن يكون المراد: وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة، فعلى هذا الوجه قوله ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ مدح بفعل الصبر، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وعد بأعظم الحظ من الثواب.

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام وفي ترك الخصومة، ذكر عقيبه طريقًا آخر عظيم النفع أيضًا في هذا الباب، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على

الاستقصاء، قال صاحب (الكشاف): النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي، وجعل النزغ نازغًا، كما قيل: جَدَّ جَدُّه أو أريد ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ نازغ وصفًا للشيطان بالمصدر، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن، فاستعذ بالله من شره، وامض على شأنك ولا تطعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى، أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيهًا على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هي العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض، فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهي الليل والنهار، وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهًا على أن الظلمة عدم والنور وجود، والعدم سابق على الوجود، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع، فقد شرحناها في هذا الكتاب مرارًا، لا سيما في تفسير قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وفي تفسير قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

ولما بيّن أن الشمس والقمر محدثان، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما عبدان مخلوقان ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الخالق القادر الحكيم، والضمير في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، يقال للأقلام: بريتها وبريتهن. ولما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ كن في معنى الإناث فقال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ وإنما قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأن ناسًا كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنُهوا عن هذه الواسطة وأُمروا أن لا

يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء، فإن قيل: إذا كان لا بد في الصلاة من قبلة معينة، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أَوْلى. قلنا: الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالي الدرجة، فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله؛ فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود، بخلاف الحجر المعين، فإنه ليس فيه ما يوهم الإلهية، فكان المقصود من القبلة حاصلاً والمحذور المذكور زائلاً فكان هذا أَوْلى. واعلم أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن موضع السجود هو قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لأجل أن قوله: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ متصل به، وعند أبي حنيفة هو قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأن الكلام إنما يتم عنده.

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون: نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى، ولكنا عبيد للشمس وهما عبدان لله. وإذا كان قول هؤلاء هكذا، فكيف يليق أن يقال: إنهم استكبروا عن السجود لله؟

والجواب: ليس المراد من لفظ الاستكبار ما ذكرتم، بل المراد: فإن استكبروا عن قبول قولك يا محمد في النهي عن السجود للشمس والقمر.

السؤال الثاني: أن المشبهة تمسكوا بقوله: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ في إثبات المكان والجهة لله تعالى.

والجواب: أنه يقال: عند الملك من الجند كذا وكذا، ولا يراد به قرب المكان، فكذا ههنا. ويدل عليه قوله: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» [(١)] «وَأَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَجْلِي» [(٢)] ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ويقال عند الشافعي رضي الله عنه: إن المسلم لا يُقتل بالذمي.

السؤال الثالث: هل تدل هذه الآية على أن المَلَك أفضل من البشر؟

الجواب: نعم؛ لأنه إنما يستدل بحال الأعلى على حال الأدون، فيقال: هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان، فالأكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه، فثبت أن هذا النوع من الاستدلال إنما يحسن بحال الأعلى على حال الأدون.

السؤال الرابع: قال ههنا في صفة الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فهذا يدل على أنهم مواظبون على التسبيح، لا ينفكون عنه لحظة واحدة، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال، ككونهم ينزلون إلى الأرض كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾

---

(١)، (٢) تقدما.

﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]. الجواب: إن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم؛ لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة، وهذا لا ينافي كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال، فإن قالوا: هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لا بد وأن يتنفسوا، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح. قلنا: كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر، فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم في حياتهم، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله - بأحوال البشر، فإن بين الحالتين بعد المشرقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهي الليل والنهار والشمس والقمر، أتبعها بذكر آية أرضية فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ والخشوع: التذلل والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات، وربت: انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مرارًا لا حصر لها. ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا هو الدليل الأصلي وتقريره: إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضًا أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادرًا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ألبتة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب، ثم بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات، ويحاول إلقاء الشبهات فيها، فقال: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق، فالملحد هو المنحرف، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل، وقوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ تهديد، كما إذا قال الملك المهيب: (إن الذين ينازعونني في ملكي أعرفهم)، فإنه يكون ذلك تهديدًا.

ثم قال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وهذا استفهام بمعنى التقرير، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آياتنا يُلقون في النار، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذا أيضًا تهديد ثالث، ونظيره ما يقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم: (اعملوا ما شئتم) فإن هذا مما يدل على الوعيد الشديد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ وهذا أيضًا تهديد، وفي جوابه وجهان: أحدهما: أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة في القرآن، على تقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، يجازون بكفرهم أو ما أشبه. والثاني: أن جوابه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ والأول أصوب. ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن، أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ والعزيز له معنيان: أحدهما: الغالب القاهر والثاني: الذي لا يوجد نظيره، أما كون القرآن عزيزًا بمعنى كونه غالبًا، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ما سواه، وأما كونه عزيزًا بمعنى عديم النظير، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته. ثم قال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ وفيه وجوه: الأول: لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه. الثاني: ما حكم القرآن بكونه حقًّا لا يصير باطلاً، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقًّا. الثالث: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه. والدليل عليه قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فعل هذا الباطل هو الزيادة والنقصان. الرابع: يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضًا وله، ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضًا له. الخامس: قال صاحب (الكشاف): هذا تمثيل، والمقصود أن الباطل لا يتطرق إليه، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يتصل إليه.

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه؛ لأن النسخ إبطال، فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه، وإنه على خلاف هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي حكيم في جميع أحواله وأفعاله، حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه، ولهذا السبب جعل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فاتحة كلامه، وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة هو قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله، ثم بيّن شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله، رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وفيه وجهان: الأول وهو الأقرب: أن المراد: ما تقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزّلة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمحقين ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للمبطلين، ففوّض هذا الأمر إلى الله واشتغِل بما أُمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى. الثاني: أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل، وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته. وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة - هو ذكر الأجوبة عن قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولم يُعرض عنه، وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل. ثم إنه تعالى ذكر جوابًا آخر عن قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] فقال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: (أأعجمي) بهمزتين على الاستفهام، والباقون بهمزة واحدة ومدة، على أصلهم في أمثاله، كقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦] ونحوها على الاستفهام، وروي عن ابن عباس بهمزة واحدة، وأما القراءة بهمزتين: فالهمزة الأولى همزة إنكار، والمراد أنكروا وقالوا: قرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي،

وأما القراءة بغير همزة الاستفهام، فالمراد الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل إليه عربي.

المسألة الثانية: نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم! فنزلت هذه الآية، وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن؛ لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابًا منتظمًا، فضلاً عن ادعاء كونه معجزًا؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥] وهذا الكلام أيضًا متعلق به وجواب له، والتقدير: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب، ويصح لهم أن يقولوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي من هذا الكلام ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب، وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها، وفي آذانكم وقر منها؟! فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جوابًا عن ذلك الكلام، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

واعلم أن هذا متعلق بقولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخر الآية، كأنه تعالى يقول: إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم، فلا يمكنكم أن تقولوا: إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة. فبقي أن يقال: إن كل من آتاه الله طبعًا مائلاً إلى الحق، وقلبًا مائلاً إلى الصدق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن هذا القرآن يكون في حقه هدًى شفاء. أما كونه هدًى فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان غارقًا في بحر الخذلان، وتائهًا في مفاوز الحرمان، ومشغوفًا بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقرًا، كما قال: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥] وكان القرآن عليهم عمى كما قال: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ بسبب ذلك الحجاب الذي حال بين الانتفاع ببيان القرآن، وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه، صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد، فيكون هذا التفسير أَوْلى مما ذكروه، وقرأ الجمهور: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ على المصدر، وقرأ ابن عباس (عَم) على النعت، قال أبو عبيد: والأول هو الوجه، كقوله: ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ وكذلك ﴿عَمًىۚ﴾ وهو مصدر مثلها، ولو كان المذكور أنه هادٍ وشافٍ لكان الكسر في ﴿عَمًىۚ﴾ أجود فيكون نعتًا مثلهما. وقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء، وقيل: من دعي من مكان بعيد لم يسمع، وإن سمع لم يفهم، فكذا حال هؤلاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ وأقول أيضًا: إن هذا متعلق بما قبله، كأنه قيل: إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه، فقبله بعضهم وردّه الآخرون، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك، وردَّه الآخرون، وهم الذين يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، كما قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب، وإنهم لفي شك من صدقك وكتابك مريب، فلا ينبغي أن تستعظم استيحاشك من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]..

ثم قال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ يعني خفِّف على نفسك إعراضهم، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن
شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ
ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا
مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ
إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ
عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ
هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ
أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن
لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦] ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، وكأن سائلاً قال: ومتى

يكون ذلك اليوم؟ فقال تعالى: إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر، أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله، فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين: أحدهما: قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ والثاني: قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ قال أبو عبيدة: أكمامها: أوعيتها وهي ما كانت فيه الثمرة، وواحدها كم وكمة. قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم (من ثمرات) بالألف على الجمع، والباقون (من ثمرة) بغير ألف على الواحد.

واعلم أن نظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤] إلى آخر الآية، فإن قيل: أليس أن المنجمين قد يتعرفون من طالع سَنة العالم أحوالاً كثيرة من أحوال العالم، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم، وههنا شيء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة، وأيضًا علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية؟ قلنا: إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء من المطالب ألبتة، وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف، والمذكور في هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله، والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة، وهذا الذي ذكره ههنا شديد التعلق أيضًا بما وقع الابتداء به في أول السورة، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمدًا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان، بدليل أنه قال في أول السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦] فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي بحسب زعمكم واعتقادكم ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ قال ابن عباس: أسمعناك. كقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢] بمعنى سمعت، وقال الكلبي: أعلمناك. وهذا بعيد؛ لأن أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء علمًا واجبًا، فالإعلام في حقه محال.

ثم قال: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ وفيه وجوه: الأول: ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى. الثاني: ما منا من أحد يشاهدهم. لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. الثالث: أن قوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام فإن الله يحييها، ثم إنها تقول: ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة. وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم، فكأنهم ضلوا عنهم.

ثم قال: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول: إن الكفار ظنوا أولاً ثم أيقنوا أنه لا محيص لهم عن النار والعذاب. ومنهم من قال: إنهم ظنوا أولاً أنه لا محيص لهم

عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده. وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم.

ولما بيّن الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله في الدنيا، تبرءوا عن تلك الشركاء في الآخرة، بين أن الإنسان في جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المنهج، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظَّم، وإن أحسّ ببلاء ومحنة ذبل، كما قيل في المثل: (إن هذا كالقرلى، إن رأى خيرًا تدلى، وإن رأى شرًّا تولى)، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعني أنه في حال الإقبال ومجيء المرادات لا ينتهي قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيسًا قانطًا، فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له إلى هذا اليأس الكلي يدل على كونه مبتدل الصفة متغير الحال. وفي قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ مبالغة من وجهين: أحدهما: من طريق بناء فَعول. والثاني: من طريق التكرير، واليأس من صفة القلب، والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة.

ثم بيّن تعالى أن هذا الذي صار آيسًا قانطًا لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فإن هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى: فأولها: أنه لا بد وأن يقول: (هذا لي) وفيه وجهان: الأول: معناه أن هذا حقي وصل إليَّ لأني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله. ولا يعلم المسكين أن أحدًا لا يستحق على الله شيئًا، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عاريًا عن الفضائل، فهذا الكلام ظاهر الفساد، وإن كان موصوفًا بشيء من الفضائل والصفات الحميدة، فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه، وإذ تفضل الله بشيء على بعض عبيده، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سببًا لأن يستحق على الله شيئًا آخر، فثبت بهذا فساد قوله: (إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي) والوجه الثاني: أن هذا لي، أي لا يزول عني ويبقى عليَّ وعلى أولادي وذريتي.

والنوع الثاني من كلماتهم الفاسدة: أن يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول: إنها لي. وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والنوع الثالث من كلماتهم الفاسدة: أن يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل، وبتقدير أن يكون حقًّا فإن لي عنده للحسنى، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه: الأول: أن كلمة (إنَّ) تفيد التأكيد. الثاني: أن تقديم كلمة (لي) تدل على هذا التأكيد. الثالث: قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده. كما تقول (لي عند فلان كذا من الدنانير)، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده، فلو قلت (إن لي عند فلان كذا من الدنانير) لا يفيد ذلك. والرابع: اللام في

قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ تفيد التأكيد. الخامس: للحسنى يفيد الكمال في الحسنى.

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي نُظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ في مقابلة قولهم ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات، حكى أفعاله أيضًا فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿وَنَا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبَّر وتعظَّم، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع، وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضًا، كما استعير الغلظ لشدة العذاب.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبيَّن أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة، ويُظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم، وبيَّن أن الإنسان جُبل على التبدل، فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم، وإن أحسّ بالفتور والضعف بالغ في إظهار الذلة والمسكنة، ذكر عقيبه كلامًا آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا في إظهار النفرة من قبول التوحيد، وأن لا يفرطوا في إظهار العداوة مع الرسول ﷺ فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ وتقرير هذا الكلام أنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه، وما تأملتم فيه، وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ثم من المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلاً علمًا بديهيًا، وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علمًا بديهيًا، فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحًا وأن يكون فاسدًا فبتقدير أن يكون صحيحًا كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب، فهذا الطريق يوجب عليكم أن تتركوا هذه النفرة، وأن ترجعوا إلى النظرة والاستدلال، فإن دل الدليل على صحته قبلتموه، وإن دل على فساده تركتموه، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل، وقوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ موضوع موضع (منكم) بيانًا لحالهم وصفاتهم. ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة، وأجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين، قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ قال الواحدي: واحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الأرض، وكذلك آفاق السماء: ونواحيها وأطرافها. وفي تفسير قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قولان: الأول: أن المراد بآيات الآفاق: الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإضلال والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة، وقد أكثر الله منها في القرآن، وقوله: ﴿وَفِىٓ

أَنفُسِهِمْ ﴾ المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكوُّن الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١] يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزّه عن المثل والضد، فإن قيل: هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك، فثبت أنه تعذَّر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه. قلنا: إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانًا فزمانًا، ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها فكلما ازداد وقوفًا على تلك العجائب والغرائب فصَحَّ بهذا الطريق قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة، وبآيات أنفسهم فتح مكة. والقائلون بهذا القول رجّحوه على القول الأول لأجل أن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول. إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لائق بالوجه الأول كما قررناه، فإن قيل: حمل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أقصى ما في الباب أن محمدًا ﷺ استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة، ثم استولى على مكة، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقًّا، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم، وذلك لا يدل على كونهم محقين؛ ولهذا السبب قلنا: إن حمل الآية على الوجه الأول أَوْلى، ثم نقول: إن أردنا تصحيح هذا الوجه، قلنا: إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد ﷺ على تلك البلاد على كونه محقًّا في ادعاء النبوة، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر عن مكة أنه يستولي عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقًا لخبره، فيكون هذا إخبارًا صدقًا عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجزة، فبهذا الطريق يُستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقًّا.

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل ﴿يَكْفِ﴾ و﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، وتقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، ومعنى كونه تعالى شهيدًا على الأشياء أنه خلق الدلائل عليها، وقد اسقضينا ذلك في تفسير قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾[الأنعام: ١٩] والمعنى: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة؟!

ثم ختم السورة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾ أي إن القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة، وقرئ (في مُرية) بالضم.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. فإن قيل: قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ يقتضي أن تكون علومه متناهية. قلنا: قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ يقتضي أن يكون علمه محيطًا بكل شيء من الأشياء، فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهيًا، لا كون مجموعها متناهيًا، والله أعلم بالصواب.

تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة، والحمدلله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم.

سورة فصلت مكية في قول الجميع[1]

وهي أربعٌ وخمسون[2]، وقيل: ثلاثٌ وخمسون آية[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الزجاج[4]: «تَنْزِيلٌ» رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وهذا قولُ البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رَفْعُه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: «كِتَابٌ» بدل من قوله: «تَنْزِيلٌ»[5]. وقيل: نَعْتٌ لقوله: «تَنْزِيلٌ». وقيل: «حم» أي: هذه «حم» كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا فـ «حم» خبر ابتداء مُضمر، أي: هو «حم»، وقوله: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ آخر، وقوله: «كِتَابٌ» خبره.

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي: بُيِّنَت وفُسِّرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣، وزاد المسير ٧/ ٢٤٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/١٠٧.

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٥.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٧، وقول الفراء الذي بعده منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٧.

وقُرئ: «فَصَلَتْ» أي: فرَّقت بين الحقّ والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعدَ من البلد[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. في نصبه وجوه؛ قال الأخفش[٢]: هو نَصْبٌ على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي: اذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا». وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصَّلنا «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: على الحال، أي: «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» في حال كونه «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: لما شُغل التفصيل[٣] بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، انتصب «قُرآناً» لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع[٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي: إن القرآن مُنزَل من عند الله. وقال مجاهد: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجِزون عن مثله[٥]، ولو كان غيرَ عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصحّ، والسورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات، والعامل فيه «فُصِّلَتْ»[٦]. وقيل: هما نعتان للقرآن[٧] «بَشِيرًا» لأولياء الله «نذيرًا» لأعدائه. وقرئ: «بَشِيرٌ ونذيرٌ»[٨] صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف[٩]. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٨٠ .

(٣) في (م): فصلت.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٣٩ .

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٠٦ .

(٨) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ لزيد بن علي.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

ورُوي أن الزَّيَّال[١] بن حرملة قال: [قال جابر بن عبد الله][٢]: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالشِّعر والكهانة والسِّحر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره؛ فقال عتبةُ بن ربيعة: والله، لقد سمعتُ الكهانةَ والشِّعر والسِّحر، وعلمتُ من ذلك علماً لا يخفى عليَّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدِّثه. فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: يا محمد، أنت خيرٌ أَمْ قصيّ بن كلاب؟ أنت خيرٌ أَمْ هاشم؟ أنت خيرٌ أَمْ عبد المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فبم تَشْتِمُ آلهتنا، وتُضَلِّل آباءنا، وتُسفِّه أحلامَنا، وتذمُّ ديننا؟ فإنْ كنتَ إنما تُريد الرِّياسة عَقَدْنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنتَ تُريد الباءة زوَّجناك عشرَ نساء من أيِّ بنات قريش شئت، وإنْ كنتَ تُريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وَعقِبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بَذَلْنا لك أموالَنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبيُّ ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: اسمع[٣]: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فوثَبَ عتبةُ ووضع يدَه على فم النبيِّ ﷺ، وناشدَه اللهَ والرَّحِمَ ليَسْكُتَنَّ، ورَجَعَ إلى أهله ولم يَخرجْ إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أَمْ أعجبكَ طعامُه؟ فغضب عُتبة وأقسم ألا يُكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: والله، لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء ـ والله ـ ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وأمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله، لقد خفت أن ينزلَ بكم العذاب؛ يعني الصاعقة[٤].

---

(١) في النسخ: الريان، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

(٣) عبارة (م): «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمعُ، قال...

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في مسنده (١١٢٣)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١١٠. وفي إسناده الأجلح =

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ «حم. فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعُتبة مُصْغٍ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسولُ الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد، قد سمعتَ الذي قرأتُ عليك، فأنت وذاك» فانصرف عتبةُ إلى قريش في ناديها فقالوا: والله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضَى به من عندكم. ثم[١] قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله، لقد سمعتُ كلاماً من محمد ما سمعتُ مثلَه قط، والله، ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. فأَطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لِمَا سَمعتُ من كلامه نبأٌ، فإنْ أصابته العربُ كُفِيتُموه بأيدي غيركم، وإن كان مَلِكاً أو نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به؛ لأن مُلْكَه مُلْكُكُم وَشَرَفَهُ شرفُكم. فقالوا: هيهات، سحرك محمدٌ يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ الأكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء. وقد مضَى في «البقرة»[٣]. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجَعْبة[٤] للنبل. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صَمَم؛ فكلامُك لا يدخل أسماعَنا، وقلوبنا مستورةٌ عن فهمه. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنامَ وهو يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ. قال معناه الفراء[٥] وغيره. وقيل: سِتْرٌ مانعٌ عن الإجابة. وقيل: إنَّ أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب؛ استهزاء منه. حكاه النقاش[٦]، وذكره القشيري. فالحجابُ هنا الثوب.

= ابن عبد الله الكندي. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٦٢ : وقد ضُعِّف بعض الشيء.

(١) قوله: ثم، من (م).

(٢) وأخرجه عن محمد بن كعب القرظي ابنُ إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) ٢/ ٢٤٦ .

(٤) في النسخ: كالجنة، والمثبت من تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٩ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل في هلاكِنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينُك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسًا[١]: فاعمل لآخرتك، فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: لست بمَلَك، بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علَّمه الله تعالى التواضع[٣]. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فـ﴾ آمِنوا به و﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجِّهوا وجوهكم بالدُّعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تعرج على شيء غير القَصْد إلى منزلك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: من شِرْككم.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاةُ الأنفس. وقال قتادة: لا يُقِرُّون بالزكاة أنها واجبة[٤]. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدَّقون ولا يُنفقون في الطاعة[٥]. قرَّعهم بالشُّح الذي يَأنَفُ منه الفُضَلاء. وفيه دلالةٌ على أن الكافر يُعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه[٦]. وقال الفراء[٧] وغيره: كان المشركون يُنفقون النَّفقات، ويَسقون الحجيج ويُطعمونهم، فحرَّموا ذلك على مَنْ آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) كذا في النسخ: خامسًا، لكن المصنف رحمه الله لم يذكر إلا أربعةَ أقوال.
(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٧٩ .
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .
(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلهذا لا يُنفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. الزمخشري[١]: فإنْ قلتَ: لم خصَّ من بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقروناً بالكُفر بالآخرة؟ قلت: لأنَّ أحبَّ شيء إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحه، فإذا بَذَله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على ثَباته، ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يُثَبِّتون أنفسهم، ويدلون على ثَباتها بإنفاق الأموال، وما خُدع المؤلفة قلوبهم إلا بِلُمظة[٢] من الدنيا، فقويت عُضْبتُهم ولانت شَكيمتهم؛ وأهلِ الرِّدة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فَنُصِبتْ لهم الحروب وجُوهدوا. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ من مَنْعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذٌ من: مننتُ الحبل إذا قطعتَه؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... على الصَّدِيق ولا خَيْرِي بممنونِ[٣]

وقال آخر:

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كأنَّهُ أَهْبَاء[٤]

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل: غير منقوص[٥]. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسانِ، أي: قوَّته؛ وقاله قطرب[٦]؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٣.

(٢) اللُّمظة: النُّكتة من البياض. اللسان (لمظ) والمراد هنا: الشيء اليسير.

(٣) البيت في المفضليات ص ١٦٠. والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٦٩، وفيه: ابن عيسى، بدل: ابن عباس.

(٤) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت من معلَّقته. ينظر شرح القصائد المشهورات للنحاس ص٥٧.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

وأنشد قول زهير:

فَضْلَ الجِيادِ على الخيل البِطاءِ فلا يُعْطي بذلك مَمْنونًا ولا نَزِقا[١]

قال الجوهري[٢]: والمَنُّ القطع، ويقال: النَّقْص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لَبيد:

غُبْسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها[٣]

وقال مجاهد: «غيرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غيرُ مَمْنُون» عليهم به. قال السدي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضى والهَرْمى إذا ضَعُفُوا عن الطاعة كُتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين؛ الثانية بَيْن بَيْن، و«أائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين[٥]، وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره

(١) شرح ديوان زهير ص٤٩ .

(٢) في الصحاح (منن).

(٣) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨. وصدره: لمعفَّرٍ قَهْد تنازع شِلْوَهُ. قال شارحه: الغُبس: الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيَّش من الصيد. لا يُمَنّ طعامها: لا أحد يُطعمها فَيَمنَّ عليها.

(٤) تفسير البغوي ٤/١٠٨ .

(٥) قرأ نافع ـ في رواية قالون ـ وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بينهما. وقرأ نافع ـ في رواية ورش ـ وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال ألف. والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف. السبعة ص ١٣٧ ، والتيسير ص ٣٢ .

بتوبيخهم والتعجب من فِعْلهم، أي: لِمَ تكفُرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين(١).

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أضداداً وشُركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلقَ اللهُ الأرضَ مادَتْ على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبِّتها يا جبريل. فنزل فأَمْسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب، أنت أعلمُ، لقد غُلِبتُ فيها، فَثبَّتها بالجبال وأرساها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابَّها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأُخرى لِيعيش بعضُهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد(٢). قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد لَيتبايعون الذهبَ بالمِلح مِثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابريّ من سابور، والطيالسة من الرِّي، والحِبَرُ اليمانية من اليمن(٣).

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ يوماً؛ أي: في تتمة خمسةَ عشر يوماً(٤). قال معناه ابن الأنباري وغيره.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى: في أربعة أيام مستوية تامَّة. الفراء(٥): في

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ ، وتفسير البغوي ١٠٨/٤ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧١ .

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٢ - ١٣ .

الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وقدَّر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري[١].

وقرأ الحسن البصري ويعقوبُ الحَضْرمي: «سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ» بالجر. وعن ابن القَعْقاع: «سَواءٌ» بالرفع[٢]؛ فالنصب على المصدر، و«سَوَاءً» بمعنى استواء، أي: استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجرّ على النَّعت لأيام أو لأربعة، أي: «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامَّة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ»[٣].

وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»: ولغير السائلين؛ أي: خلق الأرضَ وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويُعطي مَنْ سأل ومَنْ لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: عَمَدَ إلى خَلْقها وقَصَدَ لِتسويتها[٤]. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقد مضى القولُ هناك[٥]. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: صَعِدَ أمرُه إلى السماء[٦]؛ وقاله الحسن[٧]. ومَن قال: إنه صفةٌ ذاتية زائدةٌ قال: استوى في

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٠ .

(٢) قراءة يعقوب ويزيد بن القعقاع (من العشرة) في النشر ٢/ ٣٦٦ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٦ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ .

(٥) ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢) من طريق محمد بن مروان ـ وهو السدي الصغير ـ عن الكلبي عن أبي صالح به. وهؤلاء كلهم متروكون عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها. ذكره البيهقي. وينظر تقريب التهذيب.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٢ .

الأزل بصفاته. و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدُّخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس؛ على ما مضَى في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره[(١)].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأخْرِجاها لِخَلْقي. قال ابن عباس: قال اللهُ تعالى للسماء: أَطلعِي شَمْسَك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحَك وسحابَك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارَك وأخرجي شجرَك وثمارَكِ طائعتين أوكارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[(٢)]. وفي الكلام حذف، أي: أتينا أمرَكَ «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كُونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فعلى هذا قال ذلك قبلَ خَلْقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور.

وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما: أنه قولٌ تكلَّم به. الثاني: أنها قُدرةٌ منه ظهرتْ لهما، فقام مَقامَ الكلام في بلوغ المُراد؛ ذكره الماوردي[(٣)].

«قالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضاً وجهان: أحدُهما أنه ظُهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقامَ قولهما، ومنه قول الراجز:

امــتــلأ الــحَــوْضُ وقــال قَــطْــنــي   مَــهْــلًا رُوَيــدًا قــد مَــلَأت بَــطْــنــي[(٤)]

يعني ظهرَ ذلك فيه. وقال أكثرُ أهل العلم: بل خلقَ اللهُ فيهما الكلام فتكلَّمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نَصْر السَّكْسكي: فنطقَ من الأرض موضعُ الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحيَالها؛ فوضع الله تعالى فيه حَرَمه[(٥)].

---

(١) ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩١.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٧٢. وما بعده منه.

(٤) سلف ٢/ ٢٥٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٧٣.

وقال: «طَائِعِينَ» ولم يقل: طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سماواتٌ وأَرَضُون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما. وقيل: لما وَصَفَهُنَّ بالقول والإجابة وذلك مِن صفات مَن يعقل أجراهما في الكناية مُجرى مَن يعقِل[(١)]، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدَّم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ، لو أن السماواتِ والأرضَ حين قلت لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عَصَيَاكَ، ما كنتَ صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمرُ دابَّةً من دوابِّي فتبتلعهما. قال: يا ربّ، وأين تلك الدابَّة؟ قال: في مَرْج من مُرُوجي. قال: يا رب، وأين ذلك المَرْج؟ قال: عِلْم من علمي. ذكره الثعلبي[(٢)].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة: «آتِيا» بالمَدّ والفتح. وكذلك قوله تعالى: «آتَيْنَا طَائِعِينَ»[(٣)] على معنى: أَعْطِيَا[(٤)] الطاعةَ من أنفسكما، «قالتا»: أَعْطَيْنَا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز ـ وهو أحسنُ ـ أن يكون «آتَيْنَا» فاعَلْنا، فَحُذِفَ مفعولٌ واحد. ومَن قرأ: «أَتَيْنَا» فالمعنى: جئنا بما فينا؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير ما موضع، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: أكملهنَّ وفرغَ منهنَّ. وقيل: أحكمهنَّ كما قال:

وعليهما مَسْرُودَتانِ قَضَاهما ... داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[(٥)]

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلقَ فيها الأرض، فوقع خلقُ السماوات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

(٢) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٤٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٥١١.

(٤) في النسخ الخطية: أعطينا، والمثبت من (م).

(٥) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وسلف ٢/ ٣٣٦. وقوله: مسرودتان، أي: درعان. والصَّنَع: الحاذق بالعمل. شرح ديوان الهذليين ص ١٩.

قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدُّون[١]. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق اللهُ الأرضَ في يومين، وقدَّر فيها أقواتَها في يومين، وخلق السماوات في يومين؛ خلق الأرضَ في يوم الأحد والاثنين، وقدَّر فيها أقواتَها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلقَ السماواتِ في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخرُ ساعة في يوم الجمعة خلقَ اللهُ آدمَ في عَجَل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابَّة إلا وهي تفزعُ من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[٢]. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التربةَ يومَ السبت» الحديث، وقد تكلَّمنا على إسناده في أول سورة «الأنعام»[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شَمْسَها وقمرها ونجومَها وأفلاكَها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج[٤]. وهو قول ابن عباس[٥]؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحجُّ إليه وتطوفُ به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور[٦]. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي: أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها[٧]. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم، وهو أمرُ تكوين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٤ دون قوله: وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. وهذا قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه أحمد (٧٦٨٧).

(٣) ٨/ ٣١٤ وما بعدها، وينظر تخريج الحديث ثمة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٠٩ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٠٧ عن السدي.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكب تُضيء. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكبَ تُضيء. وقيل: بل الكواكبُ مختصةٌ بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحَفِظْناها حِفْظًا؛ أي: من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحِفْظُ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدَّم في «الحجر» بيانه[1].

وظاهر هذه الآية يدلُّ على أن الأرضَ خُلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا يدلُّ على خلق السماء أوّلاً. وقال قوم: خُلقت الأرضُ قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدَّحْوُ غيرُ الخَلْق، فالله خَلَقَ الأرضَ، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرضَ، أي: مدَّها وبَسَطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «البقرة»[2]، والحمد لله. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني ـ كفار قريش ـ عمَّا تَدْعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: خوَّفتُكم هلاكاً مثلَ هلاك عاد وثمود. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مَنْ أُرسل إليهم وإلى مَن قَبْلهم ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض، أي: بـ «ألَّا

(١) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٢) ١/ ٣٨٣. وما بعدها.

تَعْبُدُوا». ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ بدلَ الرُّسل[١]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاءٌ منهم. وقيل: إقرارٌ منهم بإرسالهم، ثم بعدَه جُحود وعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عبادِ الله هود ومَن آمن معه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دَفْعِ العذاب عن أنفسنا بفضل قوَّتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] عن ابن عباس: أن أطولَهم كان مئةَ ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقُدرة، وإنما يقدرُ العبدُ بإقدار الله؛ فالله أقدرُ إذًا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصاعقة التي أَرسلها عليهم، أي: ريحاً باردةً شديدةَ البرد وشديدةَ الصوت والهُبوب. ويقال: أصلُها صَرَّرَ من الصَّر فأَبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: كُبكِبُوا، أصله: كُبِّبوا، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف[٤]. أبو عُبيدة[٥]: معنى صَرْصَر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جُبير: شديدة البرد. وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة:

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا: إذا سُئلوا الدِّيَة. مجاهد: الشديدة السموم[٦]. وروى معمر عن قتادة

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

(٣) ٩/ ٢٦٤.

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٩٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٧٤، والكلام السالف منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة المطبوع.

قال: باردة[١]. وقاله عطاء؛ لأن «صَرْصَراً» مأخوذ من صرّ، والصِّرُّ في كلام العرب البرد، كما قال:

لـهـا عُـذَرٌ كـقُـرون الـنِّـسا ءِ رُكِّـبْـنَ فـي يـومِ ريـح وصِـرّ[٢]

وقال السدي: الشديدة الصَّوت[٣]. ومنه صَرّ القلمُ، والبابُ يَصِرّ صريراً، أي: صَوَّت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد[٤]. قال ابن السِّكِّيت[٥]: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر، وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصَّرة، وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصَرْصَر اسم نهر العراق[٦].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كُنَّ آخرَ شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. وقيل: «نَحِسَاتٍ» باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شِداد. وقيل: ذات غُبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قـدِ اغْـتَـدى قـبـلَ طُـلـوعِ الـشَّـمـس لـلـصَّـيْـدِ فـي يـومٍ قَـلـيـلِ الـنَّـحْـسِ[٧]

قال الضحاك وغيره: أمسك اللهُ عنهم المطر ثلاثَ سنين، ودرَّت الرياحُ عليهم من غير مطر[٨]، وخرج منهم قومٌ إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناسُ في ذلك

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٨.
(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٥، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٥. والعُذَر: شعرات من القفا إلى وسط العنق. اللسان (عذر).
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٧٤.
(٤) الصحاح (صرر).
(٥) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٧.
(٦) ذكره ابن منظور في اللسان (صرر).
(٧) الرجز والأقوال التي قبله كلها من النكت والعيون ٥/ ١٧٤ - ١٧٥ ما عدا قول الضحاك، فقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩.
(٨) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْدٌ طلبوا إلى الله تعالى الفَرَجَ منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة؛ مُسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناسٌ كثير شتى، مختلفةٌ أديانهم، وكلُّهم مُعَظِّم لمكة، عارفٌ حُرمتها ومكانها من الله تعالى.

وقال جابر بن عبد الله والتَّيمي: إذا أراد اللهُ بقوم خيراً أرسلَ عليهم المطرَ وحبس عنهم كَثْرة الرياح، وإذا أراد اللهُ بقوم شرًّا حبس عنهم المطر وسلَّط عليهم كَثْرة الرياح[١]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَحْساتٍ» بإسكان الحاء على أنه جمع نَحْس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: «نَحِسَاتٍ» بكسر الحاء[٢]، أي: ذوات نحس. ومما يدلُّ على أن النَّحْس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] ولو كان صفةً لم يُضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتجُّ أبو عمرو على قراءته[٣]؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الثانيةَ وقال: لا تصحُّ حُجَّةُ أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليومَ إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حُجَّةً لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: في يَوْمٍ نَحْسٍ، وهذا لم يقرأ به أحدٌ نعلمه. وقال المهدوي: ولم يُسمَعْ في «نَحْسٍ» إلا الإسكان.

قال الجوهري[٤]: وقُرئ في قوله: «في يَوْمِ نَحْسٍ» على الصفة، والإضافة أكثرُ وأجودُ. وقد نَحِسَ الشيء ـ بالكسر ـ فهو نَحِسٌ أيضًا؛ قال الشاعر:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً أنّ إخوتهم ... طَيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ[٥]

ومنه قيل: أيام نَحِسَات. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نُذيقَهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظمُ وأشدُّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٩ .

(٢) السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/٩ بنحوه.

(٤) في الصحاح (نحس).

(٥) لم نقف عليه في غير الصحاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم الهُدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره[(١)]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما: «وَأَمَّا ثَمُودَ» بالنصب[(٢)]، وقد مضى الكلامُ فيه في «الأعراف»[(٣)]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة[(٤)].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ «الهُونِ» بالضم الهوان. وهون بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخفَّ به. والاسمُ الهَوان والمهانة[(٥)]. وأُضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقةَ اسمٌ للمبيد المُهلك، فكأنه قال: مُهلك العذاب؛ أي: العذاب المُهلك. والهُون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة، والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علمُ اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهُون اسماً مثل الدُّون؛ يقال: عذابٌ هون، أي: مُهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. وقيل: أي: صاعقةُ العذاب ذي الهُون. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقةَ، على ما تقدّم[(٦)].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني صالحاً ومَن آمن به؛ أي: ميَّزناهم عن الكفار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكُفَّارهم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣.

(٣) ٩/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٥.

(٥) الصحاح (هون).

(٦) ١١/ ١٥٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع: «نَحْشُرُ» بالنون، «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون: «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع[١]، ومعناهما بَيِّن. وأعداء الله: الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفوا أَمْرَه. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يُساقون ويُدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يُحبس أَوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا[٢]؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدةُ بُدئ بالأكابر فالأكابر جُرماً[٣]. وقد مضى في «النمل» الكلامُ في «يُوزَعُونَ» مستوفًى[٤].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعُبيد الله بن أبي جعفر[٥] والفراء: أراد بالجلود الفروج[٦]؛ وأنشد بعضُ الأدباء لعامر بن جُوَيّة:

المرءُ يسعى لِلسلا ... مةِ والسلامةُ حسبه
أَوَ سالمٌ من قد تثـ ... ـنَّى جلدُه وابيضَّ رأسه[٧]

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نُجادل عنكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لما خَاطَبتْ وخُوطِبَتْ

---

(١) السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٢. وقول قتادة والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٤٠٥.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٧.
(٤) ١٦/ ١١٧ وما بعدها.
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٠٦.
(٦) معاني القرآن ٣/ ١٦.
(٧) لم نقف عليهما.

أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نُطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجُلودَ وغيرَها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «مِن مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظُّلم، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بِنفسِكَ اليوم عليك شهيداً، وبالكرامِ الكاتبين شُهوداً، قال: فَيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه: انطِقي، فَتَنْطِقُ بأعماله قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»(١).

وفي حديث أبي هريرة: ثم يقال: «الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكَّر في نَفْسه؛ مَنْ ذا الذي يشهدُ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]: انطِقي، فَتنطِقُ فَخْذُه ولحمه وعظامُه بعمله، وذلك لِيُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سَخِط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩).

(٢) الحديث (٢٩٦٨)، وما بين حاصرتين منه.

قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكونَ من قول الله عز وجل أو الملائكة[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثةُ نفر؛ قُرَشيان وثقفيٌّ، أو ثَقَفِيَّان وقرشيٌّ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللهَ يسمعُ ما نقول؟ فقال الآخر: يسمعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخفينا؛ وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جَهَرْنا فهو يسمع إذا أَخْفَيْنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية[٢].

خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثةُ نفرٍ. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح؛ حدّثنا هَنّاد قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبهم، قرشيّ وخَتَناه ثَقفيان، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان، فتكلَّموا بكلام لم أفْهَمه؛ فقال أحدُهم: أترون أن الله يسمع كلامَنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نرفع أصواتَنا لم يَسْمعه، فقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كلَّه، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

قال الثعلبي: والثقفيّ عبدُ ياليل، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية[٤].

ومعنى «تَسْتَتِرُونَ»: تَستخفون، في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تَستخفون من أنفسكم حَذَراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسانَ لا يُمكنه أن يُخفي من نَفْسِهِ عَمَلَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٧٥)، وأخرجه أحمد (٣٦١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٤٨) و(٣٢٤٩).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحُكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[1] بأن يقول: سمعت الحقَّ وما وعيت، وسمعت ما لا يجوز من المعاصي، ﴿وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأيت آياتِ الله وما اعتبرت، ونظرت فيما لا يجوز «ولا جُلُودُكُمْ» تقدَّم.

﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم، فجادَلتُم على ذلك حتى شَهِدتْ عليكم جوارحُكم بأعمالكم.

روى بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفدام، فأول ما يُبين عن الإنسان فَخِذُه وكفُّه»[2] قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[3] فأحسن:

العمرُ يَنْقُصُ والذُّنوب تَزيدُ ... وتقالُ عَثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطِيعُ جُحُود ذَنبٍ واحِدٍ ... رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهي ... تقليلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على ابن آدمَ إلا يُنادى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خلقٌ جديد، وأنا فيما تعملُ غداً عليك شهيد، فاعملْ فيَّ خيرًا أشهدْ لك به غدًا، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليلُ مثلَ ذلك» ذكره أبو

(١) هذه الأقوال بنحوها في تفسير الطبري ٢٠/٤٠٩ - ٤١٠، والنكت والعيون ٥/١٧٦.

(٢) أخرجه بنحوه ومطولاً أحمد (٢٠٠٤٣). والفِدام: ما يُشَدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي: إنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم).

(٣) كذا في النسخ، وفي أدب الدنيا والدين ص ٨٩ - والأبيات التالية منه ـ وفي شرحه ص ١٦٦: عبد الأعلى بن عبد الله. وفي سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٨: عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى، الإمام، توفي سنة (٢١٨هـ).

نُعيم الحافظ[١]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير[٣] فأحسن:

مَضَى أمسُك الأدنى شَهيداً معدَّلا ... ويومُك هذا بِالفِعال شهيدُ
فإنْ تكُ بِالأمسِ اقترفت إساءةً ... فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخير منك إلى غدٍ ... لعلّ غدًا يأتِي وأنت فَقِيدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العِلْم. وقال النبي ﷺ: «لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربِّهم فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾»[٤].

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً أَلْهتهم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، ويقول أحدُهم: إني أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

---

(١) في حلية الأولياء ٢/٣٠٣ . وفي إسناده زيد بن الحواري العَمِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب. قال أبو نعيم: حديث معاوية [يعني ابن قرة] تفرد به عنه زيد، ولا أعلمه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

(٢) ص ٢٨٨ .

(٣) لعله محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل أبو سليمان، من بني خارجة، ومن شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٦/١٠٢ . ووقع في (ق): يسير، ولعله محمد بن يَسير الرِّياسي، من شعراء أهل البصرة وأدبائهم. الأغاني ١٤/١٧ .

(٤) قوله منه: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» صحيح، أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه بتمامه أحمد (١٥١٩٧)، وفي إسناده النضر بن إسماعيل ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهما ضعيفان كما في التقريب.

وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموتَ وهو حسنُ الظنِّ بربِّه فليفعل، فإن الظنَّ اثنان: ظنٌّ يُنْجِي وظنٌّ يُردي[١].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قومٌ كانوا يُدمِنون المعاصي ولا يتوبون منها، ويتكلَّمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليسَ، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإنْ يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوًى لهم. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدَّم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدنيا وهم مُقيمون على كُفرهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

وقيل: المعنى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا» في النار أو يَجْزَعوا «فَالنَّارُ مُثْوًى لهم» أي: لا مَحيصَ لهم عنها، ودلَّ على الجَزَعِ قولُه: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا»؛ لأن الْمُسْتَعْتِبَ جَزِعٌ، والمُعتب المقبول عتابُه؛ قال النابغة:

فإنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلكَ يُعْتِبُ[٢]

أي: مثلك من قَبِل الصُّلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل: العِتاب مُخاطبة الإدلال ومُذاكرة المَوْجِدة. تقول: عاتبته مُعاتبة، وبينهم أُعتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلحَ ما بينهم العِتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسَرَّتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبى، وهو رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. واستعتبَ وأعتب بمعنى، واستعتبَ أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤١٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٨ .

(٣) الصحاح (عتب).

فمعنى «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: طلبوا الرِّضا لم ينفعهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النار. وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربَّهم فما هم من المُقالين[١].

وقرأ عُبيد بن عُمير وأبو العالية: «وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا» بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم مِنَ المُعْتَبِينَ» بكسر التاء[٢]، أي: إن أقالهم الله وردَّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله تعالى من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ذكره الهروي[٣]. وقال ثعلب: يقال: أعتب إذا غَضِبَ، وأعتب إذا رَضِي[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال النقَّاش: أي: هيَّأنا لهم شياطين[٥]. وقيل: سلَّطنا عليهم قُرناء يُزيِّنون عندهم المعاصي، وهؤلاء القُرناء من الجنّ والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي: سبَّبْنا لهم قُرناء؛ يقال: قَيَّض الله فلاناً لفلان، أي: جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾. القشيري: ويقال: قيّض الله لي رزقاً، أي: أتاحه كما كنتُ أطلبُه، والتقييض الإبدال، ومنه المُقايضة، قايضتُ الرجل مُقايضةً، أي: عاوضتُه بمتاع، وهما قيِّضان، كما تقول: بيِّعان.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، فحسَّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسَّنوا لهم ما بعد مَماتهم وَدَعَوْهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ في النار ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ أعمالَهم في الدنيا؛ والمعنى: قدَّرنا عليهم أن ذلك سيكون، وحَكَمنا به عليهم. وقيل: المعنى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٢ وعند جميعهم: عمرو بن عبيد، بدل: عبيد بن عمير.

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق.

أحوجناهم إلى الأقران؛ أي: أحوجنا الفقيرَ إلى الغني لِينالَ منه، والغنيَّ إلى الفقير، لِيستعينَ به، فزيَّن بعضُهم لبعض المعاصي[١]. وليس قوله: «وما خَلْفَهُمْ» عطفاً على «ما بين أَيْدِيهِم» بل المعنى: وأَنْسَوهم ما خلفَهم، ففيه هذا الإضمار.

قال ابن عباس: «ما بين أيديهم» تكذيبُهم بأمور الآخرة «وما خَلْفَهُمْ» التسويف والترغيب في الدنيا[٢]. الزجاج[٣]: «ما بين أيديهم» ما عملوه «وما خلفهم» ما عَزَموا على أن يعملوه. وقد تقدَّم قولُ مجاهد.

وقيل: المعنى: لهم مثلُ ما تقدَّم من المعاصي «وما خلفهم» ما يعمل بعدَهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا كَكُفرهم. وقيل: «في» بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرةِ قبلَهم فيما دخلوا فيه[٤]. وقيل: «في أُمَمٍ» في جُملة أُمَمٍ، ومثلُه قولُ الشاعر:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصَّنيعةِ مَأْ فُوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكوا[٥]

يُريد: فأنت في جُملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل «في أُمَم» النصب على الحال من الضمير في «عليهم» أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أُمم[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أعمالَهم في الدنيا وأنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ بنحوه.

(٥) قائله عروة بن أذينة، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧ ، وفيه: المروَّة، بدل: الصنيعة. قال ابن السِّكيت: الأَفْك: مصدر أَفَكَهُ عن الشيء يَأْفِكُه، إذا صرفه عنه وقلبه.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ١١٩ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ لمَّا أخبر تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مُشركي قريش وأنهم كذَّبوا القرآن فقالوا: «لا تَسْمَعُوا». وقيل: معنى «لا تَسْمَعُوا» لا تُطيعوا[1]؛ يقال: سمعتُ لك أي: أطعتُك. «والغَوْا فيهِ» قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمدٌ فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لمَّا أعجزهم القرآن[2]. وقال مجاهد: المعنى: «والغَوْا فيهِ» بالمُكَاء والتَّصفيق والتخليط في المَنْطِق حتى يصير لَغْوًا[3]. وقال الضحاك أكثِروا الكلامَ لِيختلطَ عليه ما يقول[4]. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قِعُوا فيه وعَيِّبوه[5]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا تظهر ولا تستميل[6] القلوب.

وقرأ عيسى بن عمر والجَحْدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوَةَ وبكر بن حبيب السَّهمي: «والغُوا» بضم الغين[7]، وهي لغةٌ مِن لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٥٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤١٨ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٧٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلا يظهر ولا يستميل. والمثبت من (ظ).

(٧) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٦ .

قال الهروي: وقوله: «والْغَوْا فيهِ» قيل: عارِضوه بكلام لا يفهم. يقال: لَغَوْت أَلْغو وأَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى، ثلاث لُغات. وقد مضَى معنى اللَّغو في «البقرة»[١] وهو ما لا يُعلَم له حقيقةٌ ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدَّم أن الذَّوقَ يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذابُ في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وَلنجزينَّهم في الآخرة جزاءَ قُبْحِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا. وأسوأُ الأعمال الشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي: ذلك العذابُ الشديد، ثم بيَّنه بقوله: «النَّارُ». وقرأ ابن عباس: «ذلكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ»[٢] فترجم بالدار عن النار وهو مَجاز الآية. و«ذلك» ابتداء و«جَزَاءُ» الخبر، و«النَّارُ» بدل من «جَزَاءُ»، أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيانٍ للجملة الأُولى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: في النار، فذكره بلفظ الماضي، والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[٤]؛ ويشهد لهذا القول الحديثُ المرفوع: «ما مِن مسلم يُقتَلُ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من ذَنْبه؛ لأنه أوّلُ من سنَّ القَتْل» ويروى: «أسنَّ القتل»[٥]. خرَّجه الترمذي[٦].

---

(١) ١٧/٤ .

(٢) ذكرها الطبري ٢٠/ ٤١٩ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٠ - ٤٢١ عن علي ﷺ وقتادة. قال الآلوسي في تفسيره ٢٤/ ١٢٠ : وتُعُقِّب بأنه لا يصحّ عن علي كرم الله وجهه، فإن قابيل مؤمن عاصٍ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر. اهـ.

(٥) قوله: ويروى: «أسنَّ القتل» من (ظ) و(ق).

(٦) في سننه (٢٦٧٣). وأخرجه أحمد (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وعندهم: نفس، بدل: مسلم. ودمها، بدل: ذنبه.

وقيل: هو بمعنى الجنس[(١)]، وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدَّرك الأسفل. سألوا أن يُضعِّف اللهُ عذابَ مَنْ كان سببَ ضلالتهم من الجن والإنس.

وقرأ ابن مُحيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمُفضَّل: «أَرْنَا» بإسكان الراء[(٢)]، وعن أبي عمرو[(٣)] أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها، وقد تقدّم في «الأعراف»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي بكر الصدّيق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربُّنا اللهُ والملائكةُ بناتُه، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربُّنا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسوله؛ فاستقام[(٥)].

وفي الترمذي: عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال: «قد قال الناسُ، ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديثٌ غريب، ويُروى في هذه الآية عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر

(١) المحرر الوجيز ٥/١٤ .

(٢) وقرأ بها ابن كثير من السبعة. السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) في رواية الدوري.

(٤) كذا في النسخ: الأعراف، وصوابه في البقرة ٢/٣٩٨ .

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٤ .

وعثمان وعليّ معنى ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾[(١)].

ففي «صحيح» مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك ـ وفي رواية ـ غيرَك. قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استَقِمْ»[(٢)] زاد الترمذي: قلت: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نَفْسِه وقال: «هذا»[(٣)].

ورُوي عن أبي بكر الصدّيق ﷺ أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ لم يُشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسودُ بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: استقاموا فلم يُذنبوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المَحْمل ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾ بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(٤)] [الأنعام: ٨٢].

ورُوي عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فقال: استقاموا ـ والله ـ على الطريقة لِطاعته ثم لم يَروغوا رَوَغان الثعالب[(٥)].

وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العملَ لله. وقال عليّ ﷺ: ثم أدُّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عَمِلُوا على

(١) سنن الترمذي (٣٢٥٠) وليس في مطبوعه ذِكْر عثمان وعلي رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف أقوالهم قريباً.

(٢) صحيح مسلم (٣٨)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٤١٠)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٩).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٣ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٥ .

وِفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفُضيل بن عِياض: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قولاً(١).

وقال أنس: لما نزلتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «هم أمتي وربِّ الكعبة»(٢). وقال الإمام ابن فُورَك: السين سين الطلب، مثل: استسقى، أي: سألوا من الله أن يُثبِّتَهم على الدين. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة(٣).

قلت: وهذه الأقوالُ وإن تداخلَتْ فتلخيصُها: اعتدَلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بُشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ عند الموت وفي القبر وعند البعث(٤).

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أي: بألَّا تَخافُوا، فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على أولادكم(٥)، فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ ثوابكم فإنه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغْفِرُها لكم. وقال عكرمة: لا تخافوا أمامَكم، ولا تحزنوا على ذُنوبكم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٦).

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٤ - ٤٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ١٧٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤ - ١٥ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

(٤) الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٥ - ٤٢٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكةُ الذين تتنزلُ عليهم بالبِشارة: «نحن أَوْلِيَاؤُكُمْ» قال مجاهد: أي: نحن قُرناؤكم الذين كنَّا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: لا نُفارقكم حتى نُدخِلَكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحَفَظَةُ لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة[1]. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: من الملاذّ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تسألون وتتمنَّون. ﴿نُزُلًا﴾ أي: رِزْقاً وضيافةً. وقد تقدَّم في «آل عمران»[2] وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه نُزُلاً. وقيل: على الحال[3]. وقيل: هو جمع نازل، أي: لكم ما تدَّعون نازلين، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في «تَدَّعُونَ» أو من المجرور في «لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوْا باللَّغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسنُ من القرآن، ومن أحسنُ قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسُّدي وابن زيد والحسن: هو رسولُ الله ﷺ[4].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٢٨ ، وأورده البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

(٢) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن السدي وابن زيد، وذكره عن ابن سيرين البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ الله، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خِيرة الله، هذا ـ والله ـ أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب إليه[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المُؤَذّنين[٢]. قال فُضيل بن رُفيدة: كنتُ مُؤَذِّناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أذَّنتَ فقلت: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: الأول أصحُّ؛ لأن الآيةَ مكيَّةٌ والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصودَ وقتَ القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيِّ ﷺ وقد خَنَقَهُ الملعون[٥]: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] وتتضمَّن كلَّ كلام حَسَنٍ فيه ذِكْرُ التوحيد والإيمان.

قلت: وقولٌ ثالثٌ، وهو أحسنُها؛ قال الحسن: هذه الآيةُ عامةٌ في كل مَنْ دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «وعَمِلَ صَالِحًا» صلّى وصام. وقال الكلبي: أدّى الفرائض[٦].

قلت: وهذا أحسنُها مع اجتناب المحارم وكَثْرةِ المندوب. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٢٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن قيس بن أبي حازم، وذكره عن عائشة رضي الله عنها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٥) يعني عقبة بن أبي مُعَيط، وسلفت قصته ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥ - ١٦ وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن العربي[١]: وما تقدَّم يدلُّ على الإسلام، لكن لمَّا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العملُ يكون للرِّياء والإخلاص، دلَّ على أنه لا بدَّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلِّه، وأن العملَ لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إنْ شاء الله، كان في ذلك ردٌّ على من يقول: أنا مسلم إنْ شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة، أي: ولا تَسْتَوِي الحسنةُ والسيئةُ[٣]، وأنشد:

مـا كـان يَرْضَـى رسـولُ الـلـه فِـعْـلَـهُـمُ   والـطَّـيِّـبـانِ أبـو بـكـر ولا عـمـرُ[٤]

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشِّرك. قال ابن عباس: الحسنةُ لا إله إلا الله، والسيئة الشِّرك. وقيل: الحسنةُ الطاعة، والسيئة الشِّرك. وهو الأولُ بعينه. وقيل: الحسنة المُداراة، والسيئة الغِلْظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم[٥]، والسيئة الفحش. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: الحسنةُ حبُّ آل الرسول، والسيئة بُغْضُهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ نُسِخَتْ بآية السيف[٦]، وبقي المُسْتَحَبُّ من ذلك: حسنُ العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي: ادفع بحلمك جَهْلَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٥٩ ، وفيه: دينهم، بدل: فعلهم.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ (والكلام منه): الحلم، وكذا في زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

من يجهلُ عليك[١]. وعنه أيضاً: هو الرجل يَسُبُّ الرجلَ فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يُروى في الأثر: إن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نالَ منه[٢].

وقال مجاهد: «بالتي هي أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لَقِيَ من يُعاديه؛ وقاله عطاء[٣]. وقولٌ ثالثٌ ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحكام»[٤] وهو المُصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ»[٥]. ولم يَرَ مالكٌ المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلَّما فيها فقال سفيان: قد صافح رسولُ الله ﷺ جعفراً حين قَدِمَ من أرض الحبشة[٦]؛ فقال له مالك: ذلك خاصٌّ. فقال له سفيان: ما خَصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عَمَّه يعمُّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها.

وقد روى قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديثٌ صحيح. وفي الأثر: «مِنْ تمامِ المحبةِ الأخذُ باليد»[٧]. ومن حديث محمد بن إسحاق ـ وهو إمامٌ مقدَّم ـ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثةَ المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرع البابَ فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُرياناً يَجُرُّ ثوبَه ـ والله ما رأيتُه عُرياناً قبلَه ولا بعدَه ـ فاعتنقه وقبَّله[٨].

قلت: قد رُوي عن مالك جوازُ المصافحة وعليها جماعةٌ من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»[٩]، وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٦ .
(٤) ٤/ ١٦٥١ .
(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٢ : وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ ، وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٧) أخرجه الترمذي (٢٧٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: التحية، بدل: المحبة. قال الترمذي هذا حديث غريب.. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يَعُدَّه محفوظاً.
(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا بهذا الوجه.
(٩) ١١/ ٤٥٨ - ٤٥٩ .

«ما مِنْ مُسلمين يلتقيان فيأخذ أحدُهما بيدِ صاحبه مَوَدَّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مُؤذياً للنبيِّ ﷺ، فصار له وليًا بعد أن كان عدوّاً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًا في الإسلام حميماً بالقرابة[(٢)].

وقيل: هذه الآيةُ نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يُؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصَّفْح عنه؛ ذكره الماوردي[(٣)]. والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبلَ الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره اللهُ تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجَهْل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عَصَمهم اللهُ من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم. ورُوي أن رجلاً شتم قَنْبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليٌّ: يا قَنْبَرُ، دَعْ شاتمكَ، والْهَ عنه تُرضِ الرحمن وتُسخط الشيطان، وتُعاقب شاتمك، فما عُوقب الأحمقُ بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللَّئيم تَكَرُّمًا ... أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ[(٤)]

وقال آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إلى سَفيهٍ ... إذا سبَّ الكريمَ مِنَ الجوابِ
مُتاركَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ ... أَشَدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ[(٥)]

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٤) قائله المُؤَمَّل بن أُمَيل، وهو في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٦ .

(٥) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٨ ، وعنده البيت الثاني قبل الأول، وعجز البيت الأول عنده: إذا وقع الكريم من السباب. وعجز البيت الثاني: أشد على السفيه من العذاب.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلزِم نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ ... وإن كَثُرَتْ منه لديَّ الجَرائمُ
فما الناس إلا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشروفٌ ومِثْلٌ مقاومُ
فأما الذي فَوْقي فأعرِفُ قَدْرَه ... وَأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأما الذي دوني فإنْ قال صُنْتُ عن ... إجابَتِه عِرضِي وإنْ لامَ لائِمُ
وأما الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أوْهَفا ... تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْم حاكِمُ[(١)]

﴿وَمَا يُلَقَّنٰهَآ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخَصْلة الشريفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّنٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظُّ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظٌّ قطّ دون الجنة[(٢)]. وقيل: الكناية في «يُلَقَّاهَا» عن الجنة؛ أي: ما يلقَّاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تقدَّم في آخر «الأعراف» مستوفًى[(٣)]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيده وشرِّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماته الدالَّة على وحدانيته وقُدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٦ باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢.
(٣) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقد مضَى في غير موضع. ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خَلْقين فليس ذلك لفضيلةٍ لهما في أنفسهما فيستحقَّان بها العبادةَ مع الله؛ لأنَّ خالقَهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورَهما.

﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصَّة؛ لأن الاثنين جمع[1]. وقيل: الضميرُ عائدٌ على معنى الآيات[2]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3]. وإنما أنَّثَ على جمع التكسير[4]، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملُّون عبادتَه. قال زهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانِينَ حولًا ـ لا أبالكَ ـ يَسْأَمِ[5]

مسألة: هذه الآيةُ آيةُ سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصلٌ بالأمر. وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تَعْبُدُونَ». وقال ابن وهب والشافعي: موضعُه ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لأنه تمامُ الكلام وغايةُ العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يَسْأَمُونَ». وقال ابن عمر: السجدة[6] بالآخرة منهما. وكذلك يُروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثَّاب وطلحة وزُبيد اليامِيَّين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢.

(٣) وقع في النسخ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ في هذا الموضع، وحقُّه أن يُذكَر بعد قوله: فيما لا يعقل الآتي.

(٤) في (د) و(م): التكثير، وينظر الكلام في التفسير البغوي ٤/ ١١٥، والدر المصون ٩/ ٥٢٨.

(٥) ديوان زهير ص ٢٩، وسلف ٤/ ٤٥٦.

(٦) في (م): اسجدوا.

وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يَسْأَمُونَ». قال ابن العربي[١]: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خُوَيْز مَنْدَاد: أن هذه الآيةَ تضمَّنت صلاةَ كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العربَ كانت تقول: إن الشمسَ والقمرَ لا يَكْسِفان إلا لموت عظيم، فصلَّى النبيّ ﷺ صلاةَ الكسوف.

قلت: صلاةُ الكسوف ثابتةٌ في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما[٢]. واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً، لاختلاف الآثار، وحسبُك ما في «صحيح» مسلم من ذلك، وهو العُمدة في الباب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّة على أنه يُحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جدبة، هذا وصفُ الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأْياً أُبِينُهُ ... وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ[٣]

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزلَ بها. ومكانٌ خاشع[٤]. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات؛ قاله مجاهد[٥]. يقال: اهتزَّ الإنسان، أي: تحرَّك؛ ومنه:

تَرَاه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... إذا لم تَجِدْ عِند امرئ السَّوْءِ مَطْمَعا[٦]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٢ ، وما قبله منه دون ذكر أبي حنيفة وزبيد اليامي. وقول أبي حنيفة ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٠٤٤)، وصحيح مسلم (٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٥٣١٣)، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تُنظر في مسند أحمد.

(٣) ديوان النابغة ٧٩ ، وسلف ٢/ ٧٠ ، والنُّؤيُ: حَفيرة تُحفر حول الخباء، ويُجعل ترابها حاجزاً لئلا يدخله المطر. والجِذْم: الأصل. خزانة الأدب ٢/ ٤٥٣ .

(٤) الصحاح (خشع).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٨ .

(٦) قائله متمم بن نُويرة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٤١ . ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وما قبله منه.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخَتْ وَعَلَتْ قبلَ أن تَنبُتَ؛ قاله مجاهد[١]. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير وتقديره: رَبَتْ واهتزت[٢]. والاهتزاز والرُّبُوُّ قد يكونان قبلَ الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها ارتفاعُها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحركُ للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكِبَر طولاً وعرضاً.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «وَرَبَأَتْ» ومعناه: عَظُمَتْ؛ من الربيئة[٣]. وقيل: «اهْتَزَّتْ» أي: استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقَّت بالنبات: وُصِفَتْ بالضَّحِك، فيجوز وَصْفُها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الرُّبُوُّ والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في «الحج»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدلَّتنا[٥]. والإلحاد: المَيْل والعُدول. ومنه اللَّحد في القبر؛ لأنه أُميلُ إلى ناحية منه. يقال: ألحدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعَدَلَ. ولَحَدَ لغةٌ فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٣ ، وقراءة أبي جعفر من العشرة في النشر ٢/ ٣٢٥ .

(٤) ١٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحقّ فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شِعر أو سحر؛ فالآياتُ آيات القرآن.

قال مجاهد: «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» يُكذِّبون في آياتنا. أي: عند تلاوة القرآن بالمُكَاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغوِ والغِناء. وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ في آياتِنَا»: يُكذِّبون في آياتنا. وقال السدي: يُعاندون ويشاقُّون. وقال ابن زيد: يُشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل[١].

وقيل: الآياتُ المعجزات، وهو يرجع إلى الأوّل، فإن القرآن مُعجِزٌ.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على وجهه، وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يومَ القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر[٢].

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي: بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدَّ لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بتهديد وتوعُّد[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الذِّكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذِكْرَ ما يُحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره][٤]: هالكون أو معذَّبون. وقيل: الخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤] واعترضَ قولُه: «ما يُقال لك» ثم رَجَعَ إلى الذِّكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ والأوّلُ الاختيار؛ قال النحاس[٥]: عند النحويين جميعاً

---

(١) الأقوال السابقة في النكت والعيون ٥/ ١٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦.
(٢) الأقوال السابقة في المصدرين السابقين ما عدا قوله: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي.
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.
(٥) في معاني القرآن ٦/ ٢٧٥، وما قبله فيه بنحوه.

فيما علمت.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: «عَزِيزٌ» أي: أعزَّه الله فلا يتطرّق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يُعَزَّ ويُجَلّ وألا يُلغى فيه. وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يُبدِّله؛ قاله السدي. مقاتل: مُنع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثلَ له. وقال ابن عباس أيضاً: «عَزِيزٌ» أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله[١].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يُكذبه شيء مما أنزلَ الله من قبلُ، ولا ينزلُ من بعده كتابٌ يُبطله وينسخُه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: «لا يَأْتِيهِ الباطلُ» يعني الشيطان ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يستطيع أن يُغيِّر ولا يزيد ولا ينقص[٢].

وقال سعيد بن جُبير: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. ابن جُريج: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون[٣]. وعن ابن عباس: «مِنْ بين يَدَيْهِ» من الله تعالى «وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: «حَكِيم» في خلقه «حَمِيد» إليهم. قتادة: «حَكِيم» في أمره «حَمِيد» إلى خلقه[٤].

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعزِّي نبيه ويُسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد: لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي: ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أُوحي إلى مَن قبلك، ولا خِلاف بين الشرائع فيما يتعلّق بالتوحيد، وهو كقوله:

---

(١) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وزاد المسير ٧/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٦ .

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميعَ الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهامٌ، أي: أيّ شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؟

وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلامٌ مبتدأ، وما قبله كلامٌ تامٌّ إذا كان الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ «ما يقال لكَ»[(١)]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إنما أُمِرْتَ بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة غير العرب ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَت بلغتنا، فإننا عربٌ لا نفهم الأعجميَّة. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلمُ الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونثراً. وإذا عَجزوا عن مُعارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليلٌ على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميًّا، وأنه إذا نُقِلَ عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً[(٢)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتين مُحقَّقتين[(٣)]، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غيرَ

---

(١) بعدها في (ظ): أي: إنما يقال لك.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/٣٦٣ .

(٣) في النسخ: مخففتين، وهو خطأ، والمثبت من كتب القراءات، ينظر السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ .

فصيح، والأعجميُّ الذي لا يُفصح كان من العرب أو من العجم[(١)]. فالأعجم ضدُّ الفصيح، وهو الذي لا يُبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، ومنه «صلاةُ النهار عَجْماء»[(٢)] أي: لا يُجهر فيها بالقراءة، فكانت النسبة إلى الأعجم آكَدَ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحًا بالعربية، والعربيّ قد يكون غيرَ فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكدُ في البيان.

والمعنى: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهامُ إنكار[(٣)].

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر[(٤)]. والمعنى: «لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجميٌّ يفهمه العَجَم. وروى سعيد بن جُبير قال: قالت قريش: لولا أُنزل القرآنُ أعجميًّا وعربيًّا، فيكون بعضُ آياته عجميًّا وبعضُ آياته عربيًّا، فنزلت الآيةُ. وأُنزل في القرآن من كل لغة فمنه «السِّجِّيل» وهي فارسيةٌ، وأصلُها سنكَيل؛ أي: طين وحجر[(٥)]، ومنه «الفِرْدَوس» رومية، وكذلك «القِسْطَاس».

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم[(٦)]. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٢٨): قال النووي: إنه باطل، لا أصل له، وكذا قال الدارقطني: لم يُروَ عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٤) قراءة هشام عن ابن عامر في التيسير ص ١٩٣ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٤٨ بنحوه. وفي المعجم الفارسي: سنكين، بالنون.

(٦) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وحفص ورُويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ألف، وسلفت قراءة هشام، وقرأ الباقون: بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال. السبعة ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ ، والنشر ١/ ٣٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللهُ أن القرآن هُدًى وشفاءٌ لكل من آمن به من الشكِّ والرَّيب والأوجاع. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللَّغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضى مستوفى.

وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو ابن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة: «وهو عليهم عَمٍ» بكسر الميم[(١)]، أي: لا يتبيَّن لهم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الأُولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أوّلاً: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان: هادٍ وشافٍ، لكان الكسر في «عَمًى» أجودَ؛ ليكون نعتاً مثلَهما[(٢)]؛ تقديره: «والذين لا يؤمِنونَ» في ترك قبوله بمنزلة مَنْ في آذانهم «وقرٌ وهو» يعني القرآن «عليهم» ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى: والوَقْر عليهم عمى[(٣)].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهلُ اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادَى من بعيد. أي: كأنه يُنادى من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: «يُنَادَوْنَ» يوم القيامة بأقبح أسمائهم «مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم[(٤)].

وقيل: أي: من لم يتدبَّر القرآن صار كالأعمى الأصمّ، فهو يُنادى من مكان بعيد فينقطع صوتُ المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي: بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما يُنادَوْن من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٥١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آمن به قومٌ وكذَّب به قوم. والكناية ترجع إلى الكتاب، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلَف مَن قبلهم في كتابهم[(١)]. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شديد الريبة. وقد تقدَّم[(٢)].

وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخَّر عذابَ هذه الأُمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذابُ كما فعل بغيرهم من الأمم. وقيل: تأخيرُ العذاب لِمَا يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ شرطٌ وجوابه، وكذا ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾. والله جلّ وعزّ مُستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نَفَى الظُّلمَ عن نفسه جلّ وعزّ قليلَه وكثيرَه، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلُه قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]. وروى العُدول الثِّقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا» الحديث[(٣)]. وأيضًا فهو الحكيم المالك، وما يفعله

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ بنحوه.

(٢) ١١/ ١٥٣ .

(٣) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وسلف ٥/ ٤٣٠ .

المالك في مُلْكه لا اعتراضَ عليه؛ إذ له التصرف في مُلْكه بما يُريد.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إن كنت نبيًّا فخبِّرنا متى قيامُ الساعة فنزلت[١]. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ «مِنْ» زائدة، أي: وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام أوعيةُ الثمرة، واحدُها كُمّة، وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمّى قِشْر الطَّلْع ـ أعني كُفُرّاه ـ الذي ينشقُّ عن الثمرة كُمَّةً؛ قال ابن عباس: الكُمّة الكُفُرَّى قبل أن تنشقَّ، فإذا انشقَّتْ فليست بكمَّة[٢]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»[٣].

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون: «ثَمَرَة» على التوحيد[٤]، والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعةِ» كما يُرَدُّ إليه علمُ الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ المشركين: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهةٌ تشفع. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويَحتمِلُ أن يريدَهم جميعًا؛ العابد والمعبود: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ[٥]. يقال:

آذنَ يُؤْذِنُ: إذا أَعلم، قال:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَّوَاءُ[٦]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .
(٣) في تفسير الآية (١١).
(٤) السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص ١٩٤ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ بنحوه.
(٦) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت مطلع معلقته. شرح القصائد المشهورات للنحاس ص ٥١ .

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: نُعلِمُكَ ما منا أحدٌ يشهد بأن لك شريكاً؛ لمَّا عاينوا القيامةَ تبرَّؤوا من الأصنام(١)، وتبرأتِ الأصنامُ منهم كما تقدّم في غير موضع(٢).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بَطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا وعَلِموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. و«مَا» هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى(٣)؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يَحيص حَيْصاً ومَحيصاً، إذا هرب. وقيل: إن الظنَّ هنا الذي هو أغلبُ الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار، ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُؤَيَّسوا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسُّلطان والعِزّ. قال السدي: والإنسان هاهنا يُراد به الكافر(٤). وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قراءة عبد الله: «لا يسأَمُ الإنسانُ مِنْ دُعاءِ المال»(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٢) ١٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٨ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ ، وفيه أن قراءة ابن مسعود ﷺ: «من دعاءِ بالخير» وهي كذلك في القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والكشاف ٣/ ٤٥٧ .

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رَوْح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته[١]. وقيل: «يَؤُوسٌ» من إجابة الدعاء «قَنُوطٌ» بسوء الظن بربه[٢]. وقيل: «يَؤُوسٌ» أي: يئس من زوال ما به من المكروه «قَنُوطٌ» أي: يظنُّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عاقبةً ورخاء وغِنًى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ضُرّ وسُقْم وشِدَّة وفَقْر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة؛ ليتبيَّن شكره وصبره. وقال ابن عباس: «هذا لِي» أي: هذا من عندي.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد؛ يتمنَّى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان؛ أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنَجْزِيَنَّهم. قسمٌ أقسمَ اللهُ عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. وقال ابن عباس: يريد عُتبةَ بن ربيعةَ وشيبة بن ربيعة وأميةَ بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه.

ومعنى «نَأى بِجَانِبِهِ» أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: «نَأى» تباعد. يقال: نأيتُه ونأيتُ عنه نأيًا بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعُد، وتناءَوا تباعدوا، والمُنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٨.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ مختصراً.

فإنَّك كالَّليل الذي هو مُدْرِكي ... وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنْكَ واسِعُ[١]

وقرأ يزيد بن القعقاع: «ونَاءَ بِجَانِبِهِ» بالألف قبل الهمزة[٢]. فيجوز أن يكون من «ناء» إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء إذا أكثر[٤]. وقال ابن عباس: «فَذُوا دُعَاءٍ عَرِيض» فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرَّخاء[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «أرأيْتُمْ» يا مَعْشَرَ المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: فأيُّ الناسِ أضلُّ، أي: لا أحدَ أضلُّ منكم لفرطِ شقاقكم وعداوتكم[٦]. وقيل: قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والأوّل أظهرُ، وهو قولُ ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقُدرتنا «في

---

(١) ديوان النابغة ص ٨١، والبيت وما قبله من الصحاح (نأي).

(٢) وقرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص ١٤١، والنشر ٢/٣٠٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٨.

(٥) النكت والعيون ٥/١٨٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٦٧ بنحوه.

الآفَاقِ» يعني: خرابَ منازل الأمم الخالية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالبلايا والأمراض[١]. وقال ابن زيد: «فِي الآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض[٢]. وقال مجاهد: «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى[٣]؛ فيسَّرَ الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسَّر أمثالُها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجةً عن المعهود خارقةً للعادات[٤]. «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة. وهذا اختيار الطبري[٥]. وقاله المِنهال بن عمرو والسدي[٦].

وقال قتادة والضحاك: «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله في الأُمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً: «فِي الْآفَاقِ» يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها[٧]. وفي «الصحاح»[٨]: الآفاق النواحى، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقيّ؛ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أُفُقيّ، بضمهما، وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّماءِ عَلَيكُمُ ... لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ دون نسبة.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٨ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٨ .

(٥) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٢ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦١ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ - ١١٩ .

(٨) الصحاح (أفق).

(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩ .

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين[١]، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من كونهم نُطَفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم[٢]، كما تقدّم في «المؤمنون» بيانه[٣]. وقيل: المعنى: سيَرَوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه القرآن. والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه[٤]. والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في: موضع رفع بأنه فاعل بـ «يَكْفِ» و﴿أَنَّهُۥ﴾ بدل من «رَبِّكَ» فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى: أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار[٥].

وقيل: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما يفعله العبد «شَهِيدٌ»، والشهيد بمعنى العالم[٦]؛ أو

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٨ عن ابن زيد.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٣) ١٥/ ١٧ وما بعدها .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ بنحوه.

هو من الشهادة التي هي الحضور.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي: من البعث. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء. قاله السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء[1].

وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عدداً. وهذا الاسم أكثرُ ما يجيء في مَعْرِض الوعيد، وحقيقتُه الإحاطةُ بكل شيء، واستئصال المُحاط به، وأصله مُحْيِط، نقلتْ حركةُ الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يُحيط إحاطةً وحِيْطةً؛ ومن ذلك حائطُ الدار، يحوطها أهلُها. وأحاطت الخيلُ بفلان: إذا أُخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والله أعلم بصواب ذلك.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٠ .

تفسير سورة فصلت(١)

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ① تنزيل من الرحمن الرحيم ② كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ③ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ④ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ⑤﴾ .

يقول تعالى: ﴿حم . تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعنى: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين .على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أى: بينت معانيه وأحكمت أحكامه(٢)، ﴿قرآنا عربيا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بشيرا ونذيرا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبة، حدثنا على بن مُسْهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلَمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

(١) فى س: «تفسير حم السجدة».
(٢) فى أ: «آياته».

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك[١] منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرًا، وأن فى قريش كاهنا! والله ما ننظر[٢] إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى[٣] بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا [٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ . تنزيلٌ مّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟][٦] قال: لا، والذى نصبها بَنِيَّةً ما فَهِمْتُ شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، عن أبى بكر بن أبى شيبة بإسناده، مثله سواء[٧].

وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى][٨] ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشىء عن الذَّيَّال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد][٩] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك[١٠] حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبدا، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه [القصة][١١] فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[١٢].

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال:

(١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على».
(٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره.
(٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك».
(١١) زيادة من س، أ.
(١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه[١]. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من[٢] هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا[٣]. وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم .حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك[٤]»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف[٥] بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[٦].

وهذا السياق أشبه من الذى قبله، والله أعلم.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ﴾ .

---

(١) فى أ: «وكلمه». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى س: «مالا».
(٤) فى أ: «وحالك». (٥) فى س: «نحلف».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

يقول تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه[1] من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين لا يَدِينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله [ﷺ][2] الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب[3]، كقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

---

(١) فى س: «يعبدونه» . (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أى: نظراء وأمثالا تعبدونها[1] معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا .وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء[2]، فالدَّحْىُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ [3] بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق][4] الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فكأنه كان ثم مضى.

قال ـ يعنى ابن عباس ـ: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند

(١) فى س: «يعبدونها».
(٢) فى أ: «السموات».
(٣) فى س: «والسماء».
(٤) زيادة من س.

ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف[١] أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخُلِقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

قال البخارى: حدثنيه يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة[٢]، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ بالحديث[٣].

فقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج[٤] أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعنى: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيالسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

---

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شيبة».

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٦) «فتح».

(٤) فى س: «ما تحتاج».

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][١]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير ـ رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين[٢] لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل[٣]: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد[٤] البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ قال هناد: قرأت سائر الحديث ـ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

---

(١) زيادة من س.

(٢) فى س: «مطيعون».

(٣) فى س، أ: «ويقال».

(٤) فى س: «سعد».

ثم استراح. فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨] (١).

هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائي في كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به(٢). وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة [رضي الله عنه](٣)، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ⑭ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⑮ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ⑯ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑰ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ⑱ ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما(٤) ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦١)، ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبي فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).

(٣) زيادة من ت.

(٤) في أ: «شاكلهم».

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس(١) أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا(٢) لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ [بِغَيْرِ الْحَقِّ](٣)﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون(٤) فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا(٥)»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى](٦): أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الأخرى(٧)، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم(٨).

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أى: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ(٩)، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

---

(١) فى س: «ألبس الله». (٢) فى ت: «رسولا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، س: «أفما يفكرون»، وفى أ: «فيما يتفكرون». (٥) فى ت، س: «صرصر». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «الآخرة». (٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».
(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا [وَكَانُوا يَتَّقُونَ][(١)]﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام][(٢)] بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار[(٣)]، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[(٤)]﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكتَم منه حرف.

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا على بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكْتَب، عن الشعبى[(٥)]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم[(٦)]، فقال: «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شىء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه [(٧)]هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عُبيد المُكْتَب، عن فُضيل بن عمرو، عن الشعبى [(٨)] ثم قال: «لانعلم رواه عن أنس غير الشعبى». وقد أخرجه مسلم

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «جهنم».
(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده». (٦) فى أ: «أو تبسم».
(٧) فى ت: «ورواه».
(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن الثورى، به [(١)] . ثم قال النسائى: «لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يونس ابن عُبَيْد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله، فيجحد ويقول: أى رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، فى يوم كذا، فى مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أى رب ماعملته. [قال] [(٢)] : فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ـ قال الأشعرى: فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا حسن، عن ابن لَهيعة: قال دَرّاج، عن أبى الهيثم[(٣)]، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرِّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و][(٤)] عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار»[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم: وحدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبى: حدثنا على بن زيد، عن مسلم بن صُبْيح أبى الضُّحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال [(٦)] ابن أبى حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير الحضرمى، عن رافع أبى الحسن ـ وصف رجلا جحد ـ قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو فى فمه [(٧)] حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه [(٨)] كلها: تكلمى واشهدى عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويداه ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٤) زيادة من أ.

(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبى الهيثم، ضعيف.

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، س، أ: «فيه». (٨) فى أ: «لأركانه».

وقال ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى، عن ابن خُثَيْم، عن أبى الزبير[١]، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبى ﷺ[٢] مهاجرةُ البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب[٣] مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا[٤] نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم ياغُدَر، إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ، [و][٥] صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به[٦].

وقوله: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون[٧] منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد[٨]، عن عبد الله قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه[٩]، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبى معاوية، بإسناده نحوه[١٠]. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير، عن وهب بن

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ت: «بأعجب».
(٤) فى ت، س، أ: «بينما». (٥) زيادة من أ.
(٦) الأهوال لابن أبى الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناد حسن، سويد مختلف فيه».
(٧) فى أ: «تكتمون». (٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده». (٩) فى ت: «يسمعه».
(١٠) المسند (١/٣٨١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١]. ورواه البخارى ومسلم أيضا،من حديث السفيانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعود، به[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شىء يبين[٣] عن أحدكم فخذه وكفه[٤]»[٥].

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افترَّ الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص[٦] ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[٨].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا[٩] فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) المسند (١/٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧) ،وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).
(٣) فى أ: «ينطق».
(٤) فى أ: «وكتفه».
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥١)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٤/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.
(٦) فى أ: «القاضى».
(٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».
(٨) المسند (٣/ ٣٩٠).
(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: **﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾** أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: **﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾** أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾** أى: استووَا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾** أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره(١)، **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** يعنى: بالمكاء (٢) والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** : عيبوه(٣).

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: **﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾** أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، **﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أى: بشَرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم **﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾**.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحصين الفزارى، عن أبيه(٤)، عن على،

---

(١) فى ت: «لأمره».
(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».
(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبوه».
(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرَنى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»(١).

وقوله(٢): ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم(٣) بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى، حدثنا سهيل(٤) بن أبى حزم، حدثنا ثابت(٥)، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم(٦)، فمن قالها حتى(٧) يموت فقد(٨) استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبزار وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم(٩) بن قتيبة، به(١٠). وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد(١١)،

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.
(٢) فى س: «وقولهم». (٣) فى أ: «مسلم». (٤) فى أ: «سهل».
(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده». (٦) فى أ: «ثم كفروا». (٧) فى ت: «حين».
(٨) فى ت، س: «فهو ممن».
(٩) فى أ: «مسلم».
(١٠) مسند أبى يعلى (٦/٢١٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠) ، وتفسير الطبرى (٢٤/٧٣).
(١١) فى أ: «سعيد».

عن سعيد[١] بن نمران[٢] قال: قرأت[٣] عند أبى بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضى الله عنه: ما تقولون فى هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدى، وغير واحد[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٥]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس[٦]، رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه[٧]؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

ورواه النسائى من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به[٨].

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنى ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدى، عن سفيان[٩] بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا[١٠] رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[١١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَت».
(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبرانى».
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (٤/ ٣٨٤)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).
(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».
(١١) المسند (٣/ ٤١٣)، وسنن الترمذى برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٢).

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث[١].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ [أي][٢]: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء[٣]، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة «حم. السجدة»[٤]، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ . فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا[٥] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون[٦] مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى][٧] :كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨). (٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الأعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو مخرج فى نفس الموضع.

(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».

(٥) فى ت، س، أ: «وأبشر» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه». (٧) زيادة من ت.

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب[(١)] بن أبى العشرين أبى سعيد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى حسان بن عطية، حدثنى سعيد بن المسيب: أنه لقى أبا هريرة [رضى الله عنه][(٢)]، فقال أبو هريرة: نسأل[(٣)] الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة فى أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه][(٤)] أدناهم وما فيهم دنيء على كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة][(٥)]؟ قال: «نعم، هل تتمارون[(٦)] فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ ـ يَذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا ـ فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا ـ عزوجل ـ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فنأتى سوقا قد حَفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شيء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنيء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بِحِبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ـ عز وجل ـ وبحقنا أن ننقلب بمثل[(٧)] ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى فى «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه[(٨)]. ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى أ: «الوليد». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «أسأل».
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، س، أ: «تمارون».
(٧) فى أ: «على».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩) ،وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عَدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا[١]: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر[٢] جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح[٣]، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه[٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[٥]. وفي السنن مرفوعا: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[٦].

وقال[٧] ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عَرُوبَة الهروي، حدثنا غسان قاضي هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله في دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

---

(١) في أ: «قال».

(٢) في أ: «احتضر».

(٣) المسند (٣/١٠٧).

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم .

(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٢)، وأبو داود في السنن برقم (٥/٨)، والترمذي في السنن برقم (٢٠٧).

(٧) في ت: «وروى».

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى[(١)] على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»[(٢)].

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لمن شاء»[(٣)] وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه[(٤)] وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثورى، به[(٥)]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به[(٦)].

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

---

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١/ ١٤٤) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢/ ٢٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه](١): ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من(٢) الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل(٣) هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»(٤).

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسىء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾](٥).

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت، أ: «فى». (٣) فى أ: «يتقبل».

(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».

(٥) زيادة من ت، س.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان ـ يعنى ابن وكيع ـ حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»(٢).

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».
(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧١): «إسناده ضعيف».

يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال ـ عز وجل ـ تهديدًا(١) للكفرة: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراسانى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ : وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِلنَّاسِ](٢)﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد(٣)، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غفر(٤) الله وتجاوزه ما هنَأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»(٥).

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».
(٤) فى ت، س، أ: «عفو».
(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿ **لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ **لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿ **أَعْجَمِيٌّ** ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى [التعنت و](١) العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك(٢) والريب، ﴿ **وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ** ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿ **وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ **أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم (٣) من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول(٤).

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه](٥) جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء(٦) البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** ﴾ أى: كُذِّب وأوذى، ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «الشرك». (٣) فى أ: «يدعوهم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٨١).
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، س، أ: «خلف».

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا[١]، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ .

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما[٢] قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه[٣] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) في ت، س: «قالوه». (٢) في ت: «ولهذا».
(٣) في ت: «عمله».

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو: البلاء أو الفقر ـ ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إنى كنت أستحقه عند ربى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا(١) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾؟ أى: كيف تُرَون حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ

---

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أي: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أى: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال [١] مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إليْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى يُمْسِى وَيُصْبحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ
أنْتَ المصرّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصكَ الكِبَرُ
أنت الذى تَنعاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وَتُسْلَب لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شْىءَ منه لَهُ ... وَأحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أى: كفى بالله [٢] شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثناخَلَف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل.

---

(١) فى ت، أ: «قاله».
(٢) فى ت: «به».

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شىء قدير، وبكل شىء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة][1]

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

[٣٦و] / سورة السجدة[١]

مكيّة، وآيُها[٢] ثلاث أو[٣] أربع وخمسون.[٤]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

﴿حمٓ﴾ إن جُعل اسمًا للسورة فهو إمّا خبر لمبتدأ محذوف -وهو الأظهر لِما مرّ سرّه مِرارًا- أو مبتدأ خبرُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾، وهو على الأوّل خبر بعد خبر، وخبرٌ لمبتدأ محذوف إن جعل مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متعلِّق به مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أو خبر آخر، أو ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأٌ لِتخصّصه بالصفة، خبره: ﴿كِتَٰبٌ﴾. وهو على الوجوه الأُوَل بدل منه، أو خبر آخر، أو خبر لِمحذوف.

ونسبة "التنزيل" إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للإيذان بأنّه مدار للمصالح الدينيّة والدنيويّة، واقع بمقتضى الرحمة الربّانيّة حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١].

﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيّزتْ بحسَب النظم والمعنى، وجُعلت تفاصيلَ في أساليبَ مختلفة ومعانٍ متغايرة مِن أحكام وقَصص ومواعظ وأمثال ووعدٍ ووعيد. وقُرئ: "فَصَلَتْ"،[٥] أي: فرَقت بين الحقّ والباطل، أو فَصَل بعضها مِن بعض باختلاف الأساليب والمعاني، مِن قولك: فَصَل مِن البلد فُصُولًا.

---

[١] وهي سورة فُصّلت، ومِن أسمائها كذلك: سورة المصابيح. انظر: **الإتقان** للسيوطي، ١٩٤/١.

[٢] س ي: وهي.

[٣] س ي - ثلاث أو.

[٤] س ي + آية.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. وهي في سورة هود مرويّة عن عكرمة والضحّاك والجحدري وابن كثير. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٨٤/٤؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٨٤/٩؛ **والمحتسب** لابن جنّي، ٣١٨/١.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح، أو الحاليّة مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِتخصُّصه بالصفة، أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: معانيَه لكونه على لسانهم. وقيل: لأهل العِلم والنظر؛ لأنّهم المنتفعون به. واللام متعلِّقة بمحذوف هو صفة أخرى لـ﴿قُرۡءَانًا﴾، أي: كائنًا لقوم... إلخ، أو بِـ﴿تَنزِيلٌ﴾ على أنّ ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست بصفةٍ له، أو بـ﴿فُصِّلَتۡ﴾.

﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾

﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ صفتان أُخريان لـ﴿قُرۡءَانًا﴾،[1] أي: بشيرًا لِأهل الطاعة، ونذيرًا لأهل المعصية، أو حالان مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾،[2] أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾.[3] وقُرِئا بالرفع[4] على الوصفيّة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾،[5] أو الخبريّة لِمحذوف.

﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن تدبّره مع كونه على لغتهم، ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ تفكّر وتأمّل حتّى يفهموا جلالةَ قدره فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند دعوته إيّاهم إلى الإيمان والعمل بما في القرآن: / ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أي: أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صَمَم، وأصلُه الثِّقل. وقُرئ بالكسر.[6] وقُرئ بفتحِ القاف.[7] ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل. و﴿مِنۢ﴾ للدلالة [٣٦ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ أي: "بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

٥ في الآية السابقة.

٦ أي: "وِقْرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

٧ أي: "وَقَرٌ". قراءة شاذّة، ولم أجد مَن ذكرها قبل أبي السعود. وذكرها الشوكاني في فتح القدير، ٥٧٩/٤.

على أنّ الحجاب مبتدئ مِن الجانبين بحيث استوعب ما بينهما مِن المسافة المتوسّطة ولم يبقَ ثمّة فراغ أصلًا، وهذه تمثيلات لنُبوّ قلوبهم عن إدراك الحقّ وقبوله، ومَجّ أسماعهم له كأنّ بها صَمَمًا، وامتناعِ مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم.[1]

﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ أي: على دينك. وقيل: في إبطال أمرنا. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على ديننا. وقيل: في إبطال أمرك. والأوّل هو الأظهر؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ تلقِين للجواب عنه، أي: لستُ مِن جنسٍ مُغاير لكم حتّى يكونَ بيني وبينكم حجاب وتباين مُصحِّح لتباين الأعمال والأديان كما يُنبئ عنه قولكم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ بل إنّما أنا[2] بشر مثلكم، مأمور بما أُمرتُم به، حيث أُخبِرنَا جَميعًا بالتوحيد بخطابٍ جامعٍ بيني وبينكم، فإنّ الخطاب في ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾ مَحكيّ مُنتظِم للكلّ، لا أنّه خطابٌ منه عليه السلام للكفَرة كما في ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾.

وقيل: المعنى: لستُ ملَكًا ولا جِنّيًا لا يمكنكم التلقّي منه، ولا أدعوكم إلى ما يَنبُو عنه العقول والأسماع، وإنّما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدلّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل.

وقيل: المعنى: إنّي لستُ بمَلَك، وإنّما أنا بشر مثلكم، وقد أُوحي إليّ دونكم، فصَحَّت بالوحي إليّ وأنا بشَرٌ نُبوّتِي، وإذا صَحَّت نُبوَّتي وجب عليكم اتّباعي، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن إيحاء الوحدانيّة، فإنّ ذلك موجِب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص في الأعمال. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ ممّا كنتم عليه مِن سوء العقيدة والعمل.

/ وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثْرَ ترغيبهم في التوحيد. [٣٧و]

---

[1] س ي: عليه السلام.

[2] س - أنا.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

ووصفُهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة، حيث جُعل مِن أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة حيث قيل: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وهو عطف على ﴿لَا يُؤۡتُونَ﴾، داخل في حيّز الصلة. واختلافهما بالفعليّة والاسميّة لِما أنّ عدم إيتائها متجدّد، والكفر أمر مستمرّ.

ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه فسّر ﴿لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بقوله: «لا يقولون: لا إلٰه إلّا الله، فإنّها زكاة الأنفُس».[١] والمعنى: لا يُطهِّرون أنفسهم مِن الشرك بالتوحيد، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس، ٩١/٧].

وقال الضحّاك ومُقاتل: «لا ينفقون في الطاعة، ولا يتصدَّقون».[٢] وقال مجاهد: «لا يزكّون أعمالهم».[٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم، مِن المَنّ، وأصله: الثِّقل. أو لا يُقطع، مِن "مَنَنتُ الحَبْل" قطعتُه. وقيل: نزلَت في المرضى والهَرمى إذا عجزوا عن الطاعة كُتب لهم الأجر كأصحِّ ما كانوا يعملون.[٤]

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩﴾

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم. و"إنّ" و"اللام" إمّا لِتأكيد الإنكار، وتقديمُ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ، لا لإنكار التأكيد، وإمّا للإشعار بأنّ كفرهم مِن البُعد بحيث يُنكِر العقلاءُ وقوعَه، فيحتاج إلى التأكيد، وإنّما عُلّق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ لتفخيم شأنه تعالى، واستعظامِ كفرهم به، أي: بالعظيم الشأن الذي قدّر وجودَها -أي:

---

[١] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[٢] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[٣] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[٤] **الكشّاف للزمخشري**، ١٨٧/٤؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٦٧/٥.

حكم بأنّها سَتُوجدُ- في مقدار يومين، أو في نَوبتَين، على أنّ ما يُوجد في كلّ نَوبة يوجد بأسرعِ ما يكون، وإلّا فاليوم الحقيقي إنّما يتحقّق بعد وجودِها وتسويةِ السماوات وإبداعِ نيّراتها وترتيبِ حركاتها.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ عطف على ﴿تَكْفُرُونَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتوبيخ. وجمعُ "الأنداد" / باعتبار ما هو الواقع، لا بأن يكون مدارُ الإنكار هو التعدّدَ، أي: وتجعلون له أندادًا والحال أنّه لا يمكن أن يكون له نِدٌّ واحد. [٣٧ظ]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في العظمة. وإفراد الكاف لِما مرّ مرارًا مِن أنّ المراد ليس تعيين المخاطبين. وهو مبتدأ خبره ما بعدَه، أي: ذلك العظيم الشأنِ الذي فعل ما ذُكر ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق جميع الموجودات ومربّيها دون الأرض خاصّةً، فكيف يُتصوَّرُ أن يكون أخسُّ مخلوقاته نِدًّا له؟

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَ﴾،[1] داخل في حُكم الصلة. والجَعل إبداعي. وحديثُ لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيّز الصلة[2] مدفوعٌ بأنّ الأُولى متّحدة بقوله تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ﴾، فهو بمنزلة الإعادة له، والثانية اعتراضيّة مقرِّرة لمَضمون الكلام بمنزلة التأكيد، فالفصلُ بهما كلَا فصلٍ، على أنّ فيه فائدةَ التنبيه على أنّ مجرّد المعطوف عليه كافٍ في تحقّق ربوبيّتِه للعالمين، واستحالةِ أن يُجعل له نِدّ، فكيف إذا انضمّ إليه المعطوفات؟

وقيل: هو عطفٌ على مقدَّر، أي: خلَقها وجعلَ... إلخ. وقيل: هو كلام مستأنَف. وأيًّا ما كان فالمراد تقدير الجَعلِ، لا الجَعلُ بالفعل.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قال البيضاوي: «استئناف غير معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ للفصل بما هو خارج عن الصِّلة». أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٦٧.

وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾، أو بمضمَر هو صفة لـ﴿رَوَاسِيَ﴾، أي: كائنةً مِن فوقها مرتفعةً عليها؛ ليكون منافعها مُعْرَضَةً[١] لأهلها، ويظهرَ للنُّظّارِ ما فيها مِن مراصد الاعتبار، ومطارح الأفكار.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: قدّر أن يُكثِر خيرَها، بأن يخلق أنواع الحيوان التي مِن جملتها الإنسان وأصناف النبات التي منها معايشهم.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: حكم بالفعل بأن يُوجِد فيما سيأتي لأهلها مِن الأنواع المختلفة أقواتَها المناسبةَ لها على مقدار معيَّن يقتضيه الحكمة. وقُرئ: "وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا".[٢] ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ متعلّق بحصول الأمور المذكورة، / لا [٣٨و]
بتقديرها، أي: قدّر حصولَها في يومين. وإنّما قيل: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ -أي: تتمّة أربعة أيّام- تصريحًا بالفَذلَكة.[٣]

﴿سَوَآءٗ﴾ مصدر مؤكِّد لمضمَر، هو صفة لـ﴿أَيَّامٖ﴾، أي: استوَتْ سواءً، أي: استواءً، كما يُنبئ عنه القراءة بالجرّ.[٤] وقيل: هو حال مِن الضمير في ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾، أو في ﴿فِيهَا﴾. وقُرئ بالرفع،[٥] أي: هو سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلّق بمحذوف، تقديره: هذا الحَصر للسائلين عن مدّة خلق الأرض وما فيها. أو بِـ﴿قَدَّرَ﴾، أي: قدّر فيها أقواتَها لأجل السائلين، أي: الطالبين لها، المحتاجين إليها مِن المُقتاتين.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾

---

١ م: "مُعْرِضَة" [بكسر الراء]. | وقال الشهاب الخفاجي: «مُعْرَضَة: بوزن اسم المفعول، مِن الإفعال مِن: أعرَضَه لك إذا أظهره، ومكّنك مِن أخذه، أو مِن التفعيل، وهو قريب منه معنًى». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٠/٢٠.

٣ قال الشهاب الخفاجي: «الفَذلَكة بمعنى: جملة الحساب، وهو لفظ منحوت مِن قولهم بعد العدَد لشيء: "فذلك يكون كذا"، فاشتقّوا منه فَعْلَلَة مصدر، لكنّه قيل عليه: إنّ الفَذلكة يُذكر فيها تفاصيل أعداد ثمّ يُؤتى لها بجملة، فيقال مثلًا هنا: يومان ويومان فهي أربعة، وما هنا ليس كذلك، فكيف يكون فذلكة، وهو لم يذكر فيه أحدَ المقدارين؟ فإمّا أن يقال: إنّه للعِلم به نُزِّل مَنزلة المذكور، أو يقال: المراد إنّه جارٍ مَجرى الفَذلكة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ شروع في بيان كيفيّة التكوين إثْرَ بيان كيفيّة التقدير. ولعلّ تخصيصَ البيان بما يتعلّق بالأرض وأهلها لِما أنّ بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيبِ مبادي معايشهم قبلَ خلقهم ممّا يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والطغيان، أي: ثمّ قصدَ نحوها قصدًا سويًّا لا يلوي على غيره.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: أمر ظلماني، عبّر به عن مادّتها، أو عن الأجزاء المتصغّرة التي رُكّبت هي منها، أو دخانٌ مرتفع مِن الماء كما سيأتي. وإنّما خُصَّ الاستواء بالسماء -مع أنّ الخطاب المترتّب عليه متوجِّه إليهما معًا حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾- اكتفاءً بذِكر تقديرها وتقديرِ ما فيها، كأنّه قيل: فقال لها وللأرض التي قَدّر وجودَها ووجودَ ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾، أي: كُونا واحْدُثا على وجه معيّن وفي وقت مقدّر لكلّ منكما. وهو عبارة عن تعلّق إرادته تعالى بوجودهما تعلّقًا فعليًا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور، كما في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة، ١١٧/٢].

وقوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتُّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالةِ امتناعهما مِن ذلك، لا إثباتِ الطَّوع والكَره لهما. وهما مصدران وقعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: منقادِين. تمثيل لكمال تأثّرهما بالذات عن القدرة الربّانيّة، وحصولِهما كما أُمِرتا به، وتصويرٌ لكون وجودهما كما هما عليه جاريًا على مقتضى الحكمة البالغة، فإنّ الطَّوع مُنبئ عن ذلك، والكَره مُوهِمٌ لخلافهِ. وإنّما قيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾ / باعتبار كونهما في مَعرض [٣٨ظ]
الخطاب والجواب، كقوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف، ١٢٠/٧].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المُجمَلِ المعبَّر عنه بالأمر وجوابِه، لا أنّه فعل مترتّب على تكوينها، أي: خلقَهنّ خلقًا إبداعيًّا

وأتقنَ أمرهنّ حسبما يقتضيه الحكمة. والضمير إمّا لـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على المعنى، أو مبهَم. و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حال على الأوّل، تمييز على الثاني.

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ في وقت مقدّر بيومين. وقد بُيّن مقدارُ زمان خلق الأرض وخلقِ ما فيها عند بيان تقديرهما، فكان خلقُ الكلّ في ستّة أيام حسبما نُصّ عليه في مواقعَ مِن التنزيل.[١]

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ عطفٌ على ﴿قَضَىٰهُنَّ﴾، أي: خلَق في كلّ منها ما فيها مِن الملائكة والنيّرات وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى، كما قاله قتادة والسدّي.[٢] فالوحي عبارةٌ عن التكوين كالأمر، مقيّدٌ بما قُيّد[٣] به المعطوف عليه مِن الوقت. أو أوحى إلى أهل كلٍّ منها أوامره، وكلّفهم ما يليق بهم مِن التكاليف، فهو بمعناه، ومطلَق عن القيد المذكور. وأيًّا مّا كان فعلى ما قُرّر مِن التفصيل لا دلالةَ في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وإنّما الترتيب بين التقدير والإيجاد.

وأمّا على تقدير كون الخلق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة[٤] على معانيها الظاهرة فهي وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] تدلّان على تقدّم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير.

وقد رُوِي أنّ العرش العظيم كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدث في الماء اضطرابًا فأَزْبَدَ فارتفع منه دخان، فأمّا الزبَد فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليُبوسة فجعله أرضًا واحدةً، ثمّ فتَقَها فجعلها أرضين، وأمّا الدخان فارتفع / وعلا فخلق منه السماوات.[٥] [٣٩و]

---

[١] منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٥٤/٧].

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٣/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٨.

[٣] س – بما قُيّد.

[٤] وفي هامش س: وهي: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، ﴿وَبَٰرَكَ﴾، ﴿وَقَدَّرَ﴾.[(١)] «منه». | [(١)] فصلت، ١٠/٤١.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٦٢/١.

ورُوي أنّه تعالى خلق جِرم الأرض يومَ الأحد ويومَ الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلق السماوات وما فيهنّ يومَ الخميس ويومَ الجمعة، وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[١]

وقيل: إنّ خلْق جِرم الأرض مقدَّم على خلق السماوات، لكنّ دَحْوَها وخلْق ما فيها مؤخَّر عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩]، ولِما رُوي عن الحسَن رحمه الله مِن أنّه تعالى خلَق الأرض في موضع بيت المَقدس كهيئة الفِهْر[٢] عليه دخان ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخانَ، وخلَق منه السماوات، وأمسك الفِهر في موضعها، وبسط منها الأرض،[٣] وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٣٠/٢١].

وليس المراد بنظمها مع السماء في سِلك الأمر بالإتيان إنشاءَها وإحداثها؛ بل إنشاءُ دَحْوِها، وجعلُها على وجه خاصّ يليق بها مِن شكل معيّن ووصف مخصوص، كأنّه قيل: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه، ائتي يا أرض مدحوّةً قرارًا ومِهادًا لِأهلِكِ، وائتي يا سماء مُقبَّبةً سقفًا لهم.

ومعنى الإتيان الحصولُ على ذلك الوجه، كما يُنبئ عنه قراءةُ "آتِيَا" و"آتَيْنَا"[٤] مِنَ المواتاة، وهي الموافقة. وأنت خبير بأنّ المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرّدَ خلق جِرم الأرض حتّى يتأتّى ما ذُكر؛ بل خَلْقُ ما فيها أيضًا مِن الأمور المتأخِّرة عن دَحوها قطعًا.

فالأظهر أن يُسلك مسلكَ الأوّلَين ويُحملَ الأمر بالإتيان على تكوينِهما متوافقتين على الوجه المذكور، وليس مِن ضرورته أن يكون دحوها مترتّبًا على ذلك التكوين، وإنّما اللازم ترتّب حصول التوافق عليه، ولا ريب في أنّ تكوين السماء على الوجه اللائق بها كافٍ في حصولِهِ. ولا يقدح في ذلك

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٦٤/١ (البقرة، ٢٩/٢)؛ ٣٨٢/٢٠؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٣١٥/٧.

٢ الفِهر: الحجَر ملء الكفِّ. الصِّحاح للجوهري، «فهر».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/١ (البقرة، ٢٩/٢).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٧/٥.

[٣٩ظ] / تكوينُ الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك. وأنْ يُجعلَ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩] منصوبًا بمضمَر قد حُذف على شريطة التفسير، ويُجعلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء ورفعِ سمكها وتسويتها وغيرِها لا إلى أنفسِها، ويُحملَ البعديّة إمّا على أنّه قاصر عن الأوّل في الدلالة على القُدرة القاهرة كما قيل. وإمّا على أنّه أدخل في الإلزام، لِما أنّ المنافع المَنوطة بما في الأرض أكثر، وتعلُّقَ مصالحِ الناس بذلك أظهر، وإحاطتَهم بتفاصيلها أكمل.

وليس ما رُوي عنِ الحسَن رضي الله عنه نصًا في تأخرِ دَحْو الأرض عن خلْق السماء، فإنّ بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلقِ السماء بالواو، فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعًا.

وقد نَقل الإمام الواحدي عن مُقاتل رحمهما الله: أنّ خلق السماء مقدَّم على إيجاد الأرض فضلًا عن دَحْوها.[١] فلا بدّ مِن حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضًا على ما ذُكر مِن التوافقِ والمُواتاة. ولا يقدح في ذلك تقدّم خلق السماء على خلق الأرض كما لم يقدح فيه تقدّم خلق الأرض على خلق السماء.

هذا كلُّه على تقدير كون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزمانيّ، وأمّا على تقدير كونها للتراخي الرُّتْبيّ -كما جنَح إليه الأكثرون-[٢] فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأوّل، وعلى ذلك بُنِي الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآيةَ [البقرة، ٢٩/٢]. وإنّما لم يُحمَل الخلق هناك على معنى التقدير كما حُمِل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقّه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ مِن الكواكب، فإنّها كلَّها تُرى مُتلألئةً عليها [٤٠و] كأنّها فيها. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر. / وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعل معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفِظناها مِن الآفات،

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٤٣٠/١٩. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٥٧٨/٤.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٥.

أو مِن المُسترِقة حفظًا. وقيل: مفعول له على المعنى، كأنّه قيل: وخلقنا المصابيح زينةً وحِفظًا. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر بتفاصيله ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعِلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾... إلخ،[1] أي: فإن أعرضوا عن التدبّر فيما ذُكر مِن عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان، أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: أُنذِرُكم، وصيغةُ الماضِي للدلالة على تحقّق الإنذارِ المُنبئ عن تحقّق المنذَرِ. ﴿صَٰعِقَةً﴾ أي: عذابًا هائلًا شديدَ الوَقع كأنّه صاعقة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. وقُرئ: "صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ"،[2] وهي المرّة مِن الصَّعْق أو الصَّعَقِ، يقال: صَعَقَتْهُ الصاعقةُ صَعْقًا فَصَعِقَ صَعَقًا، وهو مِن باب فَعَلْتُه فَفَعِلَ.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حال مِن ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾،[3] ولا سدادَ لجعله ظرفًا لـ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾[4] أو صفة لـ﴿صَٰعِقَةً﴾[5] لفساد المعنى. وأمّا جعلُه صفةً لـ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾[6] -أي: الكائنة إذ جاءتهم- ففيه حذف الموصول مع بعض صلته.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلّق بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾، أي: مِن جميع جوانبهم، واجتهَدوا بهم مِن كلّ جهة، أو مِن جهة الزمان الماضي بالإنذار عمّا جرى فيه على الكفّار، ومِن جهة المستقبل بالتحذير عمّا سيَحيق بهم مِن عذاب الدنيا ومِن عذاب الآخرة.

---

[1] فصلت، ٩/٤١.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر والزبير بن العوام وعبد الله بن الزبير وابن مُحيصن والنخعي. شواذّ القراءات، ص ٤٢١.
[3] في الآية السابقة.
[4] في الآية السابقة.
[5] في الآية السابقة.
[6] في الآية السابقة.

وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدِّمون والمتأخِّرون، على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحقّ منزلةَ مجيء أنفسهم، فإنّ هُودًا وصالحًا كانا داعيَينِ لهم إلى الإيمان بهما وبجميعِ الرسل ممّن جاء مِن بين أيديهم، أي: مِن قبلهم، وممّن يجيء مِن خلفهم، أي: مِن بعدهم، فكأنّ الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا، على أنّ "أنْ" مصدريّة، أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مفسِّرة.

[٤٠ظ] / ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾[1] أي: إرسالَ الرسل، لا إنزالَ الملائكة كما قيل؛[2] فإنّه عارٍ عن إفادة ما أرادوه مِن نفي رسالة البشر، وقد مرّ فيما سلف. ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لأرسلهم، لكن لمّا كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾. ﴿فَإِنَّا[3] بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم. وفيه ضرب تهكّمٍ بهم. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لِما أنّكم بشر مثلنا مِن غير فضل لكم علينا.

رُوي أنّ أبا جهل قال في ملأ مِن قريش: «قد التبس علينا أمر محمّد، فلو التمستم لنا رجلًا عالِمًا بالشِّعر والكهانة والسحر فكلّمه ثمّ أتانا ببيانٍ مِن أمره»، فقال عتبة بن ربيعة: «واللهِ لقد سمعت الشِّعر والكهانة والسحر، وعلمت مِن ذلك علمًا، وما يخفى عليّ»، فأتاه فقال: «أنت يا محمّد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطّلب، أنت خير أم عبد الله، فبِم تشتم آلهتنا وتضلِّلنا، فإن كنتَ تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنتَ رئيسَنا، وإن تكُ بكَ الباءة زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ، أيّ بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني»، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساكت، فلمّا فرَغ عتبة قال عليه السلام: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حم﴾...[4] إلى قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾،[5] فأمسك عتبة على فيه عليه السلام وناشدَه بالرَّحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلمّا احتبس عنهم قالوا: «ما نرى عتبةَ إلّا قد صبأَ»، فانطلقوا إليه، وقالوا: «يا عتبة ما حبَسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت»،

---

١ م س: الله.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٩٥/٩؛ وابن عادل في اللباب، ١١٨/١٧.

٣ م س ي: إنّا.

٤ فصّلت، ١/٤١.

٥ فصّلت، ١٣/٤١.

فغضِب ثمّ قال: «واللهِ لقد كلّمته فأجابني بشيء، واللهِ ما هو بشِعر ولا كَهانة ولا سِحر، ولمّا بلغَ ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكتُ بفيه، وناشَدْتُه بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أنّ محمّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخِفت أن ينزل بكم العذاب».[١]

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في حكاية ما يخصّ بكلّ واحدة مِن الطائفتين مِن الجناية والعذاب إثْر حكاية ما يعمّ الكلّ مِن الكفر المطلق، أي: فتَعظّموا فيها على أهلها، أو استعلَوا فيها واستولَوا على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير استحقاق للتعظّم والوِلاية، ﴿وَقَالُواْ﴾ مدلّين بشدّتهم وقوّتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حيث كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم، وقد بلغ مِن قوّتهم أنّ الرجل كان ينزع الصخرةَ / مِن الجبل فيقتلعها بيده. [٤١و]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أغفِلوا، أَو أَلَمْ ينظروا وَلم يعلموا عِلمًا جليًا شبيهًا بالمشاهدة والعِيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: قدرةً، فإنّه تعالى قادر بالذات، مقتدِر على ما لا يتناهى، قويّ على ما لا يقدر عليه غيره، مُفِيضٌ للقُوَى والقُدَرِ على كلّ قويّ وقادر. وإنّما أُورِد في حيّز الصلة خلقُهم دون خلْق السماوات والأرض لادّعائهم الشدّة في القوّة. وفيه ضرب مِن التهكّم بهم.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُنزَلة على الرسل ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي: يُنكرونها، وهم يعرفون حقّيّتَها، وهو عطفٌ على ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾. وما بينهما اعتراض للردّ على كلمتهم الشّنعاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردة تُهلِك وتحرق بشدّة بردها، مِن الصِّرّ؛ وهو البرد الذي يُصِرّ، أي: يجمع ويقبض. أو عاصفةً تصوِّت في هُبوبها،

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٢/٤. وأخرجه بنحوه الحاكم في **المستدرك**، ٢٧٨/٢ (٣٠٠٢).

مِن الصَّرير. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ "نحِسَة"، مِن نحِسَ نَحْسًا، نقيض سَعِد سعدًا. وقُرئ بالسكون على التخفيف،[١] أو على أنّه نعت على فَعْلٍ، أو وصف بمصدرٍ مبالغةً. قيل: كُنَّ آخرَ شوّال مِن الأربعاء إلى الأربعاء. وما عُذّب قوم إلّا في يوم الأربعاء.[٢]

﴿لِّنُذِيقَهُمْ[٣] عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقُرئ: "لِتُذِيقَهُمْ"،[٤] على إسناد الإذاقة إلى الريح، أو إلى الأيّام. وأُضيف العذاب إلى الخزي الذي هُو الذلّ والاستكانة على أنّه وصف له -كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾- وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، قد وُصف به العذاب للمبالغة. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدلَلناهم على الحقّ بنصب الآيات التكوينيّة، وإرسال الرسل، وإنزال الآيات التشريعيّة، وأزَحنا عِلَلهم بالكلّيّة، وقد مرّ تحقيق معنى الهدى في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. وقُرئ: "ثَمُودَ" بالنصب[٥] بفعل يفسّره ما بعده، ومنوّنًا في الحالين،[٦] وبضمّ الثاء.[٧]

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهداية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ/ ٱلْهُونِ﴾ داهيةُ العذاب، وقارعة العذاب. و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهَوان، وُصف [٤١ظ]
به ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ مبالغة، أو أُبدِل منه. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن اختيار الضلالة.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٩/٥. وهو عن ابن عبّاس في غرائب التفسير للكرماني، ١٠٤١/٢.

٣ م س ي: ليذيقهم. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مرويّة عن زياد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السُّلمي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٤٠/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٦ أي: في الرفع والنصب. وهما قراءتان شاذّتان، أمّا التنوين مع الرفع فعَن يحيى والأعمش، وأمّا التنوين مع النصب فعن ابن أبي إسحاق. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٧ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٤.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ مِن تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ شروع في بيان عقوباتهم الآجلة إثرَ بيان عقوباتهم العاجلة. والتعبير عنهم بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ لذمّهم والإيذانِ بعِلّة ما يَحيق بهم مِن ألوان العذاب. وقيل: المراد بهم الكفّار مِن الأوّلين والآخرين.[1] ويَرُدّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.[2] وقُرئ: "يَحْشُرُ" على بناء الفاعل ونصب "أَعْدَاءَ اللهِ"،[3] وبنون العظمة وضمّ الشينِ[4] وكسرها.[5]

﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى موقف الحساب؛ إذ هناك يتحقّق الشهادة الآتية، لا بعد تمام السؤال والجواب، وسَوقِهم إلى النار. والتعبير عنه بـ﴿ٱلنَّارِ﴾ إمّا للإيذان بأنّها عاقبة حَشرِهم وأنّهم على شرف دخولها، وإمّا لأنّ حسابهم يكون على شفيرها.

و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخّر قد حُذف إيهامًا لقصور العبارة عن تفصيله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]. وقيل: ظرف لِما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرتهم. وقيل: يُساقون ويُدفَعون إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جميعًا، غاية لـ﴿يُحْشَرُ﴾،[6] أو لـ﴿يُوزَعُونَ﴾،[7] أي: حتّى إذا حضروها. و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد اتّصال الشهادة بالحضور.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن فنون الكفر والمعاصي، بأن يُنطِقها الله تعالى، أو يُظهِرَ عليها آثارَ ما اقترفوا بها.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٩٥/٤.
٢ فصّلت، ٢٥/٤١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٤ أي: "نَحْشُرُ أَعداءَ الله". قرأ بها نافع ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.
٥ أي: "نَحْشِرُ أَعداءَ الله". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٦ في الآية السابقة.
٧ في الآية السابقة.

وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: أنّ المراد بـ"شهادةِ الجُلود" شهادةُ الفروج.[٢] وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فإنّ ما تشهد به مِن الزنا أعظم جنايةً وقُبحًا وأجلَب للخِزي والعقوبة ممّا يشهد به السمع والأبصار مِن الجنايات المكتسبة بتوسّطهما. وقيل: المراد بـ"الجلود" الجوارح، أي: سألوها سؤالَ توبيخٍ لِما رُوي أنّهم قالوا لَها: «فعنكُنّ كنّا نُناضِل».[٣] وفي روايةٍ: / «بُعدًا لكُنّ [٤٢و] وسُحقًا، عنكُنّ كنتُ أجادل».[٤] وصيغة جمع العقلاء في خطاب "الجلود" وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لِوقوعها في موقعِ السؤال والجواب المختصَّين بالعقلاء، أي: أنطقَنا الله الذي أنطق كلَّ ناطق، وأقدَرَنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا مِن القبائح وما كَتمناها.

وقيل: ما نطقْنا باختيارنا؛ بل أنطقَنا الله الذي أنطق كلّ شيء.[٥] وليس بذاك لِما فيه مِن إيهام الاضطرار في الإخبار.

وقيل: سألوها سؤالَ تعجّبٍ، فالمعنى حينئذ: ليس نُطقُنا بعجَب مِن قدرة الله[٦] الذي أنطق كلَّ حيّ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإنّ مَن قدَر على خلقكم وإنشائكم أوّلًا وعلى إعادتكم ورَجْعكم إلى جزائه ثانيًا لا يُتَعَجّبُ مِن إنطاقه لجَوارحكم. ولعلّ صيغةَ المضارع مع أنّ هذه المحاورة بعد البعث والرَّجْع لِما أنّ المراد بالرَّجعِ

---

١ س - تعالى.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٨/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٢٧/١٧. وهو في جامع البيان للطبري، ٤٠٦/٢٠، عن عبيد الله بن أبي جعفر.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٤/٤، بلفظ: "فعنكنّ كنت أناضل". وكذا أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٨٠/٤ (٢٩٦٩).

٤ جامع البيان للطبري، ٤٠٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٦٩/٥.

٦ س - الله.

ليس مجرّد الرَّدِّ إلى الحياة بالبعث؛ بل ما يعمّه وما يترتّب عليه مِن العذاب الخالد المترقَّبِ عند التخاطب، علىٰ تغليب المتوقَّع على الواقع، على أنّ فيه مراعاةَ الفواصل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حكاية لِما سَيُقالُ لهم يومئذ مِن جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرًا لِجَواب الجلود، أي: ما كنتم تستَترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافةَ أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون الناسَ مخافةَ الافتضاحِ عندهم؛ بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسًا.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن القبائحِ المخفيّة فلا يُظهرها في الآخرة، ولذلك اجترأتم على ما فعلتم.[1] وفيه إيذان بأنّ شهادة الجوارح بإعلامه تعالى حينئذ، لا بأنّها كانت عالِمةً بما شهدت به عند صدوره عنهم.

عن ابن مسعود رضي الله تعالى[2] عنه: / كنت مستتِرًا بأستار الكعبة، فدخل ثلاثةُ نفَرٍ، ثَقَفِيّان وقرشي، أو قرشيّان وثقفي،[3] فقال أحدهم: «أترَون أنّ الله يسمع ما نقول؟» قال الآخر: «يسمع إن جَهرنا، ولا يسمع إن أخفينا». فذكرت ذلك للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾... الآيةَ. [٤٢ظ]
فالحُكم المَحكيّ حينئذ يكون خاصًّا بمَن كان على ذلك الاعتقاد مِن الكفَرة. ولعلّ الأنسبَ أن يُراد بالظنّ معنًى مجازي يعمّ معناه الحقيقي وما يجري مَجراه مِن الأعمال المُنبئة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤]؛ ليعمّ ما حُكي مِن الحال جميعَ أصناف الكفَرة، فتدبّر.

---

[1] وفي هامش م: ولولاه لاتّقيتم أن يُظهرها الله تعالى بوجهٍ مِن الوجوه التي مِن جملتها إشهاد الجوارح. «منه».

[2] س - تعالى.

[3] وفي هامش م: قيل: الثقفيّان: عبد ياليل وختَنه، والقُرشيّان: ربيعة وصفوان بن أميّة. «منه». | وعبارة الثعلبي: "والثقفي عبد ياليل، وختناه القريشيان: ربيعة، وصفوان بن أمية". الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ظنّهم. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية بُعد منزلته في الشرّ والسوء. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبران له. ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلًا، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرًا. ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظنّ السّوء الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذ صار ما مُنِحوا لنيل سعادة الدارين سببًا لشقاء النشأتين.

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: محلّ ثواءٍ وإقامةٍ أبديّةٍ لهم بحيث لا بَراحَ لهم منها. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم ويُحكَى سوءُ حالهم لغيرهم، أو للإشعارِ بإبعادهم عن حيّز الخطاب وإلقائهم في غيابة دركات النار.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ أي: يسألوا العُتبى، وهو الرجوع إلى ما يُحبّونه جَزعًا ممّا هم فيه. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها. ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم، ٢١/١٤]، وقُرئ: "إِن يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتِبِينَ"،[١] أي: إن يُسألوا أن يُرضُوا ربّهم فما هم فاعلون لِفوات المُكنة.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدّرنا وقرَنّا للكفَرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قَرين، أي: أَخْدانًا مِن الشياطين يستولون عليهم استيلاءَ القَيْض على البَيض، وهو القِشر. وقيل: أصل القَيض البدَل، ومنه المقايضة للمعاوضة.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أمور الدنيا واتّباعِ الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمور الآخرة حيث أَرَوْهم أن لا بعثَ ولا حسابَ ولا مكروهَ قطّ. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ/ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتقرّر عليهم كلمة العذاب وتَحقّق مُوجَبُها ومصداقُها، [٤٣و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٤-٨٥]. وقوله تعالى:[١] ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٨] كما مرّ مرارًا.

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أممٍ. وقيل: ﴿فِى﴾ بمعنى مع، وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾[٢] فيما سبَق المعهودون مِن عاد وثمود، لا الكفّار مِن الأوّلين والآخرين كما قيل.[٣]

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾، أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للأوّلين والآخرين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِن رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تُنصِتوا له، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وعارِضوه بالخرافات مِن الرَّجَز والشِّعر والتَّصدية والمُكاء،[٤] أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوّشوه على القارئ. وقُرئ بضمّ الغين،[٥] والمعنى واحد، يقال: لَغِيَ يَلغَى -كلَقِيَ يَلقَى- ولَغا يَلغُو، إذا هَذَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فوالله لَنُذيقنّ هؤلاء القائلين واللاغين، أو جميعَ الكفّارِ وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقادَر قدرُه،

---

١ م س ي + ﴿ٱذْهَبْ﴾. | وهذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٦٣].

٢ س + تعالى. | فصلت، ٤١/١٩.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/١٩٥.

٤ سبق في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال، ٨/٣٥]: ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقًا.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب السهمي وعيسى وابن عمير وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سيّئات أعمالهم، التي هي في أنفُسها أسوَأ. وقيل: إنّه لا يجازيهم بمَحاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقِرَى الأضياف؛ لأنّها مُحْبَطَة بالكفر. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بَدرٍ، و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة».[1]

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبره، أي: ما ذُكر مِن الجزاء جزاءٌ مُعَدّ لأعدائه تعالى. وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاء. أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك، على أنّه عبارة عن مضمون الجملة، لا عن الجزاء، وما بعده جملة مستقلّة مُبيّنةٌ / لِما قبلها. [٤٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ جملة مستقلّة مقرِّرة لِما قبلها. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ هي خبره، أي: هي بعينها دار إقامتهم، على أنّ ﴿فِى﴾ للتجريد؛ وهو أن يُنتزع مِن أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مثلُه مبالغةً لكماله فيها، كما يقال: في البَيضة عشرون مَنًّا حديد.[2] وقيل: هي على معناها، والمراد أنّ لهم في النار المشتملة على الدركات دَارًا مخصوصة هم فيها خالدون.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ منصوب بفعلٍ مقدّر، أي: يُجزَوْن جزاءً، أو بالمصدر السابق، فإنّ المصدر يَنتصب بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٦٣]، والباء الأولى متعلّقة بـ﴿جَزَآءً﴾، والثانية بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ قُدّمت عليه لمراعاة الفواصل، أي: بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقّة، أو يُلغون فيها. وذِكر الجحود لكونه سببًا للّغو.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩٨/٤. وذكره ابن عطية في تفسيره، ١٣/٥، دون أن يعزوه إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[2] أي: هي في نفسها هذا المبلغ مِن الحديد. الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم متقلّبون فيما ذكر مِن العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون فريقَيْ شياطين النوعين المُقيِّضِين لهم، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين. وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنّهما سَنَّا الكفر والقتل بغير حقّ. وقُرئ: "أَرْنَا" تخفيفًا،[١] كفَخْذ في فَخِذٍ. وقيل: معناه: أعطِناهما. وقُرئ باختلاس كسرة الراء.[٢]

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: نَدُسْهما انتقامًا منهما. وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: ذُلًّا ومهانةً، أو مكانًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفَرة فيهما، أي: قالوه اعترافًا بربوبيّته تعالى وإقرارًا بوحدانيّته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: ثبَتوا على الإقرار ومقتضياته، على أنّ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة، فإنّ الاستقامة لها الشأنُ كلّه. وما روي عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى[٣] عنهم في معناها -مِن الثبات / على [٤٤و]
الإيمان، وإخلاص العمل، وأداء الفرائض-[٤] بيانٌ لجزئيّاتها.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن جهته تعالى يُمدّونهم فيما يَعِنّ لهم مِن الأمور الدينيّة والدنيويّة بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحُزنَ بطريق الإلهام، كما أنّ الكفَرة يُغويهم ما قُيِّض لهم مِن قرناء السَّوء بتزيين القبائح. وقيل: تَتنزَّل عند الموت بالبشرى. وقيل: إذا قاموا مِن قبورهم. وقيل: البشرى في مواطنَ ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث. والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه.

---

١ قرأ بها ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٢ هو الوجه الثاني عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٣ س - تعالى.

٤ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/١٩٩.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدَمون عليه، فإنّ الخوف غمٌّ يَلحق لتوقّعِ المكروه. ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلّفتم، فإنّه غمّ يَلحق لوقوعه، مِن فوات نافع أو حصول ضارّ. وقيل: المراد نَهْيُهم عن الغموم على الإطلاق، والمعنى: أنّ الله تعالى كتب لكم الأمن مِن كلّ غمّ، فلن تذوقوه أبدًا.

و"أنْ" إمّا مفسّرة، أو مخفّفة مِن الثقيلة، والأصل: بأنّه لا تخافوا. والهاء ضمير الشأن. وقُرئ: "لَا تَخَافُوا"،[١] أي: يقولون: لا تخافوا، على أنّه حال مِن ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، أو استئناف.

﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ أي: سُرُّوا ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسِنة الرسل. هذا مِن بِشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... إلخ مِن بِشاراتهم في الدنيا، أي: أعوانكم في أموركم، نُلهمكم الحَقَّ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحُكم. ولعلّ ذلك عبارة عمّا يخطر ببال المؤمنين المستمِرّين على الطاعات مِن أنّ ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ نُمِدّكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع مِن التعادي والخصام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِن فنون الطيّبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنّون. افتعال مِن الدعاء، بمعنى الطلب، أي: تدّعون لأنفسكم وهو أعمّ مِن الأوّل. و﴿لَكُمْ﴾ في الموضعين خبر، و﴿مَا﴾ مبتدأ، و﴿فِيهَا﴾ حال مِن ضميره في الخبر. وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِى﴾ للإشباع في البِشارة والإيذان باستقلال كلّ منهما.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ / رَّحِيمٍ﴾ حال مِن ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾، مفيدة لكون ما يتمنّونه بالنسبة إلى ما يُعطَون مِن عظائم الأجور كالنُّزُل للضيف. [٤٤ظ]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده تعالى وطاعته. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا إلى الإسلام».[1] وعنه: «أنّهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[2] وقيل: نزلت في المؤذّنين.[3] والحقّ أنّ حكمها عامّ لكلّ مَن جمع ما فيها مِن الخصال الحميدة، وإن نزلت فيمَن ذُكر.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربّه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجًا بأنّه منهم، أو اتّخاذًا للإسلام دينًا ونِحلةً، مِن قولهم: هذا قولُ فلانٍ، أي: مذهَبُه، لا أنّه تكلّم بذلك. وقُرئ: "إنّي" بنون واحدة.[4]

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثْرَ بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الربّ عزّ وجلّ ترغيبًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصبر على أذيّة المشركين، ومقابلةِ إساءتِهم بالإحسان، أي: لا يستوي الخصلة الحسنة والسيّئة في الآثار والأحكام. و﴿لَا﴾ الثانيةُ مزيدة لتأكيد النفي.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾... إلخ استئناف مبيّن لحُسن عاقبة الحسنة، أي: ادفع السيّئة حيث اعترضَتْك مِن بعض أعاديك بالتي هي أحسن

---

[1] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠٥/٩.

[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤، عن عائشة رضي الله عنها.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن شنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

ما يمكن دفعها به مِن الحسنات، كالإحسان إلى مَن أساء، فإنّه أحسنُ مِن العفو. وإخراجه مُخرج الجواب عن سؤال مَن قال: "كيف أصنع؟" للمبالغة، ولذلك وُضِع ﴿أَحْسَنُ﴾ موضع الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به، أي: فإذا فعلت ذلك صار عدوّك المُشاقّ مثلَ الوليّ الشفيق.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا﴾ أي: ما يُلقّى هذه الخصلةَ والسجيّةَ التي هي مقابَلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: شأنهم الصبر، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِن الخير وكمال النفس. وقيل: الحظّ العظيم: الجنّة، وقيل: هو الثواب. قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب،[١] / وكان مُؤذيًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فصار وليًا مصافيًا. [٤٥و]

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النَّزْغ والنَّسْغ بمعنًى، وهو شِبهُ النَّخْس، شُبّه به وسوسةُ الشيطان لأنّها بعث على الشرّ، وجُعل نازغًا على طريقة "جَدَّ جِدُّه"، أو أُريدَ: "وإمّا ينزغنّك نازغ" وصفًا للشيطان بالمصدر، أي: وإن صرَفك الشيطان عمّا وُصِيتَ به مِن الدفعِ بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ مِن شرّه، ولا تطعه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ باستعاذتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّتك أو بصلاحك. وفي جَعل تَركِ الدفع بالأحسن مِن آثار نزَغات الشيطان مزيد تحذيرٍ وتنفير عنه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كلّ منها مخلوق مِن مخلوقاته مُسخّر لأمره.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٧/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦/٤.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنّهما مِن جملة مخلوقاته المسخَّرة لأوامره مثلكم. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة؛ لأنّ حكم جماعةِ ما لا يعقل حكمُ الأنثى أو الإناث، أو لأنّها عبارة عن الآيات. وتعليق الفعل بالكلّ مع كفاية بيان مخلوقيّة الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المَسجوديّة بنَظمهما في المخلوقيّة في سِلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها، وهو السرّ في نظم الكلّ في سِلك آياته تعالى.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنّ السجود أقصى مراتب العبادة، فلا بدّ مِن تخصيصه به سبحانه. وهو موضع السجود عند الشافعي.[١] وعندنا آخرَ الآية الأخرى؛ لأنّه تمام المعنى.[٢]

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مِن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: دائمًا ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لا يفتُرون ولَا يَملُّون. وقُرئ: "لَا يِسْأَمُونَ" بكسر الياء.[٣]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسةً مُتطامنة. مستعار مِن الخشوع بمعنى التذلّل. ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ / أي: المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرّكت [٤٥ظ] بالنبات وانتفخت؛ لأنّ النبت إذَا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثمّ تصدّعت عن النبات. وقيل: تزخرفت بالنبات. وقُرئ: "رَبَأَتْ"، أي: ارتَفعت.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بما ذُكر بعد موتها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ بالبعث. ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإحياءُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة.

---

١ أصحّ الوجهين مِن مذهب الشافعي أنّ السجدة عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. انظر: المجموع للنووي، ٤/٦٠؛ ومغني المحتاج للخطيب الشربيني، ١/٤٤٢.

٢ انظر: رد المحتار على الدرّ المختار لابن عابدين، ٢/١٠٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة. وقُرئ: "يَلْحَدُونَ".[١] ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعن فيها وتحريفها بحَملها على المَحامل الباطلة ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فنجازيهم بإلحادهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تنبيه على كيفيّة الجزاء. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ مِن الأعمال المؤدّية إلى ما ذُكر مِن الإلقاء في النار والإتيان آمِنًا. وفيه تهديد شديد. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾...[٢] إلخ. وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو الخبر السابق. وقيل: مستأنَف، وخبرُها محذوف. وقال الكسائي: سدّ مسدّه الخبر السابق.[٣] والذِّكر: القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: كثير المنافع عديم النظير، أو مَنيع لا يتأتّى معارضته. جملة حاليّة مفيدة لغاية شناعة الكفر به.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يتطرّق إليه الباطل مِن جهة مِن الجهات. صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أو صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مفيدةٌ لفخامته الإضافيّة كما أنّ الصفتين السابقتين مفيدتان

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.
٢ في الآية السابقة.
٣ وهو قوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣١٠/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٥/١٧.
٤ في الآية السابقة.

لفخامته الذاتيّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ﴾... إلخ اعتراض عند مَن لا يجوِّز تقديم غير الصريح مِن الصفات على الصريح. كلّ ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾... إلخ تسلية / لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم [٤٦و] عمّا يصيبه مِن أذيّة الكفار، أي: ما يقال في شأنك وشأن ما أنزل إليك مِن القرآن مِن جهة كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: إلّا مثل ما قد قيل في حقّهم ممّا لا خير فيه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، وقد نَصر مَن قبلك مِن الرسل، وانتقم مِن أعدائهم، وسيفعل مِثل ذلك بك وبأعدائك أيضًا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هلّا أُنزل القرآن بلغة العجم. والضمير لـ﴿الذِّكْرِ﴾. ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيّنت بلسان نفقهه.

وقوله تعالى: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ إنكار مقرِّر للتحضيض. و"الأعجميّ" يقال لكلامٍ لا يُفهَم، وللمتكلِّم به. و"الياء" للمبالغة في الوصف كأحمري، والمعنى: أكلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي، على أنّ الإفراد -مع كون المرسَلِ إليهم أمّةً جمّةً- لِما أنّ المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطَب به، لا بيانُ كون المخاطَب واحدًا أو جمعًا.

وقُرئ: "أَعَجَمِيٌّ"،[١] أي: أَكَلام منسوب إلى أمّة العَجم. وقُرئ: "أَعْجَمِيٌّ"[٢] على الإخبار بأنّ القرآن أعجمي والمتكلِّم أو المخاطَب عربي. ويجوز أن يراد:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن ميمون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

[٢] قرأ بها قنبل وهشام ورُويس باختلاف عنهم. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/١.

هلّا فُصِّلت آياته، فجُعلَ بعضها أعجميًا لإفهام العجَم، وبعضها عربيًا لإفهام العرب. وأيًا ما كان فالمقصود بيانُ أنّ آيات الله تعالى على أيّ وجهٍ جاءتهم وجدوا فيها مُتَعنتًا يتعلّلون به.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾ يهديهم إلى الحقّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن شكٍّ وشبهةٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ، خبره: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على أنّ التقدير: هو -أي: القرآن- في آذانهم وَقْر، على أنّ ﴿وَقْرٌ﴾ خبر للضمير المقدّر، و﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿وَقْرٌ﴾. وهُو أوفَق لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. وقيلَ: خبر الموصول ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، و﴿وَقْرٌ﴾ فاعل الظرف. وقيل: ﴿وَقْرٌ﴾ مبتدأ، والظرف خبره، والجملة خبر للموصول. وقيل: التقدير: والذين لا يؤمنون / في آذانهم منه وَقرٌ. ومَن جوّزَ العطف على عاملين عطَف الموصولَ على الموصول الأوّل، أي: هو للأوّلين هدًى وشفاء، وللآخِرين وَقْر في آذانهم. [٤٦ظ]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتّصافه بما في حيّز صلته، وملاحظةِ ما أُثبِت له. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الشرّ مع ما فيه مِن كمال المناسبة للنداء مِن بعيد، أي: أولئك البُعَداء الموصوفون بما ذُكر مِن التَّصامّ عن الحقّ الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قَبولهم واستماعهم له بمَن ينادَى مِن مسافة نائية، لا يكاد يُسمَع مِن مِثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غيرُ مختصّ بقومك، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت، ٤١/٤٣]، أي: وباللهِ لقد آتيناه التوراة فاختُلف فيها، فمِن مصدِّقٍ لها ومكذِّبٍ، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك مِن القرآن، فمِن مؤمن به وكافر.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقّ أمّتك المكذِّبة، وهي العِدَة بتأخير عذابهم وفَصلِ ما بينهم وبين المؤمنين مِن الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر، ٤٦/٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [النحل، ٦١/١٦].

﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ باستئصال المكذّبين كما فُعِل بمكذّبِي الأمم السالفة. ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي: كفّارَ قومك ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾[١] أي: مِن القرآن. وجعلُ[٢] الضمير الأوّل لليهود والثاني للتوراة[٣] ممّا لا وجه له.

﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾

﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجَبها ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه يعمله، أو فنَفعُه لنفسه لا لغيره. ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ ضررُه، لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراض تذييلي، مقرّر لمضمون ما قبله، مبنيّ على تنزيل تركِ إثابة المحسن بعمله أو إثابةِ الغير بعمله وتنزيلِ التعذيب بغير إساءةٍ أو بإساءة غيره منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه،[٤] وقد مرّ ما في المقام مِن التحقيق والتفصيل في سورة آل عمران وسورة الأنفال.[٥]

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئل عنها يقال: الله يعلم، أو لا يعلمها إلّا الله. ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي: مِن أوعيتها، / جمعُ "كِمّ" بالكسر؛ [٤٧و]
وهو وِعاء الثمرة كجِفّ الطَّلعة. وقُرئ: "مِن ثَمَرَةٍ"[٦] على إرادة الجنس،

---

[١] س - ﴿مُرِيبٖ﴾.

[٢] س: وتعميم.

[٣] ذكره مع الوجه الأوّل البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٣/٥.

[٤] س + وتعالى.

[٥] في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣؛ الأنفال، ٥١/٨].

[٦] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وتُرسم بالتاء المبسوطة على القراءتين، ويُوقف عليها بالتاء. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣٠/٢.

والجمعُ لاختلاف الأنواع. وقد قُرئ بجمعِ الضمير أيضًا،[١] و﴿مَا﴾ نافية، و﴿مِن﴾ الأولى مَزيدة للاستغراق، واحتمالُ أَن تكون موصولةً معطوفةً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ و﴿مِن﴾ مبيِّنة[٢] بعيد.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: حَملَها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما يحدث شيء مِن خروجِ ثمرةٍ ولا حملِ حاملٍ ولا وضعِ واضعٍ ملابسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملابسًا بعلمه المحيط.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: بزعمكم، كما نَصّ عليه في قوله تعالى: ﴿نَادُوا۟[٣] شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف، ٥٢/١٨]. وفيه تهكّم بهم، وتقريع لهم. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخَّر قد تُرك إيذانًا بقُصور البيان عنه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥].

﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أخبرناكَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ مِن أحد يشهد لهم بالشركة؛ إذ تبرَّأنا منهم لِما عاينَّا الحال، وما منّا أحدٌ إلّا هو موحِّد لك، أو ما منّا مِن أحدٍ يشاهدهم؛ لأنّهم ضلّوا عنهم حينئذ. وقيل: هو قول الشركاء، أي: ما منّا مِن شهيد يشهد لهم بأنّهم كانوا محقّين. وقولهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إمّا لأنّ هذا التوبيخ مَسبوق بتوبيخ آخر مُجابٌ بهذا الجواب، أو لأنّ معناه: إنّك علمتَ مِن قلوبنا وعقائدنا الآن أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنّه إذا علمه مِن نفوسهم فكأنّهم أعلموه، أو لأنّ معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: غابوا عنهم، أو ظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغَيبتهم. ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مَهرب. والظنّ معلّق عنه بحرف النفي.

---

١ أي: "مِنْ أَكْمَامِهِنَّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٢ ذكَر هذا الاحتمال البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٤/٥.

٣ م س ي: أين. | وهي في سورة القصص: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص، ٦٢/٢٨].

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: لا يَمَلُّ ولا يَفْتُر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ مِن طلب السَّعة في النعمة وأسباب المعيشة. وقُرِئَ: "مِن دُعَاءٍ بِالخَيرِ".[١]

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: العُسر والضيقة، ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فيه مبالغة مِن جهة البناء، ومِن جهة التكرير، ومِن جهة أنّ القُنوط عبارة عن يأس مُفرِط يَظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر، أي: مبالِغ في قطع الرجاء مِن فضل الله تعالى ورحمته. وهذا وصف للجنس بوصفِ غالبِ أفراده، لِما أنّ اليأس مِن رحمته تعالى لا يتأتّى إلّا مِن الكافر، وسيُصَرَّحُ به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: حقّي أستحقّه لِما لِي مِن الفضل والعمل، أو لي لا لغيري، فلا يزول عنّي أبدًا، / ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم فيما سيأتي، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ على تقدير [٤٧ظ] قيامها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لَلحالةَ الحسنى مِن الكرامة؛ وذلك لاعتقاده أنّ ما أصابه مِن نِعم الدنيا لاستحقاقه له، وأنّ نِعم الآخرةِ كذلك.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنُعلِمنّهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقيّة، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس، ٢٣/١٠] مِن سورة يونس. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يقادَر قدرُه ولا يُبلَغ كُنهُه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤؛ ومعاني القرآن للفرّاء، ٢٠/٣.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ أي: عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ذهبَ بنفسه وتباعد بكلّيّته تكبّرًا وتعظّمًا. والجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٦]. ويجوز أن يُراد به عِطفُه، ويكون عبارةً عن الانحراف والازْوِرار كما قالوا: "ثَنى عِطفَه وتولّى برُكْنِه".

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير. مستعار ممّا له عَرض متّسِع للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ مِن الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنّك بطوله؟ ولعلّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط، أو شأن الكلّ في بعض الأوْقات.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: مَن أضَلُّ منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلًا لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدّالّةَ على حقّيّته وكونه مِن عند الله ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ هو ما أخبرهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسّر الله تعالى له ولخُلفائه مِن الفتوح والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاءِ على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارقٍ للعادة. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هو ما ظهر فيما بين أهل مكّة وما حلّ بِهِمْ.

وَقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية وآثارهم، ﴿وَفِىٓ / أَنفُسِهِمْ﴾ يومَ بدر».[1] وقال مجاهد والحسَن والسدّي: «﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ [٤٨و]

١ كأنّ في الكلام سقطًا، ففي الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٠٠؛ واللباب لابن عادل، ١٧/١٥٨: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلاء والأمراض». وقال قتادة: «يعني: وقائع الله تعالى في الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر».

ما يفتح الله مِن القرى عليه عليه السلام والمسلمين، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة».[١]

وقيل:[٢] ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: في أقطار السماوات والأرض مِن الشمس والقمر والنجوم، وما يترتّب عليها مِن الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات، ومِن النبات والأشجار والأنهار، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن لطيف الصنعة وبديعِ الحكمة في تكوين الأجِنّة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات، ٢١/٥١]. وَاعْتُذِرَ بأنّ معنى السين -مع أنّ إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك- أنّه تعالى سيُطلِعُهم على تلك الآيات زمانًا فزمانًا، ويزيدهم وقوفًا على حقائقها يومًا فيومًا ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ بذلك ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو الإسلام والتوحيد.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على تردّدهم في شأن القرآن، وعنادِهم المُحوِجِ إلى إراءة الآيات وعدمِ اكتفائهم بإخباره تعالى. و"الهمزة" للإنكار. و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألَم يُغْنِ ولَمْ يكفِ ربّك؟ و"الباء" مزيدة للتأكيد، ولا يكاد يزاد إلّا مع "كفى". وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، أي: ألم يُغْنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيّنة لحقّيّة القرآن ولم يكفِهم في ذلك أنه تعالَى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنّه مِن عنده؟

وقيل: معناه: أنّ هذا الموعود مِن إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبيّنون عند ذلك أنّ القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كلّ شيء شهيدٌ، أي: مطَّلع يستوي عنده غَيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا على أنّه حقّ، وأنّه مِن عنده، ولو لم يكن كذلك لَما قوي هذه القوّة، ولَما نُصِر حامِلوه هذه النُّصرةَ، فتأمّل.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "أوَلم يكفِكَ أنّه تعالى على كلّ شيء شهيدٌ محقِّق له، فيحقِّقُ / أمرَكَ بإظهار الآيات الموعودة كما حقّق سائر الأشياء الموعودة؟"[٣] [٤٨ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥٨/١٧.

٢ وفي هامش م س: قاله عطاء وابن زيد.[(١)] «منه».

| [(١)] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٩/٧.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٥/٥.

-فمَع إشعاره بما لا يليق بجلالة مَنصبه عليه السلام مِن التردّد فيما ذُكر مِن تحقيق الموعود- يردّه قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: في شكّ عظيم مِن ذلك بالبعث والجزاء، فإنّه صريح في أنّ عدم الكفاية معتَبر بالنسبة إليهم. وقُرئ: "مُرْيَةٍ" بالضمّ،[1] وهي لغة فيها.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ عالم بجميع الأشياء جُمَلِها وتفاصيلها، وظواهرها وبواطنها، فلا يخفَى عليه خافية منهم، وهو مُجازيهم على كفرهم ومِريتِهم لا محالةَ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة السجدة[2] أعطاه الله تعالى بكلّ حرف عشرَ حسنات».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم يذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤.

[2] يعني: سورة فصّلت. انظر أوّل السورة.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٥. قال الخطيب الشربيني: «حديث موضوع». السراج المنير للشربيني، ٥٢٦/٣.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

وتسمَّى سورة السجدة، وسورة (حمٓ) السجدة، وسورة المصابيح، وسورة الأقوات.

وهي مكية بلا خلافٍ، ولم أقف فيها على استثناء.

وعدد آياتها ـ كما قال الداني ـ خمسون وآيتان بصريٌّ وشاميٌّ، وثلاثٌ مكيٌّ ومدنيٌّ، وأربعٌ كوفيٌّ[1].

ومناسبتُها لِما قبلها أنه سبحانه ذكر قبلُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [غافر: ٨٢] وكان ذلك متضمِّناً تهديداً وتقريعاً لقريش، وذكر جلَّ شأنه هنا نوعاً آخر من التهديد والتقريع لهم، وخصَّهم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] ثم بيَّن سبحانه كيفية إهلاكهم، وفيه نوعُ بيانٍ لِما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ الآية [غافر: ٨٢]، وبينهما أوجهٌ من المناسبة غير ما ذُكر.

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الخليل بن مرَّة أنَّ رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «تبارك» و«حم السجدة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ①﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو إمَّا خبرٌ لمحذوفٍ، أو مبتدأ

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن ص٢٢٠.

(٢) شعب الإيمان (٢٤٧٩)، وإسناده منقطع كما قال البيهقي. والخليل بن مُرَّة توفي سنة (١٦٠هـ). وينظر ما سلف ص٧ من هذا الجزء.

خبرُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾ على المبالغة أو التأويلِ المشهور، وهو على الأول خبرٌ بعد خبرٍ، وخبرُ مبتدأ محذوفٍ ـ إن جُعل «حم» مسروداً على نمط التعديد ـ عند الفرَّاء[1]، وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ من تتمَّته مؤكِّدٌ لِما أفاده التنوين من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أو خبرٌ آخرُ للمبتدأ المحذوف.

أو «تنزيل» مبتدأٌ لتخصُّصه بما بعده، خبرُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾، وحُكي ذلك عن الزجَّاج والحوفي[2]، وهو على الأوجُهِ الأُوَل بدلٌ منه، أو خبرٌ آخرُ، أو خبرٌ لمحذوف.

وجملةُ[3] ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ على جميع الأوجُه في موضع الصفة لـ «كتاب».

وإضافةُ التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» من بين أسمائه تعالى للإيذان بأنَّه مدارٌ للمصالح الدينية والدنيوية واقعٌ بمقتضى الرحمة الربانية حسبما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وتفصيل آياته: تمييزُها لفظاً بفواصلها ومقاطعها ومبادي السور وخواتمها، ومعنًى بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً إلى غيرِ ذلك، بل مَن أنصف عَلِم أنَّه ليس في بدء الخلق كتابٌ اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينِة عبارةً وإشارةً مثل ما في القرآن.

وعن السديِّ: «فصِّلت آياته» أي: بُيِّنت؛ ففُصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعده ووعيده. وقال الحسن: فصِّلت بالوعد والوعيد. وقال سفيان: بالثواب والعقاب.

وما ذكرنا أولاً أعمُّ، ولعلَّ ما ذكروه من باب التمثيل لا الحصر.

وقيل: المراد: فصِّلت آياتُه في التنزيل، أي: لم تُنزَّل جملةً واحدةً. وليس بذاك.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤. وينظر الكشاف ٣/ ٤٤١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧٩، والكلام من البحر ٧/ ٤٨٣. وورد هنا في هامش الأصل ما نصُّه: وجوَّز أبو البقاء أن يكون «كتابٌ» مرفوعاً بـ «تنزيل»، أي: نُزِّل كتابٌ. اهـ منه. وكلام أبي البقاء في الإملاء ٤/ ٢٧٨.
(٣) قوله: وجملة، ليس في الأصل.

وقرئ: «فَصَلت» بفتح الفاء والصاد مخفَّفةً، أي: فَرَقت بين الحقِّ والباطل[١]. وقال ابن زيد: بين النبيِّ ﷺ ومَن خالفه[٢]، على أنَّ «فَصَل» متعدٍّ. أو: فَصَل بعضُها من بعضٍ باختلاف الفواصل والمعاني، على أنَّ فَصَل لازمٌ بمعنى انفصل كما في قوله تعالى: ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤].

وقرئ: «فُصِلت» بضمِّ الفاء وكسر الصاد مخفَّفةً[٣]، على أنه مبنيٌّ للمفعول، والمعنى على ما مرَّ.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصبٌ على المدح، بتقدير: أعني، أو: أمدح، أو نحوه، أو على الحال، فقيل: من «كتاب» لتخصصه بالصفة. وقيل: من «آياته». وجوِّز في هذه الحال أن تكون مؤكِّدة لنفسها، وأن تكون موطِّئةً للحال بعدها.

وقيل: نصبٌ على المصدر، أي: يقرؤه قرآناً.

وقال الأخفش[٤]: هو مفعولٌ ثانٍ لـ «فُصِّلت»، وهو كما ترى إن لم تكن أخفش.

وأيًّاما كان ففي «قرآناً عربيًّا» امتنانٌ بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسانِ مَن نزل بين أظهرهم.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي: معانيَه لكونه على لسانهم، على أنَّ المفعول محذوفٌ، أو: لأهل العلم والنظر، على أنَّ الفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم.

ولام «لقومٍ» تعليليةٌ، أو اختصاصيةٌ، وخصَّهم بذلك لأنَّهم هم المنتفعون به، والجارُّ والمجرورُ إما في موضع صفةٍ أخرى لـ «قرآناً»، أو صلةٌ لـ «تنزيل» أو لـ «فُصِّلت»، قال الزمخشريُّ: والأجود[٥] أن يكونَ صفةً مثل ما قبله وما بعده، أي: قرآناً عربيًّا كائناً لقومٍ عربٍ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١، والبحر ٧/ ٤٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٦٨.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.

(٤) كما في البحر ٧/ ٤٨٣.

(٥) تحرفت في الأصل و(م) إلى: لا يجوز. والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٤١، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.

ولعله أراد: لئلا يلزم التفريق بين الصفة وهي قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وموصوفِها وهو «قرآناً» ـ بناءً على أنَّه صفةٌ ـ بالصلة وهي «القوم» على تقدير تعلُّقه بـ «تنزيل» أو بـ «فصِّلت»، وبين الصلة وموصولها بالصفة، أي: «تنزيل» أو «فصِّلت» و«القوم». والجمع[1] للمبالغة على حدِّ قولك لمن يفرق بين أخوين: لا تفعل، فإنَّ التفريقَ بين الإِخْوان مذمومٌ.

أو أراد: لئلا يفرق بين الصلتين في الحكم مع عدم المُوجِب للتفريق، وهو أن يتصل «من الرحمن» بموصوله، ولا يتصل «القوم»، وكذلك بين الصفتين، وهو «عربيًّا» بموصوفه، ولا يتصل «بشيراً»، والجمعُ لذلك أيضاً.

واختار أبو حيان كونَ الجارِّ والمجرور صلةَ «فصِّلت»، وقال: يبعُد تعلُّقه بـ «تنزيل» لكونه وصف قبل أَخْذِ متعلَّقه إن كان «من الرحمن» في موضع الصفة، أو أبدل منه «كتابٌ» أو كان خبراً لـ «تنزيل»، فيكون في ذلك البدلُ من الموصول أو الإخبارُ عنه قبل أَخْذِه متعلَّقَه، وهو لا يجوز[2]. ولعلَّ ذلك غيرُ مجمَعٍ عليه.

وكون «بشيراً» صفةَ «قرآناً» هو المشهور، وجوِّز أن يكونَ مع ما عُطف عليه حالاً من «كتاب» أو من «آياته».

وقرأ زيد بن عليٍّ: «بشيرٌ ونذيرٌ» برفعهما[3]، وهي رواية شاذَّةٌ عن نافع[4]، على الوصفيَّة لـ «كتاب»، أو الخبريَّة لمحذوفٍ، أي: هو بشيرٌ لأهل الطاعة ونذيرٌ لأهل المعصية.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبُّره وقبوله، والضميرُ للقوم على المعنى الأول لـ «يعلمون»، وللكفار المذكورين حكماً على المعنى الثاني، ويجوز أن يكونَ للقوم عليه أيضاً بأن يرادَ به ما من شأنهم العلمُ والنظرُ.

---

(١) أي: في قول الزمخشري: بين الصلات والصفات.

(٢) البحر ٧/ ٤٨٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾ أي: لا يقبلون ولا يُطيعون، من قولك: تشفَّعتُ إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لمَّا لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه، هو مجازٌ مشهور.

وفي «الكشف» أنَّ قولَه تعالى: «فأعرض» مقابلَ قوله تعالى: «لقوم يعلمون»، وقولُه سبحانه: «فهم لا يسمعون» مقابلَ قوله جلَّ شأنه: «بشيراً ونذيراً»، أي: أنكروا إعجازَه والإذعانَ له مع العلم، ولم يقبلوا بشائرَه ونُذُرَه لعدم التدبُّر.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله تعالى وحدَه وتركِ ما ألفينا عليه آباءَنا، و«من» على ما في «البحر» لابتداء الغاية.

﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ، وأصلُه: الثِّقَلُ. وقرأ طلحةُ بكسر الواو[١]، وقرئ بفتح القاف[٢].

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظٌ يمنعنا عن التواصل، و«من» للدلالة على أنَّ الحجابَ مبتدأٌ من الجانبين بحيث استوعَبَ ما بينهما من المسافة المتوسطة، ولم يبقَ ثمة فراغٌ أصلاً.

وتوضيحُه أنَّ البَيْنَ بمعنى الوسْط بالسكون، وإذا قيل: بينَنا وبينَك حجابٌ، صدق على حجابٍ كائنٍ بينهما، استوعَبَ أو لا، وأما إذا قيل: مِن بيننا، فيدلُّ على أنَّ مبتدأَ الحجاب من الوسْط، أعني طرفَه الذي يلي المتكلِّم، فسواءٌ أعيد «من» أو لم يُعَدْ يكون الطرفُ الآخَرُ منتهًى باعتبارٍ ومبتدأً باعتبارٍ، فيكون الظاهرُ الاستيعابَ؛ لأنَّ جميعَ الجهة ـ أعني البينَ ـ جُعِل مبتدأَ الحجاب فالمنتهَى غيرُه ألبتة، وهذا كافٍ في الفرق بين الصورتين، كيف وقد أعيد البينُ لاستئنافِ الابتداء من تلك الجهة أيضاً، إذ لو قيل: ومن بيننا حجاب[٣] بتغليب المتكلِّم لكفى. ثم ضرورة العطف على نحو: بيني وبينك ـ إن سُلِّمت ـ لا تُنافي إرادةَ الإعادة له، فتدبَّر.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٨٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٣.

(٣) كلمة: حجاب، سقطت من (م).

وما ذكروه من الجمل الثلاث تمثيلاتٌ لنَبْوِ قلوبهم عن إدراك الحقِّ وقبوله، ومجِّ أسماعهم له، وامتناع مُواصلَتِهم وموافقَتِهم للرسول ﷺ، وأرادوا بذلك إقناطَه عليه الصلاة والسلام عن اتِّباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يَدْعوهم إلى الصراط المستقيم.

وذكر أبو حيان[1] أنَّه لَمَّا كان القلبُ محلَّ المعرفة والسمعُ والبصرُ مُعِينان على تحصيل المعارف ذَكَرُوا أنَّ هذه الثلاثةَ محجوبةٌ عن أن يصلَ إليها مما يُلقيه الرسول ﷺ شيءٌ.

ولم يقولوا: على قلوبنا أكنةٌ، كما قالوا: «وفي آذاننا وقر»؛ ليكون الكلامُ على نَمَطٍ واحدٍ في جعل القلوب والآذان مستقَرَّ الأكنَّةِ والوقرِ، وإن كان أحدُهما استقرارَ استعلاءٍ، والثاني استقرارَ احتواءٍ، إذ لا فرقَ في المعنى بينَ: قلوبُنا في أكنَّةٍ، و: على قلوبنا أكنَّةٌ، والدليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة، لم يختلف المعنى، فالمطابقةُ حاصلةٌ من حيث المعنى، والمطابيعُ من العربِ لا يُراعُون الطباقَ والملاحظةَ إلا في المعاني. واختصاصُ كلٍّ مِن العبارتين بموضعه للتفنُّنِ، على أنَّه لَمَّا كان منسوباً إلى الله تعالى في سورة بني إسرائيل[2] والكهف كان معنى الاستعلاءِ والقهرِ أنسبَ، وهاهنا لَمَّا كان حكايةً عن مقالهم كان معنى الاحتواء أقرب. كذا حقَّقه بعض الأجلَّة ودغدغ فيه.

وتفسير الأكنَّة بالأغطية هو الذي عليه جمهورُ المفسِّرين، فهي جمعُ كنانٍ كغطاء لفظاً ومعنًى.

وقيل: هي ما يُجعَل فيها السهام؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ قالوا: كالجَعْبة للنَّبْل[3].

﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك، وقيل: في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ على ديننا،

(١) في البحر ٧/ ٤٨٤.
(٢) الآية (٤٦).
(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.

وقيل: في إبطال أمرك. والكلامُ على الأول متاركةٌ وتقنيطٌ عن اتّباعه عليه الصلاة والسلام، ومقصودُهم: «إنّنا عاملون»، والأول توطئةٌ له، وحاصلُ المعنى: إنّا لا نترك دينَنا بل نثبُت عليه كما تَثبُت على دينك. وعلى الثاني هو مبارزةٌ بالخلاف والجدال.

وقائلُ ما ذُكر أبو جهل ومعه جماعةٌ من قريش، ففي خبرٍ أخرجه أبو سهل السريُّ من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما أنه قال في الآية: أقبلت قريشٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ما يمنَعُكم من الإسلام فتَسُودوا العرب؟» فقالوا: يا محمد، ما نفقَهُ ما تقول ولا نسمعه، وإنَّ على قلوبنا لغُلُفاً. وأخذ أبو جهل ثوباً فمدَّه فيما بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، قلوبُنا في أكنَّةٍ مما تَدْعونا إليه، وفي آذاننا وقرٌ، ومن بيننا وبينك حجابٌ.

وفيه: فلمَّا كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا محمد، اِعْرِضْ علينا الإسلام، فلمَّا عرض عليهم الإسلامَ أسلموا عن آخرهم، فتبسَّم النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقال: «الحمد لله، بالأمس تزعُمون أنَّ على قلوبكم غُلفاً، وقلوبُكم في أكنَّةٍ مما أدعوكم إليه، وفي آذانِكم وقراً، وأصبحتم اليومَ مسلمين». فقالوا: يا رسول الله، كذبنا والله بالأمس، لو كان كذلك ما اهتدينا أبداً، ولكن الله تعالى الصادقُ، والعبادُ الكاذبون عليه، وهو الغنيُّ ونحن الفقراء إليه[1].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لستُ ملَكاً ولا جِنيًّا لا يمكنكم التلقِّي منه، وهو ردٌّ لقولهم: «بيننا وبينك حجاب».

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلَّت عليه دلائلُ العقل، وشهدت له شواهد السمع، وهذا جوابٌ عن قولهم: «قلوبُنا في أكنَّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر».

---

(١) عزاه لأبي سهل السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فاستوُوا إليه تعالى بالتوحيد وإخلاص العبادة، ولا تتمسَّكوا بعُرى الشرك، وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد: قلوبنا في أكنة.. إلخ.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما سلف منكم من القول والعمل.

وهذا وجهٌ لا يخلو عن حسنٍ في ربط الأمر بما قبله، وفي «إرشاد العقل السليم»: أي: لستُ من جنسٍ مغايرٍ لكم حتى يكونَ بيني وبينكم حجابٌ وتباينٌ مصحِّحٌ لتبايُنِ الأعمال والأديان كما يُنبئ عنه قولُكم: «فاعمَلْ إنَّنا عامِلون»، بل إنما أنا بشرٌ مثلكم مأمورٌ بما آمُرُكم به، حيث أُخبِرْنا جميعاً بالتوحيد بخطابٍ جامعٍ بيني وبينكم، فإنَّ الخطابَ في «إلهكم» محكيٌّ منتظِم للكلِّ، لا أنَّه خطابٌ منه عليه الصلاة والسلام للكَفَرة كما في «مثلكم»[1]. وهو مبنيٌّ على اختيار الوجه الأول في «فاعْمَل إنَّنا عاملون»، ولا بأسَ به من هذه الجهة، نعم فيه قصورٌ من جهة أخرى.

وقال صاحب «الفرائد»: ليس هذا جواباً لقولهم، إذ لا يقتضي أن يكونَ له جوابٌ، وحاصلُه: لا تترُكْهم وما يدينون لقولِهم ذلك المقصودِ منه أن تتركهم، سلَّمْنا أنه جوابٌ لكنَّ المرادَ منه: إني بشرٌ فلا أقدِر أن أُخرِجَ قلوبَكم من الأكنَّةِ، وأرفعَ الحجابَ من البين، والوقرَ من الآذان، ولكنِّي أُوحِيَ إليَّ وأُمرْتُ بتبليغِ: «أنَّما إلهُكم إلهٌ واحِد».

وللإمام كلامٌ قريبٌ مما ذكر في حيِّز التسليم[2]، وكلا الكلامين غيرُ وافٍ بجزالة النظم الكريم، وجعله الزمخشريُّ[3] جواباً من أنَّ المشركين طالما يتمسَّكون في ردِّ النبوة بأنَّ مُدَّعيها بشرٌ، ويجب أن يكون ملَكاً، ولا يجوز أن يكونَ بشراً، ولذا لا يُصغُون إلى قول الرسول ولا يتفكَّرون فيه، فقوله عليه الصلاة والسلام: إنِّي لستُ بملَكٍ وإنَّما أنا بشرٌ، من باب القلب عليهم، لا القول بالموجب ولا من الأسلوب الحكيم في شيء كما قيل، كأنه ﷺ قال: ما تمسَّكتم به في ردِّ نبوَّتي من

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٣.
(٢) ينظر التفسير الكبير ٢٧/ ٩٨.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٤٣.

أنِّي بشرٌ هو الذي يصحِّح نبوَّتي، إذ لا يحسُن في الحكمة أن يُرسَل إليكم الملكُ، فهذا يُوجِب قبولَكم، لا الردَّ والغلوَّ في الإعراض.

وقوله: «يوحى إلي أنما إلهكم» تمهيدٌ للمقصود من البعثة بعد إثبات النبوَّة أولاً مفصَّلاً بقوله تعالى: (حمٓ) الآيات، ومجمَلاً ثانياً بقوله: «يوحى إلي»، ثم قيل: «أنَّما إلهكم» بياناً للمقصود، فقوله: «يوحى إليَّ» مسوقٌ للتمهيد، وفيه رمزٌ إلى إثبات النبوَّة، وهذا المعنى على القول بأنَّ المرادَ من «فاعمل» إلخ: فاعمل في إبطال أمرنا إنَّنا عاملون في إبطال أمرك = ظاهرٌ، وأما على القول الأول فوجهُه أنَّ الدينَ هو جملةُ ما يلتزمه المبعوثُ إليه من طاعة الباعث تعالى بوساطة تبليغ المبعوث، فهو مسبَّب عن نبوَّته المسبَّبة عن دليلها، فأظهروا بذلك أنَّهم منقادون لِما قَرَّر لديهم آباؤُهم من منافاة النبوَّة للبشرية، وأنَّه دينُهم، فقيل لهم ما قيل، وهو على هذا الوجه أكثرُ طباقاً وأبلغُ.

وهذا حَسَنٌ دقيقٌ، وما ذُكر أولاً أسرعُ تبادراً.

وفي «الكشف» أنَّ «قل إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحى إليَّ» في مقابلة إنكارِهم الإعجازَ والنبوَّةَ، وقولُه: «فاستقيموا» يقابل عدمَ القبول، وفيه رمزٌ إلى شيء مما سمعتَ، فتأمَّل.

وقرأ ابن وثاب والأعمش: «قال إنَّما» فعلاً ماضياً[1].

وقرأ النخعي والأعمش «يُوحِي» بكسر الحاء[2]، على أنه مبنيٌّ للفاعل، أي: يُوحِي الله إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحِد.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ من شركهم بربِّهم عزَّ وجلَّ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ مبتدأ وخبرٌ، فـ«هم» الثاني ضميرُ فصل، و«بالآخرة» متعلقٌ

(١) البحر ٧/ ٤٨٤.
(٢) المصدر السابق.

بـ «كافرون»، والتقديمُ للاهتمام ورعايةِ الفاصلة، والجملةُ حالٌ مُشعِرةٌ بأنَّ امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في الدنيا وإنكارهم للآخرة.

وحملُ الزكاة على معناها الشرعيِّ مما قاله ابن السائب، ورُوي عن قتادة والحسن والضحاك ومقاتل.

وقيل: الزكاة بالمعنى اللغويِّ، أي: لا يفعلون ما يُزكِّي أنفسَهم، وهو الإيمان والطاعة. وعن مجاهد والربيع: لا يُزكُّون أعمالَهم[١]. وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس أنَّه قال في ذلك: أي: لا يقولون: لا إله إلَّا الله[٢]. وكذا الحكيم الترمذيُّ وغيرُه عن عكرمة[٣]، فالمعنى حينئذٍ: لا يطهِّرون أنفسَهم من الشرك.

واختار ذلك الطيبيُّ، قال: والمعنى عليه: فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له تعالى، وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك، وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كلَّه. فوُضِع موضعَه منعُ إيتاء الزكاة ليُؤذن بأنَّ الاستقامةَ على التوحيد وإخلاصَ العمل لله تعالى والتبرِّي عن الشرك هو تزكيةُ النفس، وهو أوفقُ لتأليف النظم، وما ذهب إليه حبرُ الأمة إلا لمراعاة النظم. وجَعَل قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ أي: غير مقطوع، مذكوراً على جهة الاستطراد تعريضاً بالمشركين وأنَّ نصيبَهم مقطوعٌ حيث لم يُزكُّوا أنفسَهم كما زَكَّوا، واستدَلَّ على الاستطراد بالآية بعدُ.

وفي «الكشف»: القولُ الأول أظهرُ، والمشركون باقٍ على عمومه، لا من باب إقامة الظاهر مقام المضمَر كهذا القول، وأنَّ الجملةَ معترضةٌ كالتعليل لِمَا أمرهم به، وكذلك «إنَّ الذين آمنوا» الآية؛ لأنَّه بمنزلة: وويلٌ للمشركين وطُوبى للمؤمنين، وفيهما من التحذير والترغيبِ ما يؤكِّد أنَّ الأمر[٤] بالإيمان والاستقامةِ تأكيداً لا يخفى

(١) زاد المسير ٧/ ٢٤٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٩، والأسماء والصفات للبيهقي (٢٠٥).
(٣) نوادر الأصول ص٣٤٢ دون نسبة، وعزاه له ولعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.
(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أن في الأمرِ.

حاله على ذي لبٍّ، وكذلك الزكاةُ فيه على الظاهر، وخُصَّ من بين أوصاف الكَفَرة منعُها لِما أنَّها معيارٌ على الإيمان المستكنِّ في القلب، كيف وقد قيل: المالُ شقيقُ الروح، بل قال بعضُ الأدباء:

وقالوا شقيقُ الروح مالُك، فاحتَفِظْ به فأجَبْتُ المالُ خيرٌ مِنَ الرُّوْح
أرى حِفْظَه يَقْضِي بتحسينِ حَالَتي وتَضْيِيعُه يُفْضِي لتَسْآل مَقْبُوحِ[1]

والصرفُ عن الحقيقة الشرعية الشائعةِ من غيرِ مُوجبٍ لا يجوز، كيف ومعنى الإيتاء لا يَقِرُّ قراره، نعم لو كان بدله: يأتون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤] لحَسُن.

لا يقال: إنَّ الزكاةَ فُرضت بالمدينة والسورةُ مكية. لأنا نقول: إطلاقُ الاسم على طائفةٍ مخرَجةٍ من المال على وجهٍ من القربة مخصوصٍ كان شائعاً قبل فرضيتها بدليل شعر أمية بن أبي الصلت:

... الفاعلون للزكوات[2]

على أنَّ هذا الحقَّ على هذا الوجه المعروف فُرِض بالمدينة، وقد كان في مكة فرضُ شيءٍ من المال يُخرَج إلى المستحقِّ لا على هذا الوجه، وكان يسمَّى زكاةً أيضاً، ثم نسخ. انتهى.

ومنه يُعلَم سقوطُ ما قاله الطيبي. بقي مخالفةُ الحبر وهي لا تتحقَّق إلا إذا تحقَّقت الروايةُ عنه، وبعده الأمرُ أيضاً سهلٌ، ولعلَّه ﷺ كان يقرأ: «لا يَأْتُونَ» من الإتيان، إذ القراءةُ المشهورةُ تأبى ذلك إلا بتأويلٍ بعيدٍ، والعَجَبُ نسبةُ ما ذُكر عن الحبر في «البحر»[3] إلى الجمهور أيضاً، وحملُ الآية على ذلك مخلَصُ بعضٍ ممن لا يقول بتكليف الكفار بالفروع، لكن لا يخفى حالُ الحمل، وهي على المعنى

(١) لم نقف على قائل البيتين، وهما في البحر ٧/ ٤٨٥.
(٢) ديوان أمية ص٣٠، وسلف ١٨/ ١٤. وتمامه:
المطعمون الطعام في السنة الأز مة والفاعلون للزكوات
(٣) ٧/ ٤٨٤.

المتبادر دليلٌ عليه، وممن لا يقول به قال: هم مكلَّفون باعتقاد حقِّيَّتها دون إيقاعها، والتكليفُ به بعد الإيمان، فمعنى الآية: لا يؤتون الزكاةَ بعدَ الإيمان. وقيل: المعنى: لا يُقرُّون بفرضيتها. والقولُ بتكليف المجنون أقربُ من هذا التأويل.

وقيل: كلمةُ «وَيْل» تدلُّ على الذمِّ لا التكليفِ، وهو مذمومٌ عقلاً. وفيه بحثٌ لا يخفى.

هذا وقيل في «ممنون»: لا يمُنُّ به عليهم، من المنِّ بمعنى تعداد النعم، وأصلُ معناه الثِّقَلُ، فأُطلِق على ذلك لِثِقَله على الممنون عليه، وعن ابن عباس تفسيرُه بالمنقوص[1]، وأنشدوا لذي الإصبع العدواني:

إنِّي لعمرُك ما بابي بذي غَلَقٍ عن الصَّدِيق ولا زادِي بِمَمْنُونِ[2]

والآية على ما رُوي عن السدِّي نزلت في المَرْضَى والهَرْمَى؛ إذا عجزوا عن كمال الطاعات كُتِب لهم من الأجر في المرض والهرم مثلُ الذي كان يُكتَب لهم وهم أصِحَّاء وشُبَّان، ولا تَنقُص أجورُهم[3]، وذلك من عظيم كرم الله تعالى ورحمته عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى آخر الآيات، والكلامُ فيها كثيرٌ، ومنه ما ليس بالمشهور، ولنبدأ بما هو المشهورُ، وبعد التمام نذكر الآخرَ، فنقول:

هذا إنكارٌ وتشنيعٌ لكفرهم، و«إنَّ» واللام إمَّا لتأكيد الإنكار وتقديمُ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ، لا لإنكار التأكيد، وإمَّا للإشعار بأنَّ كفرَهم من البعد بحيث يُنكِر العقلاءُ وقوعَه فيحتاج إلى التأكيد. وعلَّق سبحانه كفرَهم بالموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظامِ كفرهم به عزَّ وجلَّ.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالأرض الجسمُ المعروف. وقيل: لعلَّ المرادَ منها ما في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

(٢) البيت في الأغاني ٣/ ١٠٥، والمفضليات ص١٦٠، وتفسير القرطبي ١٨/ ٣٩٣ والبحر ٧/ ٤٨٥. ورواية الجميع: ولا خير. دون: ولا زادي.

(٣) البحر ٧/ ٤٨٥.

جهة السفل من الأجرام الكثيفة واللطيفة من التراب والماء والهواء، تجوُّزاً باستعمالها في لازم المعنى ـ على ما قيل ـ بقرينة المقابَلة، وحُملت على ذلك لئلا يخلو الكلامُ عن التعرُّض لمدَّة خلقِ ما عدا التراب. ومن خَلْقِها[1] في يومين أنه سبحانه خَلَق لها أصلاً مشتركاً ثم خَلَق لها صُوَراً بها تنوَّعت إلى أنواع.

واليوم في المشهور عبارةٌ عن زمانِ كون الشمس فوقَ الأفق، وأريد منه هاهنا الوقت مطلَقاً؛ لأنه لا يتصوَّر ذلك قبلَ خلق السماء والكواكب والأرض نفسها. ثم إنَّ ذلك الوقت يحتمل أن يكونَ بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكونَ أقلَّ منه أو أكثر، والأقلُّ أنسبُ بالمقام، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ اليومين ظرفان لخَلْق الأرض مطلَقاً من غير توزيع.

وقال بعضُ الأجلة: إنه تعالى خَلَق أصلَها ومادَّتها في يومٍ، وصُوَرَها وطبقاتِها في آخر.

وقال في «إرشاد العقل السليم»: المراد بخلق الأرض تقديرُ وجودها، أي: حكم بأنها ستُوجَد في يومين[2]، مثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والمراد بكفرهم به تعالى إلحادُهم في ذاته سبحانه وصفاته عزَّ وجلَّ، وخروجُهم عن الحقِّ اللازم له جلَّ شأنه على عباده من توحيده واعتقادِ ما يليق بذاته وصفاته جلَّ جلاله، فلا ينزِّهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يُثبِتون له القدرةَ التامَّةَ والنعوتَ اللائقة به سبحانه وتعالى، ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسلَ وبَعْثِه سبحانه الأمواتَ، حتى كأنهم يزعمون أنه سبحانه خَلَقَ العبادَ عَبَثاً وتركهم سُدًى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ عطفٌ على «تَكْفُرون» داخلٌ معه في حكم الإنكار والتوبيخ، وجَعْلُه حالاً من الضمير في «خَلَقَ» لا يخفى حالُه، وجمعُ الأنداد باعتبارِ ما هو الواقعُ، لا بأن يكونَ مدارُ الإنكار هو التعدُّد، أي: وتجعلون

(١) قوله: ومن خلقها، عطف على «منها» في قوله: لعل المراد منها ما في جهة السّفل. .

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٤.

له تعالى أنداداً وأكفاء من الملائكة والجنِّ وغيرهم، والحالُ أنه لا يمكن أن يكونَ له سبحانه ندٌّ واحدٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في العظمة، وإفرادُ الكاف لِما أنَّ المرادَ ليس تعيينَ المخاطبين، وهو مبتدأ خبرُه ما بعده، أي: ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذُكر في مدةٍ يسيرةٍ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ أي: خالقُ جميع الموجودات ومربِّيها دون الأرض خاصَّةً، فكيف يُتصوَّر أن يكونَ شيءٌ من مخلوقاته ندًّا له عزَّ وجلَّ!

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ على ما اختاره غيرُ واحد عطفٌ على «خَلَقَ الأرضَ»، داخلٌ في حكم الصلة، ولا ضيرَ في الفصل بينهما بالجملتين المذكورتين؛ لأنَّ الأولى متَّحدةٌ بقوله تعالى: «تكفرون» بمنزلة إعادتها، والثانيةُ معترضةٌ مؤكِّدةٌ لمضمون الكلام، فالفصلُ بهما كَلَا فَصْلٍ، وفيه بلاغةٌ من حيث المعنى لدلالته على أنَّ المعطوفَ عليه - أي: «خَلَقَ الأرض» - كافٍ في كونه تعالى ربَّ العالمين، وأن لا يُجعَل له ندٌّ، فكيف إذا انضمَّت إليه هذه المعطوفات.

وتعقِّب بأنَّ الاتحادَ لا يخرِجه عن كونه فاصلاً مشوِّشاً للذهن مُورِثاً للتعقيد، فالحقُّ والأقربُ أن تُجعَل الواو اعتراضيةً وكلٌّ من الجملتين معترضٌ ليندفع بالاعتراض الاعتراضُ. أو يُجعَل ابتداءَ كلامٍ بناءً على أنه يُصدَّر بالواو. أو يقال: هو معطوفٌ على مقدَّر كـ «خلق».

واختار هذا الأخيرَ صاحبُ «الكشف» فقال: أَوْجَهُ ما ذُكر فيه أنه عطفٌ على مقدَّر بعدَ «رَبُّ العالمين»، أي: خَلَقَها وجَعَل فيها رواسي. فكأنه ساقَ قولَه تعالى: (خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) أوّلاً ردًّا عليهم في كفرهم، ثم ذكره ثانياً تتميماً للقصة وتأكيداً للإنكار، وليس سبيلُ قوله سبحانه: (ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) سبيلَ الاعتراض حتى تُجعلَ الجملة عطفاً على الصلة، ويُعتذَر عن تخلُّلِ «تَجْعَلُون» عَطْفاً على «تكفرون» باتحادِه بما قبلَه على أسلوبِ ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧] وذلك لأنه مقصودٌ لذاته في هذا المساق وهو ركنٌ للإنكار، مثل قوله تعالى: (الذي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ) وآكَدُ، على ما لا يخفى على ذي بصيرة.

والرواسي: الجبالُ، من «رسا»: إذا ثبت، والمرادُ بجعلها إبداعُها بالفعل، وفي «الإرشاد»: المرادُ تقديرُ الجعلِ لا الجعلُ بالفعل(١).

وقولُه تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «جَعَل»، أو بمحذوفٍ صفةٍ لـ «رواسي»، أي: كائنةً من فوقها، والضميرُ للأرض، وفي ذلك استخدام على ما قيل في المراد منها؛ لأنَّ الجبالَ فوقَ الأرض المعروفة، لا فوقَ جميع الأجسام السفلية والبسائطِ العنصرية.

وفائدةُ «من فوقها» الإشارةُ إلى أنها جُعلت مرتفعةً عليها لا تحتَها كالأساطين، ولا مغروزةً فيها كالمسامير؛ لتكونَ منافعُها مُعْرَضَةً(٢) لأهلها، ويظهَرَ للنظَّار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار. ولعمري إنَّ في ارتفاعها من الحِكَم التكوينية ما تدهَش منه العقولُ، والآية لا تأبى أن يكونَ في المغمور من الأرض في الماء جبالاً كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: كثَّر خيرَها، وفي «الإرشاد» قدَّر سبحانه أن يُكثِر خيرها بأن يكثر فيها أنواعَ النباتات وأنواعَ الحيوانات التي من جملتها الإنسان(٣).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: بيَّن كمِّيتها وأقدارها، وقال في «الإرشاد»: أي: حَكَمَ بالفعل بأن يوجَد ـ فيما سيأتي ـ لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتُها المناسبةُ لها على مقدارٍ معيَّنٍ تقتضيه الحكمةُ(٤). والكلامُ على تقدير مضاف.

وقيل: لا يحتاج إلى ذلك والإضافة لأدنى ملابسةٍ، وإليه يشير كلامُ السدِّي حيث قال: أضاف الأقواتَ إليها من حيث هي فيها وعنها برزت.

وفسَّر مجاهد الأقواتَ بالمطر والمياه(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٤.

(٢) قوله: معرضة، بوزن اسم المفعول من الإفعال، من أَعْرَضَه لك: إذا أظهره ومكَّنك من أخذه، أو من التفعيل وهو قريب منه معنًى. حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٠.

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/ ٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٦، والنكت والعيون ٥/ ١٧١.

وفي رواية أخرى عنه ـ وإليه ذهب عكرمة والضحاك ـ أنَّها ما خُصَّ به كلُّ إقليم من الملابس والمطاعم والنباتات؛ ليكونَ الناسُ محتاجين بعضهم لبعض، وهو مقتضٍ لعمارة الأرض وانتظام أمور العالم(١). ويؤيِّد هذا قراءةُ بعضهم: «وقسَّم فيها أقواتها»(٢).

﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلِّق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها على ما في «إرشاد العقل السليم»(٣)، والكلام على تقدير مضاف، أي: قدَّر حصولَها في تتمَّة أربعة أيام. وكان الزَّجاج(٤) يعلِّقه بـ «قَدَّر» كما هو رأي الإمام أبي حنيفة في القيد إذا وقع بعد متعاطفاتٍ، نحو: أكرمتُ زيداً وضربتُ عَمْراً ورأيت خالداً في الدار(٥). والشافعي يقول: المتعقِّب للجمل يعود إليها جميعاً(٦)؛ لأنَّ الأصل اشتراكُ المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات، فيكون القيدُ هنا عائداً إلى جعل الرواسي وما بعده، وهو الذي يتبادر إلى فهمي.

ولا بدَّ من تقدير المضاف الذي سمعتَ، وقد صرَّح الزجَّاجُ بتقديره، ولم يقدِّره الزمخشريُّ وجَعَل الجارَّ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: كلُّ ذلك من خلق الأرض وما بعده كائنٌ في أربعة أيام، على أنه فذْلَكة(٧)، أي: كلامٌ منقطع أُتي به لمجمَلِ ما ذُكر مفصّلاً، مأخوذةٌ من فذلكةِ الحساب وقولِهم: فذلِكَ كذا، بعد استقرار الجمعِ. فما نحن فيه أُلحِق فيه أيضاً جملةٌ من العدد بجملةٍ أخرى، وجَعْلُه كذلك لا يمنع عطفَ «جَعَلَ فيها رَواسِيَ» على مقدَّرٍ؛ لأنَّ الربط المعنويَّ كافٍ.

والقول بأنَّ الفذلكَة تقتضي التصريحَ بذكر الجملتين مثل أن يقال: سِرْتُ من البصرة إلى واسط في يومين، ومن واسط إلى الكوفة في يومين، فذلك أربعة أيام.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٧-٣٨٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٦.
(٢) وهي قراءة ابن مسعود كما في الكشاف ٣/ ٤٤٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٦.
(٣) ٨/ ٥.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٨٠-٣٨١.
(٥) سلفت المسألة ٢٢/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٦) ونقله عنه صاحب الإبهاج ٢/ ١٥٣.
(٧) الكشاف ٣/ ٤٤٤.

وهاهنا لم ينصَّ إلا على أحد المبلغين = غيرُ سديد؛ لأنَّ العلم بالمبلغين في تحقيق الفذلكة كافٍ، على أنَّ المراد أنه جارٍ مجراها.

وإنما لم يَجُز الحملُ على أنَّ جَعْل الرواسي وما ذُكِر عقيبَه أو تقديرَ الأقوات في أربعة أيام؛ لأنَّه يلزَم أن يكونَ خلقُ الأرض وما فيها في ستة أيام، وقد ذَكر بعده أنَّ خلق السماوات في يومين فيكون المجموع ثمانيةَ أيام، وقد تكرَّر في كتاب الله تعالى أنَّ خَلْقَهما ـ أعني السماوات والأرضَ ـ في ستة أيام.

وقُيِّدت الأيامُ الأربعة بقوله تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ فإنَّه مصدَر مؤكِّد لمضمَرٍ هو صفةٌ لـ «أيامٍ»، أي: استوَت سواءً، أي: استواءً، كما يدلُّ عليه قراءةُ زيد بن عليٍّ والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب: «سَواءٍ» بالجرِّ[1]، فإنَّه صريحٌ في الوصفية، وبذلك يضعُف القولُ بكونه حالاً من الضمير في «أَقْواتَها»، مع قلَّة الحال من المضاف إليه في غير الصور الثلاث، ولزوم تخالُفِ القراءتين في المعنى. ويُعلم من ذلك أنه على قراءة أبي جعفر بالرفع[2] يُجعَل خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: هي سواءٌ، وتُجعَل الجملةُ صفةً لـ «أيام» أيضاً لا حالاً من الضمير = لدفع التجوُّز[3] فإنَّه شائعٌ في مثل ذلك مطَّردٌ في عُرفَي العرب والعجم، فتراهم يقولون: فعلتُه في يومين. ويريدون في يوم ونصف مثلاً، و: سرتُ أربعةَ أيام. ويريدون ثلاثةً ونصفاً مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] فإنَّ المراد بالأشهر فيه شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة وليلةُ النحر. وذلك لأنَّ الزائد جُعل فرداً مجازاً، ثم أُطلِق على المجموع اسمُ العدد الكامل، فالمعنى هاهنا: في أربعة أيام لا نقصانَ فيها ولا زيادة، وكأنه لذلك أُوثِر ما في التنزيل على أن يقال: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين، كما قيل أولاً: «خلق الأرض في يومين». وحاصلُه أنه لو قيل ذلك لكان يجوز أن يرادَ باليومين الأوَّلين والأخيرين أكثرُهما.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦٦ عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٨٦.

(٢) النشر ٢/ ٣٦٦.

(٣) قوله: لدفع التجوز. . .، متعلق بقوله: وقيدت الأيام. . .

وإنما لم يقل: خَلَق الأرضَ في يومين كاملين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين كاملين. أو: خَلَق الأرضَ في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين، تلك أربعةٌ سواء. لأنَّ ما أورده سبحانه أخصرُ وأفصحُ وأحسنُ طباقاً لِمَا عليه التنزيلُ من مغاصات القرائح ومصاكِّ الرُّكَب ليتميَّز الفاضلُ من الناقص والمتقدِّمُ من الناكص، وترتفع الدرجاتُ وتتضاعف المثوبات.

وقال بعض الأجلة: إنَّ في النظم الجليل دلالةً ـ أي: مع الاختصار ـ على أنَّ اليومين الأخيرين متصلان باليومين الأوَّلين لتبادُره من جَعْلِهما جملةً واحدةً واتصالهما في الذكر.

وقوله تعالى: ﴿لِلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الحصرُ في أربعةٍ كائنٌ للسائلين عن مدَّة خَلْق الأرض وما فيها. ولا ضيرَ في توالي حذفِ مبتدأين، بناءً على ما آثره الزمخشريُّ في الجارِّ والمجرور قبل(١).

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «قَدَّرَ» السابق، أي: وقدَّر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وقيل: متعلِّقٌ بمقدَّرٍ هو حالٌ من الأقوات. والكلُّ لا يستقيم إلا على ما آثره الزجَّاج دون ما آثره الزمخشري، لأنَّ الفذلكةَ كما يُعلَم مما سبق لا تكون إلا بعد تمام الجملتين، فلا يجوز أن تتوسَّط بين الجملة الثانية وبعضِ متعلَّقاتها.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «سواءً» على أنه حالٌ من الضمير، والمعنى: مستويةً مهيَّأةً للمحتاجين.

أو به على قراءة الرفع وجَعْلِه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أي: أمرُ هذه المخلوقات ونفعُها ـ مستوٍ مهيأٌ للمحتاجين إليه من البشر. وهو كما ترى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ أي: قصد إليها وتوجَّه دون إرادة تأثيرٍ في غيرها، من قولهم: استوى إلى مكانِ كذا، إذا توجَّه إليه لا يَلْوي على غيره.

---

(١) سلف ص١٤٠.

وذكر الراغب[١] أنَّ الاستواءَ متى عُدِّي بـ «على» فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وإذا عدِّي بـ «إلى» فبمعنى الانتهاء إلى الشيء، إما بالذات أو بالتدبير، وعلى الثاني قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ) الآية.

وكلام السلف في الاستواء مشهورٌ، وقد ذكرنا فيما سلف طرفاً منه. ويُشعِر ظاهرُ كلام البعض أنَّ في الكلام مضافاً محذوفاً، أي: ثم استوى إلى خلق السماء.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظُلمانيٌّ، ولعلَّه أريد به مادَّتُها التي منها تركَّبت، وأنا لا أقول بالجواهر الفردة لقوَّة الأدلة على نفيها، ولا يلزم من ذلك محذورٌ أصلاً كما لا يخفى على الذكيِّ المُنصِف.

وقيل: إنَّ عرشَه تعالى كان قبل خَلْق السماوات والأرض على الماء، فأحدث الله تعالى في الماء سخونةً فارتفع زَبَدٌ ودخانٌ، فأمَّا الزَّبَد فبقي على وجه الماء، فخلق الله تعالى فيه اليبوسةَ وأحدث سبحانه منه الأرضَ، وأما الدخانُ فارتفع وعلا فخلق الله تعالى منه السماوات.

وقيل: كان هناك ياقوتةٌ حمراء فنظر سبحانه إليها بعين الجلال فذابت وصارت ماءً، فأَزْبَد وارتفع منه دخانٌ فكان ما كان.

وأيًّا ما كان فليس الدخانُ كائناً من النار التي هي إحدى العناصر؛ لأنها من توابعِ الأرض ولم تكن موجودة إذ ذاك على قولٍ، كما ستعرف إن شاء الله تعالى، وعلى القول بالوجود لم يذهب أحدٌ إلى تكوُّنِ ذلك من تلك النار، والحقُّ الذي ينبغي أن لا يُلتَفت إلى ما سواه أنَّ كرة النار التي يزعمها الفلاسفة المتقدِّمون ووافقهم كثيرٌ من الناس عليها ليست بموجودة، ولا توقُّفَ لحدوث الشُّهُب على وجودها، كما يظهر لذي ذهنٍ ثاقبٍ.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من المنافع، فليس المعنى على إتيانِ ذاتهما وإيجادهما، بل إتيانِ ما فيهما مما ذُكر بمعنى إظهارِه والأمر للتسخير، قيل:

(١) في المفردات (سوا).

ولا بدَّ على هذا أن يكون المترتِّبُ بعدُ(١) جَعْلَ السماوات سبعاً أو مضمون مجموع الجمل المذكورة بعد الفاء، وإلا فالأمرُ بالإتيان بهذا المعنى مترتِّبٌ على خلق الأرض والسماء.

وقال بعض: الكلامُ على التقديم والتأخير، والأصل: ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهنَّ سبعَ سماوات. . إلخ، فقال لها وللأرض: ائتيا. . إلخ. وهو أبعدُ عن القيل والقال، إلا أنه خلافُ الظاهر.

أو: كُونا واحْدُثا على وجهٍ معيَّن وفي وقتٍ مقدَّرٍ لكلٍّ منكما. فالمراد إتيانُ ذاتهما وإيجادُهما، فالأمر للتكوين على أنَّ «خَلَقَ» و«جَعَلَ» و«بارَكَ» و«قَدَّر» بالمعنى الذي حكيناه عن «إرشاد العقل السليم»، ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين إثرَ بيان كيفية التقدير.

ولعلَّ تخصيصَ البيان بما يتعلَّق بالأرض وما فيها لِما أنَّ بيانَ اعتنائه تعالى بأمر المخاطَبين وترتيبِ مبادي معايشهم قبلَ خلقهم مما يحمِلهم على الإيمان ويزجُرهم عن الكفر والطغيان.

وخُصَّ الاستواءُ بالسماء مع أنَّ الخطاب المترتِّبَ عليه متوجِّهٌ إليهما معاً اكتفاءً بذكر تقدير الأرض وتقديرِ ما فيها، كأنه قيل: فقيل لها وللأرض التي قُدِّر وجودُها ووجودُ ما فيها: كُونا واحْدُثا.

وهذا الوجه(٢) هو الذي قدَّمه صاحبُ «الإرشاد» ـ وذَكَره غيرُه احتمالاً ـ وجَعَلَ الأمرَ عبارةً عن تعلُّق إرادته تعالى بوجودهما تعلُّقاً فعليًّا بطريق التمثيل، من غير أن يكونَ هناك آمرٌ ومأمورٌ كما قيل في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧]. وقولَه تعالى: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ تمثيلاً لتحتُّمِ تأثيرِ قدرته تعالى فيهما واستحالةِ امتناعهما من ذلك، لا إثباتِ الطوع والكُره لهما، وهما مصدران وَقَعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين.

---

(١) يعني في قوله: «فقضاهن» إلخ. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٩١.

(٢) يعني كون «ائتيا» بمعنى: كونا واحدثا. . .

وقولَه تعالى[1]: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ أي: منقادين، تمثيلاً لكمال تأثُّرهما عن القدرة الربانية وحصولهما كما أُمِرا به، وتصويراً لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإنَّ الطوعَ مُنبئٌ عن ذلك والكره مُوهِمٌ لخلافه. وقيل: «طائعين» ـ بجمع المذكَّر السالم مع اختصاصه بالعقلاء ـ باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب، ولا وجهَ للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم؛ لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط.

وقولَه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ تفسيراً وتفصيلاً لتكوين السماء المجمَل المعبَّر عنه بالأمر وجوابه، لا أنه فعلٌ مترتِّبٌ على تكوينهما، أي: خلقهنَّ خَلْقاً إبداعيًّا وأتقن أمرَهنَّ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ في وقتين[2].

وضميرُ «هُنَّ» إما للسماء على المعنى؛ لأنه بمعنى السماوات، ولذا قيل: هو اسم جمع، فـ «سَبْع» حالٌ من الضمير. وإما مبهمٌ يفسِّره ما بعده على أنه تمييزٌ، فهو له وإن تأخَّر لفظاً ورتبةً؛ لجوازه في التمييز نحو: رُبَّه رَجُلاً. وهو وجهٌ عربي.

وقال أبو حيان: انتصب «سَبْع» على الحال[3]. وهو حالٌ مقدَّرة. وقال بعضهم: بدلٌ من الضمير. وقيل: مفعولٌ به، والتقدير: قَضَى منهنَّ سبعَ سماوات.

وقال الحوفي: على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، على تضمين القضاء معنى التصيير[4].

ولم يذكر مقدار زمن خَلْقِ الأرض وخَلْقِ ما فيها اكتفاءً بذكره في بيان تقديرهما.

وقولَه تعالى[5]: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ عطفاً على «قَضاهُنَّ» أي: خَلَق في كلٍّ منها ما استعدَّت له واقتضت الحكمةُ أن يكونَ فيها من الملائكة والنيِّرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقتضيه كلامُ السديِّ وقتادة، فالوحيُ عبارةٌ عن التكوين كالأمر مقيَّدٌ بما قُيِّد به المعطوفُ عليه من الوقت، أو: أوحى إلى أهلِ كلٍّ

(١) أي: وجَعَل صاحبُ الإرشاد قولَه تعالى... إلخ، وكذا فيما سيأتي من كلام.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥.
(٣) البحر ٧/ ٤٨٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عطف على ما قبله من كلام صاحب الإرشاد.

منها أوامِرَه وكلَّفهم ما يليق بهم من التكاليف كما قيل، فالوحي بمعناه المشهور من بين معانيه، ومطلَقٌ عن القيد المذكور[١]، أو مقيَّدٌ به فيما أرى.

واحتمالُ التقييد والإطلاق جارٍ في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: من الكواكب، وهي فيها وإن تفاوتت في الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهرُ. أو بعضُها فيها وبعضها فيما فوقها، لكنَّها لكونها كلِّها تُرى متلألئةً عليها صحَّ كونُ تزيينها بها، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ فهو مفعولٌ مطلقٌ لفعل مقدَّرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: (وَزَيَّنَّا) أي: وحفظناها حفظاً، والضميرُ للسماء، وحفظُها إما من الآفات، أو من الشياطين المستَرِقة للسمع، وتقدَّم الكلامُ في ذلك. وقيل: الضمير للمصابيح. وهو خلافُ الظاهر.

وجوَّز كونَه مفعولاً لأجله على المعنى، أي: معطوفاً على مفعولٍ له يتضمَّنه الكلامُ السابق، أي: زينةً وحفظاً. ولا يخفى أنه تكلُّفٌ بعيدٌ لا ينبغي القولُ به مع ظهور الأول وسهولته كما أشار إليه في «البحر»[٢].

وجَعَل[٣] قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى جميع الذي ذُكر بتفاصيله، أي: ذلك المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي: البالغِ في القدرة والبالغ في العلم.

ثم قال صاحب «الإرشاد» بعد ما سمعتَ مما حُكي عنه: فعلى هذا لا دلالةَ في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وإنما الترتيبُ بين التقدير، أي: تقدير إيجاد الأرض وما فيها وإيجاد السماء، وأما على تقدير كون الخلق وما عُطِف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي تدلُّ على تقدُّم خَلْق الأرض وما فيها، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير[٤].

ولا يخفى عليك أنَّ حملَ تلك الأفعال على ما حَمَلَها عليه خلافُ الظاهر

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥-٦.
(٢) ٧/ ٤٨٨.
(٣) أي: أبو السعود في الإرشاد ٨/ ٧.
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ٦.

كما هو مقرٌّ به، وعدم التعرُّض لخلق الأرض وما فيها بالفعل كما تُعرِّض لخلق السماوات كذلك لا يلائم دعوى الاعتناء التي أشار إليها في بيان وجه تخصيص البيان بما يتعلَّق بالأرض وما فيها، على أنَّ خلْقَ ما فيها بالفعل غيرُ ظاهر من قوله تعالى: (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ)، لاسيما وقد ذُكرت الأرضُ قَبْلُ مستقلَّة وذُكر ما فيها مستقِلًّا، فلا يتبادر من الأرض هنا إلا تلك الأرض المستقلَّة، لا هي مع ما فيها. وأمرُ تقدُّم خَلْق الأرض وتأخُّرِه سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه.

وقيل: إنَّ إتيانَ السماء حدوثُها، وإتيانَ الأرض أن تصيرَ مدحوَّةً. وفيه جمعٌ بين معنيَيْنِ مَجازِيَّيْنِ، حيث شبَّه البُرُوزَ من العدم وبَسْطَ الأرض وتمهيدَها بالإتيان من مكان آخر، وفي صحة الجمع بينهما كلامٌ، على أنَّ في كون الدحْوِ مؤخَّراً عن جعل الرواسي كلاماً أيضاً ستعْرِفه إن شاء الله تعالى.

وقيل: المراد: لِتأتِ كلٌّ منكما الأخرى في حدوث ما أرِيدَ توليدُه منكما. وأيِّد بقراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد: «آتِيا»، و«قالتا آتَيْنا»[(١)] على أنَّ ذلك من المواتاة بمعنى الموافقة، قال الجوهريُّ: تقول: آتيتُه على ذلك الأمر مواتاةً: إذا وافقتَه وطاوعتَه[(٢)]؛ لأنَّ المتوافقَيْنِ يأتي كلٌّ منهما صاحبَه، وجُعِلَ ذلك من المجاز المُرْسَل وعلاقتُه اللزوم.

وقال ابن جني[(٣)]: هي المسارعة، وهو حَسَنٌ أيضاً.

ولم يجعله أكثر الأجلة من الإيتاء لأنه غيرُ لائح، وجعله ابن عطية منه وقدَّر المفعولَ، أي: أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردتُه منكما[(٤)]. وما تقدَّم أحسن، وما أسلفناه في أول الأوْجُه من الكلام يأتي نحوه هنا كما لا يخفى.

واختلف الناسُ في أمر التقدُّم والتأخُّر في خلق كلٍّ من السماوات وما فيها

(١) المحتسب ٢/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٧، والبحر ٧/ ٤٨٧.
(٢) الصحاح (أتي).
(٣) في المحتسب ٢/ ٢٤٥.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧.

والأرض وما فيها، وذلك للآيات والأحاديث التي ظاهرُها التعارضُ، فذهب بعضٌ إلى تقدُّم خلق الأرض؛ لظاهر هذه الآية حيث ذكَر فيها أوّلاً خلْقَ الأرض وجعْلَ الرواسي فيها وتقديرَ الأقوات، ثم قال سبحانه: «ثم استوى إلى السماء» إلخ، وأبى أن يكونَ الأمرُ بالإتيان للأرض أمرَ تكوينٍ، ولظاهر قوله تعالى في آية البقرة: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأوّلَ آية «النازعات»، أعني قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] لِما أنَّ ظاهرَه يدلُّ على تأخُّرِ خلق الأرض وما فيها من الماء والمرعى والجبال؛ لأنَّ ذلك إشارةٌ إلى السابق وهو رفعُ السَّمْك والتسوية، و«الأرضَ» منصوبٌ بمضمر على شريطة التفسير، أي: ودَحا الأرضَ بعدَ رفع السماء وتسويتها دَحاها.. إلخ = بأن الأرضَ منصوبٌ بمضمر نحو: تذكَّرْ وتدبَّرْ، أو: اذكُر الأرضَ بعد ذلك. لا بمضمر على شريطة التفسير، أو به[1] و«بعد ذلك» إشارةٌ إلى المذكور سابقاً من ذكرِ خلْقِ السماء لا خَلْقِ السماء نفسِه؛ ليدلَّ على أنَّه متأخِّر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنَّه قاصرٌ في الأول، لكنه تتميمٌ، كما تقول جُمَلاً ثم تقول: بعد ذلك كيت وكيت، وهذا كثيرٌ في استعمال العرب والعجم، وكأنَّ «بعد ذلك» بهذا المعنى عكسه إذا استُعْمِل لتراخي الرتبة والتعظيم، وقد تستعمل «ثم» أيضاً بهذا المعنى وكذا الفاء.

وبعضهم يذهب في الجواب إلى ما قاله ابن عباس؛ فقد روى الحاكم والبيهقيُّ بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: رأيتُ أشياءَ تختلف عليَّ في القرآن. قال: هاتِ ما اختلف عليك من ذلك. فقال: أسمَعُ الله تعالى يقول: (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ) حتى بلغ: (طَآئِعِينَ) فبدأ بخلق الأرض في هذه الآية قبل خلق السماء، ثم قال سبحانه في الآية الأخرى: (أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا) ثم قال: (وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ) فبدأ جلَّ شأنه بخلق السماء قبل خلق الأرض؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما خلقُ الأرض في يومين فإنَّ الأرض خُلِقت قبلَ

(١) أي: أو بمضمر على شريطة التفسير. ينظر ما سيرد عند تفسير الآية (٣٠) من سورة النازعات.

السماء، وكانت السماءُ دخاناً فسواهنَّ سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يقول: جعل فيها جَبلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً(١). انتهى.

قال الخفاجي: يعني أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بدلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ «دحاها» بمعنى بسطها، مبيِّنٌ للمراد منه، فيكون تأخُّرُها في هذه الآية ليس بمعنى تأخُّرِ ذاتها، بل بمعنى تأخُّرِ خَلْقِ ما فيها وتكميلِه وترتيبِه، بل خَلْق التمتُّعِ والانتفاعِ به، فإنَّ البعديَّةَ كما تكون باعتبار نفس الشيء تكون باعتبار جزئه الأخير وقَيْدِه المذكور، كما لو قلتَ: بعثتُ إليك رسولاً؛ ثم كنتُ بعثتُ فلاناً لينظر ما يُبلِّغه. فبَعْثُ الثاني وإن تقدَّم لكن ما بُعِث لأجله متأخِّرٌ عنه، فجُعِلَ نفسُه متأخِّراً.

فإن قلت: كيف هذا مع ما رواه ابن جرير وغيره وصحَّحوه عن ابن عباس أيضاً أنَّ اليهودَ أتت النبيَّ ﷺ فسألتْه عن خَلْقِ السماوات والأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «خلق الله تعالى الأرضَ يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبالَ وما فيهنَّ من المنافع يومَ الثلاثاء، وخلق يومَ الأربعاء الشجرَ والماءَ والمدائنَ والعُمرانَ والخرابَ، فهذه أربعة، فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وخَلَق يومَ الخميس السماءَ، وخلق يومَ الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكة»(٢). فإنَّه يخالِف الأوَّلَ لاقتضائه خَلْقَ ما في الأرض من الأشجار والأنهار ونحوِها قبلَ خلق السماء.

قلت: الظاهر حملُه على أنَّه خلق فيما ذُكر مادةَ ذلك وأصولَه؛ إذ لا يُتصوَّر

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٩٤-٣٩٥، والأسماء والصفات (٨٠٩)، وأخرجه أيضاً البخاري بعد الحديث رقم (٤٨١٥). وهو حديث طويل، ولم يرد موضع الشاهد في المستدرك.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٢-٣٨٣، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢١، وأبو الشيخ في العظمة (٨٨١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٤٣، وصححه. وفيه أبو سعد البقال، قال الذهبي في التلخيص: قال ابن معين: لا يكتب حديثه. اهـ. وفي تهذيب الكمال ١١/ ٥٥: وقال البخاري: منكر الحديث. وتحرف «أبو سعد» في المستدرك والتلخيص إلى: أبي سعيد. ينظر تهذيب الكمال ١١/ ٥٢.

العمرانُ والخرابُ قبل خلق السماء، فعطفه عليه قرينة لذلك، فلا تعارُضَ بين الحديثين، كما أنه ليس بين الآيات اختلافٌ[١]. انتهى كلام الخفاجي.

ولا يخفى أنَّ قولَ ابن عباس السابقَ نصٌّ في أنَّ جعلَ الجبال في الأرض بعد خلق السماء، وهو ظاهرُ آية «النازعات»، إذا كان ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [النازعات: ٣٠] معتبراً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وآيةُ «حم السجدة» ظاهرةٌ في أنَّ جعْلَ الجبال قبل خلْقِ السماوات، ثم إنَّ روايةَ ابن جرير المذكورة عنه مخالفةٌ لخبر مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله تعالى التربةَ يومَ السبت، وخلق فيها الجبالَ يوم الأحد، وخَلَق الشجرَ يومَ الاثنين، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء، وخَلَق النورَ يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس، وخلق آدمَ بعدَ العصر من يومِ الجمعة في آخر الخلق في آخرِ ساعةٍ من النهار فيما بين العَصْر إلى الليل»[٢].

واستدلَّ في «شرح المهذَّب»[٣] بهذا الخبر على أنَّ السبتَ أولُ أيام الأسبوع دون الأحد، ونقله عن أصحابه الشافعية. وصحَّحه الإسنوي[٤] وابن عساكر، وقال العلَّامة ابن حجر: هو الذي عليه الأكثرون، وهو مذهبنا. يعني الشافعيةَ، كما في «الروضة»، وأصلِها، بل قال السهيليُّ في «روضه»[٥]: لم يقل بأنَّ أوَّلَه الأحدُ إلا ابن جرير.

وجرى النوويُّ في موضع على ما يقتضي أنَّ أوَّلَه الأحد، فقال: في يوم الاثنين: سُمِّي به؛ لأنه ثاني الأيام[٦].

وأجيب بأنَّه جرى في توجيه التسمية المُكْتَفَى فيه بأدنى مناسبةٍ على القول الضعيف.

---

(١) حاشية الشهاب ٢/ ١١٥-١١٦.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٩).
(٣) المجموع ٨/ ٤٠١-٤٠٢.
(٤) في الكوكب الدري ١/ ٢٥٩.
(٥) الروض الأنف ٢/ ١٩٨.
(٦) المجموع ٦/ ٤٤١.

وانتصر القفَّال من الشافعية لكون أوله الأحدَ بأنَّ الخبر المذكور تفرَّد به مسلم، وقد تكلَّم عليه الحفاظ: علي بن المديني والبخاري[١] وغيرهما، وجعلوه من كلام كعب، وأنَّ أبا هريرة إنَّما سمعه منه، ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً[٢].

وأجيب بأنَّ مَن حَفِظ الرفعَ حجَّةٌ على مَن لم يحفظه، والثقةُ لا يردُّ حديثُه بمجرَّد الظن، ولأجل ذلك أعرض مسلم عمَّا قاله أولئك واعتمد الرفعَ وخرَّج طريقَه في صحيحه، فوجب قبولها.

وذكر أحمد بن أحمد المقَّري المالكي[٣] أنَّ الإمام أحمد رواه أيضاً في «مسنده» عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: شبَّك بيدي أبو القاسم ﷺ وقال: «خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ يومَ السَّبْت» الحديث[٤].

وفي «الدر المنثور» عدَّةُ أخبارٍ عن ابن عباس ناطقةٌ بأنَّ مبدأ خلْقِ الأرض كان يوم الأحد[٥]. وفيه أيضاً: أخرج ابن جرير عن أبي بكر ﷺ قال: جاء اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبِرْنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبالَ يومَ الثلاثاء، وخلق المدائنَ والأقواتَ والأنهارَ وعمرانَها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكةَ يوم الخميس إلى ثلاث ساعات - يعني من يوم الجمعة - وخلق في أول ساعةٍ الآجالَ وفي الثانية الآفةَ، وفي الثالثة آدمَ». قالوا: صدقتَ إن

(١) في التاريخ الكبير ١/ ٤١٣-٤١٤. وقال: عن أبي هريرة عن كعب أصح. وينظر كلام علي بن المديني على هذا الحديث في الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٢٥٥.
(٢) ينظر كلام ابن كثير عند تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة.
(٣) لعله أحمد بن محمد بن أحمد المقَّري المالكي أبو العباس، حافظ المغرب، مفسِّر محدِّث، أديب متكلم، له: إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين ﷺ، توفي سنة (١٠٤١هـ). خلاصة الأثر ١/ ٣٠٢، وإيضاح المكنون ١/ ٦٧ وفيه أنه توفي سنة (١٠٤٣هـ). والمَقَّري. بفتح الميم وتشديد القاف. نسبة إلى قرية من قرى تلمسان. خلاصة الأثر ١/ ٣١١.
(٤) مسند أحمد (٨٣٤١)، وفيه: أخذ. بدل: شبك. و: التربة. بدل: الأرض. وأخرجه بلفظ المصنف الحاكم في معرفة علوم الحديث ص٣٣-٣٤.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٣٦١.

تَمَّمتَ. فعرف النبيُّ ﷺ ما يريدون فغَضِب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٣٨-٣٩][١]. واليهود قاطبةً على أنَّ أولَ الأسبوع يوم الأحد، احتجاجاً بما يسمُّونه التوراةَ، وظاهرُة الاشتقاق تقتضي ذلك.

ومَن ذهب إلى أنَّ الأول السبتُ قال: لا حجَّةَ في ذلك؛ لأنَّ التسميةَ لم تثبُت بأمر من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ، فلعلَّ اليهودَ وضعوا أسماءَ الأسبوع على ما يعتقدون فأخذتها العربُ عنهم، ولم يرد في القرآن إلا الجمعةُ والسبتُ، وليسا من أسماء العدد، على أنَّ هذه التسميةَ لو ثبتت عن العرب لم يكن فيها دليلٌ؛ لأنَّ العرب تُسمِّي خامسَ الورد ربعاً، وتاسعه عشراً، وهذا هو الذي أخذ منه ابنُ عباس قولَه الذي كان ينفرد به أنَّ يومَ عاشوراء هو يومُ تاسِع المحرَّم، وتاسوعاء هو يومُ ثامنِه[٢].

ولا يخفى أنَّ الجواب الأول خارجٌ عن الإنصاف، فلأيام الأسبوع عند العرب أسماءٌ أُخَر، فيها ما يدلُّ على ذلك أيضاً، وهي: أوَّل، وأهْوَن، وجُبار، ودُبار، ومُؤنِس، وعَرُوبة، وشِيار[٣]، ولا يَسُوغ لمُنصِفٍ أن يظنَّ أنَّ العربَ تبعوا في ذلك اليهودَ، وجاء الإسلامُ وأقرَّهم على ذلك، وليت شعري إذا كانت تلك الأسماء وقعت متابعةً لليهود فما الأسماء الصحيحةُ التي وضعها واضعُ لغةِ العرب غيرَ تابعٍ فيها لليهود؟! والجوابُ الثاني خلافُ الظاهر جدًّا.

ونقل الواحدي في «البسيط» عن مقاتل أنَّ خلْقَ السماء مقدَّمٌ على إيجاد الأرض، فضلاً عن دحوها. واختاره الإمام[٤]، ونسبه بعضُهم إلى بعض المحقِّقين من المفسِّرين، وأوَّلوا الآيةَ بأنَّ الخلْقَ ليس عبارةً عن التكوين والإيجاد، بل هو

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٥٠.

(٢) أخرجه مسلم (١١٣٣): (١٣٢) و(١١٣٤): (١٣٣) و(١٣٤). وينظر شرح النووي ٨/ ١٢.
وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤١٠: كأنه تأول فيه عِشْرَ الورد أنها تسعة أيام. . . . وليس ببعيد من الصواب.

(٣) جمهرة اللغة ٣/ ٤٨٩، والزاهر ٢/ ٣٥٦. وقد تدخل «أل» على: عروبة.

(٤) في التفسير الكبير ٢٧/ ١٠٧، وقول الواحدي فيه ٢٧/ ١٠٥.

عبارةٌ عن التقدير، والمرادُ به في حقِّه تعالى: حكْمُه تعالى أن سَيُوجد، وقضاؤُه عزَّ وجلَّ بذلك، مثلُه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]. ولا بدَّ على هذا من تأويل «جَعَل» و«بارَك» بنحو ما سمعتَ عن «الإرشاد»(١).

وجوَّز أن يبقى «خَلَق» وكذا ما بعده على ما يتبادَرُ منه، ويكون الكلامُ على إرادة الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]. أي: بالذي أراد خَلْقَ الأرض في يومين، وأراد أن يجعل فيها رواسي. وقالوا: إنَّ «ثم» للتفاوُت في الرتبة المنزَّلة منزلةَ التراخي الزماني، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] فإنَّ اسم «كان» ضميرٌ يرجع إلى فاعلِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ [البلد: ١١]، وهو الإنسان الكافر، وقوله سبحانه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣-١٦] تفسير للعقبة، والترتيبُ الظاهريُّ يُوجِب تقديمَ الإيمان عليه، لكن «ثم» هنا للتراخي في الرتبة مجازاً.

وفي «الكشف»: إنَّ ما نقله الواحدي لا إشكالَ فيه، ويتعيَّن «ثم» في هذه السورة و«السجدة»(٢) على تراخي الرتبة، وهو أوفقُ لمشهور قواعدِ الحكماء، لكن لا يوافِقُ ما جاء مِن أنَّ الابتداء من يوم الأحد كان، وخَلْق السماوات وما فيها من يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة تمَّ خلْقُ آدمَ عليه السلام.

وفي «البحر»: الذي نقوله: إنَّ الكفارَ وُبِّخوا وقُرِّعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعُها من غير ترتيبٍ زمانيٍّ، وإنَّ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الزمان والمهلة، كأنَّه قال سبحانه: بالذي(٣) أخبرهم أنه خَلَق الأرضَ وجَعَل فيها رواسي وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتَها، ثم أَخْبَرَكم أنه استوى إلى السماء. فلا تعرُّضَ في الآية لترتيب الوقوع الترتيبَ الزمانيَّ، ولَمَّا كان خلْقُ السماء أبدَع في القدرة من خلق الأرض استؤنِفَ الإخبارُ فيه بـ «ثم»، فهي لترتيب الإخبار كما في قوله تعالى:

---

(١) ينظر ما سلف ص١٣٩.

(٢) يعني سورة البقرة الآية (٢٩) وسورة فصلت. ينظر ما سيرد عن تفسير الآية (٣٠) من النازعات.

(٣) في مطبوع البحر ٧/ ٤٨٨: فالذي. والكلام في الأصل الخطِّي غير واضح.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] بعد قوله سبحانه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ [الأنعام:١٥١]. ويكون قوله جلَّ شأنه: (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ) بعد إخباره تعالى بما أخبر به تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى، كقولك: أرأيتَ الذي أثنيتُ عليه، فقلتُ له: إنك عالمٌ صالح. فهذا تصويرٌ لما أثنيتَ به وتفسيرٌ له. فكذلك أخبر سبحانه بأنه خَلَق كيتَ وكيتَ فأوجد ذلك إيجاداً لم يتخلَّف عن إرادته[1]. انتهى.

وظاهرُ ما ذكره في قوله تعالى: «فقال لها» إلخ أنَّ القولَ بعد الإيجاد.

وقال بعض الأجلة: يجوز أن يكونَ ذلك للتمثيل أو التخييل للدلالة على أنَّ السماء والأرض محلًّا قدرتِه تعالى يتصرَّفُ فيهما كيف يشاء إيجاداً وإكمالاً، ذاتاً وصفةً، ويكون تمهيداً لقوله سبحانه: (فَقَضَىٰهُنَّ) أي: لَمَّا كان الخلْقُ بهذه السهولة قضى السماوات وأحكم خلقَها في يومينِ، فيصحُّ هذا القولُ قبلَ كونهما وبعده وفي أثنائه، إذ ليس الغرضُ دلالةً على وقوع.

وذُكِر في نكتة تقديم خَلْق الأرض وما فيها في الذكر هاهنا وفي سورة البقرة على خَلْق السماوات، والعكسِ في سورة النازعات، أنها يجوزُ أن يكونَ أنَّ المقامَ في الأولَيَيْن مقامُ الامتنان وتعدادِ النِّعَم، فمقتضاه تقديمُ ما هو أقربُ النِّعَم إلى المخاطبين، والمقام في الثالثة مقامُ بيانِ كمال القدرة، فمقتضاه تقديمُ ما هو أدلُّ على كمالها.

ورُوي عن الحسن أنه تعالى خَلَق الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر، عليها دخانٌ ملتَزِقٌ بها، ثم أصعَدَ الدخانَ وخَلَق منه السماوات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرضَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٠][2].

وجعله بعضُهم دليلاً على تأخُّرِ دَحْوِ الأرض عن خلق السماء، وفي «الإرشاد»

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٨٨.

(٢) الكشاف ١/ ٢٧١، وتفسير أبي السعود ٨/ ٦.

أنه ليس نصّاً في ذلك، فإنَّ بَسْطَ الأرض معطوفٌ على إصعاد الدخان وخَلْقِ السماء بالواو، فلا دلالةَ في ذلك على الترتيب قطعاً(١).

وفي «الكشف» أنه يدلُّ على أنَّ كونَ السماء دخاناً سابقٌ على دَحْو الأرض وتسويتها، بل ظاهرُ قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) يدلُّ على ذلك، وإيجادُ الجوهرة النورية والنظرُ إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال، وذوبها وامتيازُ لطيفِها عن كثيفها، وصعودُ المادَّةِ الدخانية اللطيفة وبقاءُ الكثيف، هذا كلُّه سابقٌ على الأيام الستة، وثبت في الخبر الصحيح، ولا ينافي الآيات.

واختار بعضُهم أنَّ خلْقَ المادة البعيدة للسماء والأرض كان في زمانٍ واحد، وهي الجوهرة النورية أو غيرُها، وكذا فصلُ مادةِ كلٍّ عن الأخرى وتمييزُها عنها، أعني: الفتقَ وإخراجَ الأجزاءِ اللطيفة وهي المادة القريبةُ للسماوات، وإبقاءُ الكثيفة وهي المادة القريبة للأرض، فإنَّ فصلَ اللطيف عن الكثيف يستلزم فصلَ الكثيف عنه، وبالعكس.

وأما خَلْق كلٍّ على الهيئة التي يشاهَد بها فليس في زمانٍ واحدٍ، بل خلْقُ السماوات سابقٌ في الزمان على خلق الأرض، ولا ينبغي لأحد أن يرتابَ في تأخُّرِ خلْق الأرض بجميعِ ما فيها عن خلق السماوات كذلك، ومتى ساغ حملُ «ثم» للترتيب في الإخبار هان أمرُ ما يُظَنُّ من التعارض في الآيات والأخبار. هذا، والله تعالى أعلم.

ولبعض المتأخِّرين في الآية كلامٌ غريبٌ دَفَع به ما يظنُّ من المنافاة بين الآيات الدالَّة على أنَّ خلْقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] وهذه الآية التي يُخيَّل منها أنَّ خَلْق ذلك في ثمانية أيام، وهو أنَّ للشيء حكماً من حيث ذاته ونفسه، وحكماً من حيث صفاته وإضافاته ونِسَبه وروابطه واقتضاءاته ومتمِّماته وسائر ما يضاف إليه، ولكلٍّ من ذلك أجلٌ معدودٌ

(١) تفسير أبي السعود ٨/٦-٧.

وحدٌّ محدودٌ يُظهِره سبحانه في ذلك بالأزمان الخاصَّة به والأوقات المؤجَّلة له، وهي متفاوتةٌ مختلفة، والله تعالى خلق السماوات والأرضَ وما بينهما في حدِّ ذاتها في ستة أيام، وذلك عند نشئها في ذاتها مِن خلْقِه سبحانه إياها من البحر الحاصل من ذوبان الياقوتة الحمراء لَمَّا نَظَر إليها جلَّ شأنه بنظر الهيبة فَتَمَوَّج إلى أن حصل منه الزَّبَدُ وثار الدخانُ، فخلق السماءَ من الدخان، والأرضَ من الزبد، والنجومَ من الشعلات المستجنَّةِ في زبد البحر، والنارَ والهواءَ والماءَ من جسمٍ أكثفَ من الدخان وألطفَ من الزبد.

والسماءُ حقيقةٌ وحدانيةٌ في ذاتها ولها صلاحيةُ التعدُّد والكثرة على حسب بُدُوِّ شأنها في علم الغيب، فتعيُّنُها بالسبعة على الجهة الخاصَّة ووقوع كلِّ سماءٍ في محلِّها الخاصِّ مترتِّباً عليها حكمٌ خاصٌّ يحتاجُ إلى جَعْلٍ غيرِ جعلها في نفسها، وهو المسمَّى بالقَدَر وتعيينِ الحدود التي هي الهندسة الإيجادية، وهذا الجعلُ متفرِّعٌ على الخلق ونحوُه غير نحوِه قطعاً كما يُشعِر به قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقد يسمَّى بالتسوية وبالقضاء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾.

وأما تقديرُ أقواتِ الأرض وجعل الرواسي وإعطاء البركة وتوليدُ المتولِّدات فلها أيامٌ معدوداتٌ وحدودٌ محدوداتٌ لا تدخل في أيام خلْق السماوات والأرض؛ لأنَّها لإيجادِ أنفسها. فالأيام الأربعة المذكورة في الآية إنما هي لجعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداثِ البركة، وليست من تلك الستة، وكذلك اليومان اللذان لتسوية السماء وقضائها سبعَ سماواتٍ خارجان عنها، فليس في الآية التي الكلامُ فيها سوى أنَّ خلْقَ الأرضِ كان في يومين، وأما خلْقُ السماوات وما بينهما وبين الأرض فلم يُذكَر في الآية مدَّةٌ له، وإنما ذُكِر مدَّةُ قضاء السماوات وهو غيرُ خلْقِها، ومدةُ جَعْل الرواسي وتقديرِ الأقوات وإحداث البركة، وذلك غيرُ خلْقِ الأرض وما بينها وبين السماء، فلا تنافي بينها وبين الآيات الدالة على أنَّ خلْقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.

ولا يعكِّر على ذلك ما روي عن الصادق «أنَّ الله سبحانه خَلَق في يوم الأحد والاثنين الأرَضين، وخلق أقواتَها في يوم الثلاثاء، وخَلَق السماوات في يوم الأربعاء ويوم الخميس، وخَلَق أقواتَها يومَ الجمعة، وذلك قولُ الله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [السجدة: ٤]»[١]. لأنَّه بعدَ تسليم صحته، المذكورُ فيه أنَّ الأقوات قد خُلِقت في يومين لا أنَّها قدِّرت، وبينَ الخلق والتقدير بونٌ بعيد؛ فخلْقُ الأقوات عبارةٌ عن إيجاد ذاتياتها وموادِّها وعللها وأسبابها، فإذا وُجدت قدِّرت وفُصِّلت على الأطوار المعلومة، فلا إشكال.

والعَجَب ممن استشكل هذا المقام، كيف لم ينظُر في مدلولات الألفاظ الإلهية بحسب القواعد القرآنية واللغوية فاحتاج في حلِّه إلى تكلُّفات أمورٍ خفية وارتكاب توجيهات غير مرضيَّة.

ثم إنَّ هذا البعضَ ذكر لليوم ما يزيد على ستين إطلاقاً منها المرتبةُ، ونَقَل هذا عن شيخه، ورأيتُه في بعض الكتب لغيره، وجَوَّز إرادتَه في الآية، وكذا جوَّز إرادةَ غيره من الإطلاقات، وذكر سرَّ كونِ خلْق السماوات والأرض في ستة أيام وأطال الكلام في هذا المقام، وكان ذلك ضمْنَ رسالةٍ ألَّفها حينَ طلبتُ منه جواباً عما يظنُّ من المنافاة غيرَ ما ذكروه من الجواب عن ذلك؛ ومن وَقَف على تلك الرسالة سمع منها قَعْقَعَةً بلا سلاح، وأحسَّ بطيران في جَوٍّ ما يزعمه تحقيقاً بلا جناح، فكم فيها من قولٍ لا سندَ له، ومدَّعًى لم يُورَد دليلُه، فعليك بالتأمُّل التامِّ فيما ذكره المفسِّرون وما ذكره هذا الرجلُ من الكلام، ولا تك للإنصاف مُجانباً وللتعصُّب مصاحِباً، والله تعالى الموفِّق.

وما تقدَّم من حَمْل قوله تعالى: (قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ) على التمثيل، هو ما ذهب إليه جماعةٌ من المفسِّرين، وقالت طائفة: إنَّهما نَطَقَتا نُطْقاً حقيقيًّا وجعل الله تعالى لهما حياةً وإدراكاً، قال ابن عطية: وهذا أحسن؛ لأنه لا شيء يدفعه، وأنَّ العبرةَ فيه أتمُّ والقدرة فيه أظهر[٢].

---

(١) لم نقف عليه هكذا، وأخرجه الطبري في التفسير ١/ ٤٦٤-٤٦٥ عن عبد الله بن سلام بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٧.

ولا يخفى أنَّ المعنى الأول أبلغ، ومن ذهب إلى أنَّ للجمادات إدراكاً لائقاً بها قال بظاهر الآية ولعلَّها إحدى أدلَّته على ذلك.

وذكر بعضُهم في قوله سبحانه: (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) أنه سبحانه خصَّ كلَّ سماءٍ بما ميَّزها عن السماء الأخرى من الذاتيَّات وجعل ذلك وجهاً في جمع السماوات وإفراد الأرض.

وقرأ الأعمش: «أو كُرْهاً» بضمِّ الكاف. قال أبو حيان: والأصحُّ أنها لغةٌ في الإكراه على الشيء، والأكثرُ على أنَّ الكُرْهَ بالضمِّ معناه المشقَّة[1].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ متصلٌ بقوله تعالى: «قل أئنكم» إلخ، أي: فإن أعرضوا عن التدبُّر فيما ذُكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان، أو: عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: أُنذِركم، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقُّق الإنذار المنبئ عن تحقُّق المنذَر ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ أي: عذاباً مثلَ عذابهم، قاله قتادة، وهو ظاهرٌ على القول بأنَّ الصاعقةَ تأتي في اللغة بمعنى العذاب، ومنع ذلك بعضُهم وجعَل ما ذُكِر مجازاً، والمراد: عذاباً شديدَ الوقع كأنه صاعقةٌ مثل صاعقتهم. وأيًّا ما كان فالمراد: أعلمتُكم حلولَ صاعقةٍ.

وقرأ ابن الزبير والسلمي وابن محيصن: «صَعْقَةً مثلَ صَعْقَة» بغير ألفٍ فيهما وسكونِ العين[2]، وهي المرَّة من الصعْق أو الصعَق، ويقال: صَعَقَتْه الصاعقةُ صَعْقاً فصَعِق صَعَقاً بالفتح، أي: هَلَكَ بالصاعقة المصيبة له.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ أي: جاءت عاداً وثمودَ، ففيه إطلاقُ الجمع على الاثنين وهو شائعٌ، وكذا «الرُّسُل». وقيل: يحتمل أن يراد به ما يعمُّ رسولَ الرسول. وجوِّز في الأول أن يكون باعتبار أفراد القبيلتَيْن.

وذكروا في «إذْ» أَوْجُهاً من الإعراب:

الأول: أنه ظرفٌ لـ «أنْذَرْتُكم».

---

(١) البحر ٧/ ٤٨٧، وقراءة الأعمش فيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨، والبحر ٧/ ٤٨٩.

الثاني: أنه صفةٌ لـ «صاعقة» الأولى.

وأُورِد عليهما لزومُ كون إنذاره عليه الصلاة والسلام والصاعقةِ التي أنذَرَ بها واقِعَيْنِ في وقتِ مجيء الرُّسُل عاداً وثمود، وليس كذلك.

الثالث: أنه صفةٌ لـ «صاعقة» الثانية. وتعقِّب بأنه يلزَمُ عليه حذفُ الموصول مع بعض صلته، وهو غيرُ جائز عند البصريين، أو وصفُ المعرفة بالنكرة.

الرابع واختاره أبو حيان[1]: أنه معمولٌ لـ «صاعقة عاد وثمود» بناءً على أنَّ المرادَ بها العذابُ، وإلا فهي بالمعنى المعروف جثةٌ لا يتعلَّق بها الظرفُ. وفيه شيء لا يخفى.

الخامس واختاره غير واحد: أنه حالٌ منها؛ لأنها معرفةٌ بالإضافة.

وبعضُهم يجوِّز كونه حالاً من الأولى أيضاً لتخصُّصِها بالوصف بالمتخصص بالإضافة، فتكون الأوجُه ستةً.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ «جاءتهم»، والضمير المضافُ إليه لـ «عاد وثمود»، والجهتان كنايةٌ عن جميع الجهات على ما عُرف في مثله، أي: أتتهم الرسل من جميع جهاتهم، والمراد بإتيانهم من جميع الجهات بذلُ الوسع في دعوتهم على طريق الكناية. ويجوز أن يراد بما بين أيديهم الزمن الماضي، وبما خلفهم المستقبل، وبالعكس، واستعير فيه ظرفُ المكان للزمان، والمراد: جاؤوهم بالإنذار عمَّا جرى على أمثالهم الكَفَرة في الماضي، وبالتحذير عمَّا سيحيق بهم في الآخرة. ورُوي هذا عن الحسن.

وجُوِّز كون الضمير المضاف إليه للرسل، والمراد: جاءتهم الرسلُ المتقدِّمون والمتأخِّرون، على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيء أنفسهم، فإنَّ هوداً وصالحاً كانا داعيَيْنِ لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء مِن بين أيديهم وممن يجيء من خلفهم، فكأنَّ الرسلَ قد جاؤوهم وخاطبوهم بقوله

(١) في البحر ٧/ ٤٨٩.

تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. ورُوي هذا الوجه عن ابن عباس والضحاك[١]، وإليه ذهب الفراء[٢].

ونصَّ بعض الأجلَّة على أنَّ «من بين أيديهم» عليه حالٌ من «الرسل» لا متعلِّق بـ «جاءتهم»، وجمعُ الرسل عليه ظاهرٌ.

وقيل: يحتمل أن يكونَ كونُ الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم كنايةً عن الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال الطبري[٣]: الضمير في قوله تعالى: «من بين أيديهم» لعاد وثمود وفي قوله تعالى: «ومن خلفهم» للرسل.

وتعقَّبه في «البحر»[٤] بأنَّ فيه خروجاً عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى، إذ يصير التقديرُ: جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل، أي: من خلف أنفسهم، وهذا معنًى لا يتعقَّل إلا إن كان الضميرُ عائداً في «من خلفهم» على الرسل لفظاً، وهو عائدٌ على رُسُلٍ آخَرين معنًى، فكأنه قيل: جاءتهم الرسلُ من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين، فيكون كقولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصفُ درهم آخر. وبُعدُه لا يخفى.

وخُصَّ بالذكر من الأمم المهلكة عادٌ وثمود لعلم قريش بحالهما ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحِجْر.

و«أن» يصحُّ أن تكونَ مفسِّرة لمجيء الرسل؛ لأنَّه بالوحْي وبالشرائع فيتضمَّن معنى القول، و«لا» ناهيةٌ، وأن تكونَ مصدريةً و«لا» ناهيةٌ أيضاً. والمصدرية قد توصل بالنهي كما توصل بالأمر على كلام فيه.

وجعل الحوفي «لا» نافيةً و«أن» ناصبة للفعل[٥].

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٦، والبحر ٧/ ٤٩٩.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٣.
(٣) في تفسيره ٢٠/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) ٧/ ٤٨٩.
(٥) البحر ٧/ ٤٨٩.

وقيل: إنَّها المخفَّفةُ من الثقيلة ومعها ضميرُ شأن محذوف.

وأُورِد عليه أنها إنَّما تقع بعد أفعال اليقين، وأنَّ خبرَ بابِ «أن» لا يكون طلباً إلا بتأويل. وقد يُدفَع بأنه بتقدير القول، وأنَّ مجيءَ الرسل كالوحي معنًى، فيكون مثلَه في وقوع «أن» بعده لتضمُّنه ما يفيد اليقين، كما أشار إليه الرضي وغيرُه. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف المستغنَى عنه.

وعلى احتمال كونها مصدريةً وكونها مخفَّفةً يكون الكلامُ بتقديرِ حرفِ الجرِّ، أي: بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ مفعولُ المشيئة محذوفٌ، وقدَّره الزمخشريُّ: إرسالَ الرسل[1]، أي: «لو شاء ربُّنا» إرسالَ الرسل ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لأرسلهم، لكن لَمَّا كان إرسالهم بطريق الإنذار، قيل: «لأنزل».

قيل: ولم يقدِّر إنزالَ الملائكة بناءً على أنَّ الشائعَ تقديرُ مفعول المشيئة بعد «لو» الشرطية من مضمون الشرط؛ لأنَّه عارٍ عن إفادةِ ما أرادوه من نفْي إرساله تعالى البشرَ، والشائعُ غيرُ مطَّردٍ.

وقال أبو حيان: إنما التقدير: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم، وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر إذ علَّقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو سبحانه لم يشأ ذلك فكيف يشاؤه في البشر[2]! وهو وجهٌ حَسَن.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالذي أُرسِلتم به على زعمكم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم ﴿كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ لِما أنَّكم بشرٌ مثلُنا لا فضلَ لكم علينا، والفاء فاءُ النتيجة السببية، فيكون في الكلام إيماءٌ إلى قياسٍ استثنائيٍّ، أي: لكنه لم ينزل. ويجوز أن تكونَ تعليليةً لشرطيتهم، أي: إنَّما قلنا ذلك لأنا مُنكِرون لِما أُرسِلتم به كما نُنكِر رسالتَكم.

و«ما» كما أشرنا إليه موصولةٌ، وكونُها مصدريةً وضميرُ «به» لقولهم: «أن لا تعبدوا إلا الله» خلافُ الظاهر.

---

(١) الكشاف ٣/٤٤٨.

(٢) البحر ٧/٤٩٠.

أخرج البيهقي في «الدلائل» وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملأُ من قريش: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعتُ الشعرَ والكهانةَ والسحرَ وعلمتُ من ذلك علماً، وما يخفى عليَّ إن كان كذلك. فأتاه فقال له: يا محمد، أنتَ خيرٌ أم هاشم؟ أنتَ خيرٌ أم عبد المطلب؟ فلم يجبه، قال: فبِمَ تَشتِمُ آلهتَنا وتُضَلِّلُ آباءَنا؟! فإن كنتَ إنما بك الرياسةُ عَقَدْنا ألْوِيَتَنا لك، وإن كان بك المالُ جَمَعْنا لك من أموالنا ما تَسْتَغْنِي به أنتَ وعَقِبُك مِن بعدك، وإن كان بك الباءَةُ زوَّجناك عَشرَ نسوةٍ تختار مِن أيِّ بناتِ(١) قريشٍ. ورسولُ الله ﷺ ساكتٌ لا يتكلَّم، فلمَّا فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾» فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾، فأمسك عتبةُ على فيه عليه الصلاة والسلام فأنشده الرَّحِم أن يكفَّ عنه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلمَّا احتَبَسَ عنهم قال أبو جهل: يا معشرَ قريش، ما أرى عتبةَ إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامُه، وما ذاك إلا من حاجةٍ أصابته، انتقلوا بنا إليه. فأتوه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة، ما حَسِبْنا إلا أنَّك صبوتَ إلى محمدٍ وأعجبك أمرُه، فإن كنتَ بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد. فغَضِب وأقسم بالله تعالى لا يكلِّم محمداً عليه الصلاة والسلام أبداً، وقال: لقد علمتم أني أكثرُ قريش مالاً، ولكني أتيتُه - فقصَّ عليهم القصةَ - فأجابني بشيء، والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حتى: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكتُ بفيه وناشدتُه الرحمَ، فكفَّ(٢)، وقد علمتم أنَّ محمداً - ﷺ - إذا قال شيئاً لم يكذب فخفتُ أن ينزلَ بكم العذاب(٣).

---

(١) في الدلائل ٢/ ٢٠٣، وتاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤٢: أبيات.

(٢) في الأصل: فيكف. وفي مصدري التخريج: أن يَكُفَّ.

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٢٠٢-٢٠٤، وتاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٢٤٢. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد في منتخب مسنده (١١٢٣).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروعٌ في تفصيلِ ما لكلٍّ واحدةٍ من الطائفتَيْنِ من الجناية والعذاب، ولتفرُّعِ التفصيل على الإجمال قُرِن بفاء السببية، وبُدِئ بقصة عادٍ لأنَّها أقدمُ زماناً، أي: فأما عادٌ فتعظَّموا في الأرض التي لا ينبغي التعظُّم فيها على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير استحقاقٍ للتعظُّم.

وقيل: تعظَّموا عن امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ وقبولِ ما جاءتهم به الرسل ﴿وَقَالُوا۟﴾ اغتراراً بقوَّتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: لا أشدَّ منا قوَّةً، فالاستفهام إنكاريٌّ، وهذا بيانٌ لاستحقاقِهم العظمةَ وجوابٌ للرسل عمَّا خوَّفوهم به من العذاب، وكانوا ذَوي أجسامٍ طوالٍ وخَلْقٍ عظيم، وقد بلغ من قوتهم أنَّ الرجلَ كان ينزع الصخرةَ من الجبل ويرفعها بيده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أغفلُوا ولم ينظروا. أو: ولم يعلموا علماً جليًّا شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً، فإنَّه تعالى قادرٌ بالذات مقتدرٌ على ما لا يتناهى، قويٌّ على ما لا يقدر عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، مفيضٌ للقوَّة والقُدَرِ على كلِّ قويٍّ وقادرٍ. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ ما خوَّفهم به الرسلُ ليس من عند أنفسهم بناءً على قوَّةٍ منهم، وإنما هو من الله تعالى خالقِ القُوَى والقُدَر، وهم يعلمون أنه عزَّ وجلَّ أشدُّ قوَّةً منهم. وتفسيرُ القوَّة بالقدرة؛ لأنَّه أحدُ معانيها كما يشير إليه كلام الراغب[1].

وزعم بعضهم أنَّ القوَّةَ عَرَضٌ يُنزَّه الله تعالى عنه، لكنها مستلزمةٌ للقدرة، فلذا عُبِّر عنها بها مشاكلةً.

وأُورِد في حيز الصلة «خَلَقَهم» دونَ: خلق السماوات والأرض؛ لادعائهم الشدَّةَ في القوة، وفيه ضربٌ من التهكُّم بهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: ينكرونها وهم يعرفون حقِّيَّتها. وهو عطفٌ على «فاستكبروا» أو «قالوا»، فجملةُ «أولم يروا» إلخ مع ما عُطف هو عليه اعتراضٌ. وجوِّز أن يكونَ هو وحدَه اعتراضاً، والواو اعتراضيَّةٌ لا عاطفة.

---

(١) في المفردات (قوي).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال مجاهد: شديدةَ السموم. فهو من الصَّرِّ بفتح الصاد بمعنى الحرِّ. وقال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي: باردةً تُهلِك بشدَّة بردها، من الصِّرِّ بكسر الصاد، وهو البردُ الذي يصرُّ، أي: يجمع ظاهرَ جلد الإنسان ويقبضه. والأول أنسب لديار العرب.

وقال السدي أيضاً وأبو عبيدة وابن قتيبة والطبريُّ وجماعة: مصوِّتةً، من: صرَّ يصرُّ: إذا صوَّت[١]. وقال ابن السكيت[٢]: «صَرْصَرْ» يجوز أن يكون من الصَّرَّة وهي الصيحة، ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وفي الحديث أنه تعالى أمر خَزَنَة الريح، ففتحوا عليهم قَدْرَ حلقةِ الخاتم، ولو فتحوا قدر مِنْخَر الثور لهلكت الدنيا[٣].

ورُوي أنها كانت تحمل العيرَ بأوقارها، فترميهم في البحر[٤].

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمع: نَحِسَة، بكسر الحاء، صفةٌ مشبهةٌ من: نَحِسَ نحساً، ك: علم علماً[٥]، نقيضُ: سَعِد سعْداً.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو والنخعيُّ وعيسى والأعرج: «نَحْسات» بسكون الحاء[٦]، فاحتمل أن يكونَ مصدراً وُصِف به مبالغةً، واحتمل أن يكون صفةً مخفَّفاً من فَعِلٍ كصَعْب.

وفي «البحر»: تتبَّعْتُ ما ذكره التصريفيون مما جاء صفةً من فَعِل اللازم فلم

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩٦، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٨، والبحر ٧/ ٤٩٠.
(٢) في إصلاح المنطق ص٣٥٣.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٩٤ من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ مرفوعاً بمعناه، وقال الذهبي: منكر. وأخرج الترمذي (٣٢٧٣) أوله من حديث رجل من ربيعة عن النبي ﷺ.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٩، والبحر ٧/ ٤٩٠.
(٥) كذا قال المصنف، والصواب أن نَحِس كعَلِم في وزن الفعل فقط، وليس في المصدر. ينظر مختار الصحاح والقاموس والتاج (نحس)، وحاشية الشهاب ٧/ ٣٩٥.
(٦) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/ ٣٦٦ عن الحرميين وأبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٩٠.

يذكروا فيه فَعْلاً بسكون العين، وإنما ذكروا فَعِلاً بالكسر كفَرِحٍ، وأَفْعَل كأحْوَرَ، وفَعْلَان كشبعان، وفاعلاً كسالم[1].

وهو صفةُ «أيام»، وجُمع بالألف والتاء لأنه صفةٌ لِما لا يَعقل، والمراد بها: مشائيم عليهم، لما أنَّهم عُذِّبوا فيها، فاليومُ الواحد يُوصَف بالنحس والسعْد بالنسبة إلى شخصين، فيقال له: سعْدٌ، بالنسبة إلى من يَنعَم فيه؛ ويقال له: نَحس، بالنسبة إلى مَن يعذَّب، وليس هذا مما يزعمه الناس من خصوصيات الأوقات، لكن ذكر الكرماني في مناسكه عن ابن عباس أنه قال: الأيام كلُّها لله تعالى لكنه سبحانه خَلَق بعضَها نُحُوساً وبعضها سُعُوداً[2].

وتفسيرُ «نَحِسَات» بمشائيم، مرويٌّ عن مجاهد وقتادة والسدي[3].

وقال الضحاك: أي: شديدة البرد[4]، حتى كأن البردَ عذابٌ لهم. وأنشد الأصمعي في النَّحس بمعنى البرد:

كأنَّ سُلافَةَ مُزِجَت بِنَحْسٍ[5]

وقيل: «نَحِسات»: ذوات غُبارٍ، وإليه ذهب الجبائي[6]، ومنه قولُ الراجز:

قَد أغْتَدي قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِلصَّيْدِ في يَومٍ قَليلِ النَّحْسِ[7]

يُريد: قليل الغبار، وكانت هذه الأيام من آخر شُباط، وتُسمَّى أيامَ العجوز، وكانت فيما رُوي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة آخرَ شوال من الأربعاء إلى

(١) البحر ٧/ ٤٩٠.
(٢) ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٠٠.
(٤) المصدر السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٩.
(٥) وعجزه: يُحِيلُ شَفِيْفُها الماءَ الزُّلَالَا. كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩، ومفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٤، وفي البحر ٧/ ٤٩١: يخيل شقيقها. وفي صدره عند الجميع: عُرِضَت. بدل: مُزِجَت.
(٦) مجمع البيان ٢٤/ ١٣.
(٧) الرجز للشمردل بن شريك، كما في التذكرة الحمدونية ٥/ ٢٨٧، وهو دون نسبة في النكت والعيون ٥/ ١٧٥، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٠٢، والبحر ٧/ ٤٩١.

الأربعاء. وروي: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء[١].

وقال السدي: أولُها غداةَ يوم الأحد. وقال الربيع بن أنس: يوم الجمعة.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضيف العذابُ إلى الخِزْي وهو الذلُّ على قصدِ وصفِه به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، وهو في الأصل صفةُ المعذَّب وإنما وُصِف به العذابُ على الإسناد المجازيِّ للمبالغة، فإنَّه يدلُّ على أنَّ ذُلَّ الكافر زاد حتى اتصف به عذابُه، كما قُرِّر في قولهم: شعرٌ شاعرٌ. وهذا في مقابلة استكبارهم وتعظُّمهم.

وقرئ: «لتُذِيْقَهُم» بالتاء[٢]، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ الريح، أو الأيام النحسات.

﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ بدفع العذاب عنهم بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي: بَيَّنَّا لهم، وأرادوا بذلك ـ على ما قيل ـ بيانَ طريقَي الضلالة والرشد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: فاختاروا الضلالةَ على الهدَى، فإنَّه ظاهرٌ في أنه بُيِّن لهم الطريقان فاختاروا أحدَهما، وصرَّح ابنُ زيد بذلك، فقد حُكي عنه أنه قال: أي: أعْلَمناهم الهدَى من الضلال. وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالدلالة، أي: فدلَلْناهم على الحقِّ بنصب الحُجَج وإرسالِ الرسل، فاختاروا الضلالَ. ولم يفسِّروها بالدلالة الموصِلة؛ لإباءِ ظاهرِ «فَاسْتَحَبُّوا» إلخ عنه.

واستدلَّ المعتزلةُ بهذه الآية على أنَّ الإيمان باختيار العبد على الاستقلال، بناءً على أنَّ قولَه تعالى: «هديناهم» دلَّ على نصب الأدلة وإزاحة العلَّة، وقولَه تعالى: «استحبوا العمى» إلخ دلَّ على أنَّهم بأنفسهم آثروا العمى.

والجوابُ كما في «الكشف» أنَّ في لفظ الاستحباب ما يُشعِر بأنَّ قدرةَ الله تعالى هي المؤثِّرة، وأنَّ لقدرةِ العبد مَدخلاً ما، فإنَّ المحبَّةَ ليست اختياريةً

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٤ عن ابن عباس.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

بالاتفاق، وإيثارُ العمى حبًّا وهو الاستحبابُ من الاختياريَّة. فانظر إلى هذه الدقيقة تَرَ العَجَبَ العُجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدِّس سرّه[1].

ومعنى كون المحبة ليست اختياريةً أنَّها بعد حصول ما تتوقَّفُ عليه من أمورٍ اختيارية تكون بجذْبِ الطبيعة من غير اختيارٍ للشخص في ميلِ قلبه وارتباطِ هواه بمن يحبُّه، فهي نفسُها غيرُ اختيارية، لكنها باعتبار مقدِّماتها اختيارية، ولذلك كُلِّفنا بمحبةِ الله تعالى ومحبةِ رسوله ﷺ.

وفي «طوق الحمامة»[2] لابن سعيد أنَّ المحبة ميلٌ روحانيٌّ طبيعي، وإليه يشير قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: يميل، فجَعَل علَّةَ ميلها كونَها منها، وهو المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنودٌ مجنَّدة»[3] وتكون المحبةُ لأمورٍ أُخَرَ كالحُسْن والإحسان والكمال، ولها آثارٌ يُطلَق عليها محبةٌ كالطاعة والتعظيم. وهذه هي التي يكلَّف بها؛ لأنها اختياريةٌ فاعرفه.

وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب: «وأما ثمودٌ» بالرفع مصروفاً[4].

وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألفٍ[5].

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه والمفضل، قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس: «ثموداً» بالنصب والتنوين[6].

---

(١) في التفسير الكبير ٢٧/ ١١٣-١١٤.

(٢) طوق الحمامة في الإلْفَة والألّاف لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، والكلام فيه ص٦٢-٦٥ بتقديم وتأخير، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٥.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠، والبحر ٧/ ٤٩١. ولم نقف على قراءة ابن هرمز وابن عباس.

وروى المفضل عن عاصم الوجهين[١].

والمنعُ عن الصرف للعلميَّة، والتأنيثُ على إرادة القبيلة، ومَن صرفه جعله اسمَ رجل، والنصبُ على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير. ويقدَّر الفعل الناصبُ بعده لأنَّ «أمَّا» لا يليها في الغالب إلا اسمٌ.

وقرئ بضمِّ الثاء[٢]، على أنه جمع «ثَمَد» وهو قلَّة الماء، فكأنهم سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء، وكانوا قليلي الماء.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: الذُّلِّ، وهو صفةٌ للعذاب أو بدلٌ منه، ووصفُه به مصدراً للمبالغة، وكذا إضافةُ «صاعقة» إلى «العذاب»، فيفيد ذلك أنَّ عذابَهم عينُ الهُونِ، وأنَّ له صاعقة.

والمراد بالصاعقة النارُ الخارجةُ من السحاب كما هو المعروف، وسببُ حدوثها العادي مشهورٌ في كتب الفلسفة القديمة، وقد تكلَّم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها، فقالوا في كيفيَّة انفجار الصاعقة:

من المعلوم أنَّ انطلاق الكهربائية التي في السحاب ـ وهي قوَّةٌ مخصوصةٌ في الأجسام نحوَ قوَّة الكهرباء التي بها تُجذبُ التِّبْنَةُ ونحوُها إليها ـ إنَّما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرُب السحابُ من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائيةُ السحابيةُ أن تتَّحدَ بالكهربائية الأرضيَّة، فتنبجس[٣] بينهما شرارةٌ كهربائيةٌ، فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوَّةُ الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية، فليست في جميع البلاد والفصول واحدة. وأوضحوا ذلك بكلامٍ طويلٍ مَن أراده فليرجع إليه في كتبهم.

وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحةُ كما ورد في آياتٍ أُخَر. ولا مانعَ من الجمع بينهما.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٠، والبحر ٧/ ٤٩١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٩.
(٣) في (م): فتتبجس.

وقرأ ابن مقسم: «الهَوَان» بفتح الهاء وألف بعد الواو[١].

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريحٌ بما تُشعِر به الفاء.

﴿وَنَجَّيْنَا﴾ من تلك الصاعقة ﴿ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ بسبب إيمانهم واستمرارِهم على التقوى، والمرادُ بها تقوى الله عزَّ وجلَّ.

وقيل: تقوى الصاعقة، والمتَّقي عذابَ الله تعالى متَّقٍ لله سبحانه. وليس بذاك.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ شروعٌ في بيانِ عقوباتهم الآجلة بعد ذكر عقوباتهم العاجلة، والتعبيرُ عنهم بأعداء الله تعالى لذمِّهم والإيذان بعلَّة ما يحيق بهم من ألوان العذاب.

وقيل: المراد بهم الكفارُ من الأوَّلينَ والآخِرينَ. وتعقِّب بأنَّ قولَه تعالى الآتي: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥] كالصريح في إرادة الكَفَرة المعهودين.

والمراد من قوله تعالى: «إلى النار» قيل: إلى موقف الحساب، والتعبيرُ عنه بالنار للإيذان بأنَّ النارَ عاقبةُ حَشْرهم وأنَّهم على شَرَفِ دخولها، ولا مانعَ من إبقائه على ظاهره والقولِ بتعدُّد الشهادة، فتشهد عليهم جوارحُهم في الموقف مرةً وعلى شفيرِ جهنم أخرى.

و«يوم» إما منصوبٌ بـ «اذْكُرْ» مقدَّرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: «قل أنذرتكم صاعقة»، أو ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّرٍ قد حُذِف إيهاماً لقصورِ العبارة عن تفصيله.

وقيل: ظرفٌ لِما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: يُحبَس أوَّلُهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو كنايةٌ عن كثرتهم. وقيل: يَنْساقون ويُدفَعون إلى النار. والفاء تفصيلية.

---

(١) البحر ٧/ ٤٩١.

وقرأ زيد بن عليٍّ ونافع والأعرج وأهل المدينة: «نَحْشُرُ» بالنون «أعْداءَ» بالنصب[١]. وكَسَرَ الأعرجُ الشينَ[٢].

وقرئ: «يَحْشُر» على البناء للفاعل وهو الله تعالى، ونصبِ «أعداءَ الله»[٣].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: النارَ جميعاً، غايةٌ لـ «يُحْشَر»، أو: لـ «يُوْزَعُون» أي: حتى إذا حَضَروها، و«ما» مزيدةٌ لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور؛ لأنها تؤكِّد ما زيدت بعده، فهي تؤكِّد معنى «إذا»، و«إذا» دالَّةٌ على اتصال الجواب بالشرط لوقوعهما في زمان واحد، وهذا مما لا تعلُّقَ له بالنحو حتى يضرَّ فيه أنَّ النحاةَ لم يذكروه كما شنَّع به أبو حيان[٤].

وأكّد؛ لأنهم ينكرونه. وفي الكلام حذفٌ، والتقديرُ: حتى إذا ما جاؤوها وسُئِلُوا عما أجْرَموا فأنكَروا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ واكتُفِيَ عن المحذوف بذكر الشهادة لاستلزامها إياه، ولا يأبى التقديرُ تأكيدَ الاتصال، إذ يكفي للاتصال وقوعُ ذلك في مجلسٍ واحد.

والظاهر أنَّ الجلودَ هي المعروفة، وقيل: هي الجوارح، كُني بها عنها. وقيل: كُنِّي بها عن الفروج، قيل: وعليه أكثر المفسِّرين منهم ابن عباس ﵄[٥]. وفي «الإرشاد» أنه الأنسب بتخصيص السؤال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنى أعظم جنايةً وقبحاً وأجلَب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمعُ والأبصارُ من الجنايات المكتسبة بتوسطهما[٦].

وفيه نظر، ولعلَّ إرادةَ الظاهر أولى، ولعلَّ تخصيصَ السؤال بالجلود؛ لأنها بمرأى منهم بخلاف السمع والبصر، أو لأنها هي مُدرِكة العذاب بالقوَّة المودَعة

(١) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/ ٣٦٦ عن نافع ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٩٢.
(٢) البحر ٧/ ٤٩٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٠.
(٤) في البحر ٧/ ٤٩٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠.

فيها كما يشعر به قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] قاله الجلبي، ثم نقل عن العلامة الثاني في ذلك أنَّ الشهادةَ من الجلود أعجبُ وأبعدُ؛ إذ ليس شأنُها الإدراكَ، بخلاف السمع والبصر.

وتعقَّبه بقوله: فيه نظرٌ، فإنَّ الجلدَ محلُّ القوَّة اللامسة التي هي أهمُّ الحواسِّ للحيوان كما أنَّ السمعَ والبصرَ محلُّ السامعة والباصرة، والذي ينطق الأعيانُ دونَ الأعراض، ثم إنَّ اللامسةَ تشتمل على الذائقة التي هي الأهمُّ بعد اللامسة.

ثم قال: ويَلُوح مما قرَّرناه وجهٌ آخر للتخصيص، فإنَّ الأهمية للإنسان والاشتمالَ على أهمّ من غيرها يصلُح أن يكون مخصِّصاً، فانقلابُ ما يرجون منه أكملَ النفع أعجبُ، ومثلُه أحقُّ بالتوبيخ من غيره.

واعترِض عليه بأنَّ ردَّه على العلَّامة لم يصادف محزَّه؛ إذ ليس المراد مما ذكره من أنَّها ليس من شأنها الإدراك إلا إدراكَ أنواع المعاصي التي يشهَد عليها كالكفر والكذب والقتل والزنى مثلاً، وإدراكُ مثلها منحصرٌ في السمع والبصر.

وأنت تعلم بعد طيِّ كَشْح البحث في هذا الجواب أنَّ ما ذكره العلَّامة لا يناسب ظاهرَ السؤال، أعني: «لم شهدتم علينا»، وأولى ما قيل من أوجه التخصيص: إنَّ المدافعةَ عن الجلود أَزْيَدُ من المدافعة عن السمع والبصر، فإنَّ جلد الإنسان الواحد لو جُزِّئ لزاد على ألفِ سمعٍ وبصر، وهو يُدافِع عن كلِّ جزءٍ ويَحذَر أن يصيبه ما يَشِينُه، فكانت الشهادةُ من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع.

وفي الحديث: «إنَّ أولَ ما ينطق من الإنسان فَخِذُه اليسرى، ثم تنطق الجوارحُ، فيقول: تبًّا لكِ، فعنكِ كنتُ أدافع»(١).

ووجه إفراد السمع قد مرَّ أولَ التفسير، ووجه الاقتصار على السمعِ والبصرِ والجلدِ أشار إليه أبو حيان قال: لَمَّا كانت الحواسُّ خمسةً: السمعُ والبصرُ والشمُّ والذوقُ واللمسُ، وكان الذوقُ مندرجاً في اللمس إذ بمماسَّةِ جلد اللسان الرطب

---

(١) الحديث بمعناه عند أحمد في مسنده (١٧٣٧٤)، والطبري في تفسيره ٢٠/٤٠٩ عن عقبة بن عامر، وعند مسلم في صحيحه (٢٩٦٩) عن أنس ﷺ.

للمَذُوق يحصل إدراك طعم المذوق، وكان حسُّ الشمِّ ليس فيه تكليفٌ لا أمرٌ ولا نهيٌ، وهو ضعيف، اقتصر من الحواسِّ على السمع والبصر واللمس(١).

وللبحث فيه مجال، وكأني بك تختارُ أنَّ المرادَ بالجلود ما سوى السمع والأبصار، وأنَّ ذِكر السمع لِما أنه وسيلةُ إدراكِ أكثر الآيات التنزيلية، وذكر الأبصار لِما أنها وسيلةُ إدراك أكثر الآيات التكوينية.

وقد أشير إلى كلٍّ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ على وجه، وأنَّ شهادتَهما فيما يتعلَّق بالكفر، فيشهد السمعُ عليهم أنَّهم كذَّبوا بالآيات التنزيلية التي جاء بها الرسلُ وسمعوها منهم، والأبصارُ أنهم لم يعبؤوا بالآيات التكوينية التي أبصروها وكفروا بما تدلُّ عليه، ولعلَّ شهادةَ الجلود فيما يتعلَّقُ بما سوى الكُفْر من المعاصي التي نهى عنها الرسلُ عليهم السلام كالزنى مثلاً، وجوَّز أن تكون شهادةُ السمع بإدراك الآيات التنزيلية، والأبصارِ بإدراك الآيات التكوينية، والجلودِ بالكفر بما يقتضيه كلٌّ وبالمعاصي الأُخَر. ولا بُعْدَ في شمولِ «ما كانوا يعملون» لإدراك الآيات والإحساس بها بقسمَيْها، فتدبَّر.

ولعلَّ قولَه تعالى: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ﴾ سؤالٌ عن العلَّة الموجبة، وصيغةُ جمع العقلاء في «شهدتم» وما بعدُ ـ مع أنَّ المرادَ منه ليس من ذوي العقول ـ لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصَّيْن بالعقلاء.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «لم شهدتنَّ» بضمير المؤنَّثات(٢).

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أنطقنا الله تعالى وأقْدَرنا على بيانِ الواقع، فشَهِدْنا عليكم بما عملتم من القبائح وما كتمْنا. وحيث كان معنى السؤال: لأيِّ علَّةٍ موجبةٍ شهدتم؟ صلح ما ذكر جواباً له.

وقيل: لا قصدَ هنا للسؤال أصلاً، وإنما القصدُ إلى التعجُّب ابتداءً؛ لأنَّ التعجُّبَ يكون فيما لا يُعلَم سببُه وعلَّتُه، فالسؤالُ عن العلة المستلزمُ لعدم معرفتها

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٢.

(٢) البحر ٧/ ٤٩٣.

جُعِل مجازاً أو كنايةً عن التعجُّب، فقد قيل: إذا ظهر السببُ بطل العَجَب. فكأنه قيل: ليس نُطْقُنا بعَجَبٍ من قدرة الله تعالى الذي أنطق كلَّ شيء. وأيًّا ما كان فالنطقُ على معناه الحقيقيِّ كما هو الظاهر، وكذا الشهادة.

ولا يقال: الشاهدُ أنفسُهم، والسمعُ والأبصار والجلودُ آلاتٌ كاللسان، فما معنى «شهدتم علينا»؟ لأنه يقال: ليس المرادُ هذا النوعَ من النطق الذي يُسنَد حقيقةً إلى جملة الشخص ويكون غيرُه آلةً بلا قدرةٍ وإرادةٍ له في نفسه حتى لو أُسنِد إليه كان مجازاً كإسناد الكتابة إلى القلم، بل هو نطقٌ يُسنَد إلى العضو حقيقةً فيكون نفسُه ناطقاً بقدرةٍ وإرادةٍ خَلَقَهما الله تعالى فيه، كما ينطق الشخصُ بالآلة، وكيف لا وأنفسُهم كارهة لذلك مُنكِرة له.

وقيل: الناطقُ هم بتلك الأعضاء، إلا أنَّهم لا يقدرون على دفع كونها آلاتٍ، ولذا نُسِبت الشهادة عليهم إليها. وليس بشيء.

وجوَّز بعضُهم أن يكون النطقُ مجازاً عن الدلالة، فالمراد بالشهادة ظهورُ علاماتٍ على الأعضاء دالَّةٍ على ما كانت ملتبسةً به في الدنيا بتغيير أشكالها ونحوه، مما يُلهِم الله تعالى مَن رآه أنها تلَبَّست به في الدنيا؛ لارتفاع الغطاء في الآخرة. وهو خلافُ ظاهرِ الآيات والأحاديث، ولا داعي إليه.

وعلى الظاهر لا بدَّ من تخصيصِ «كلَّ شيء» بكلِّ حيٍّ نَطَق؛ إذ ليس كلُّ شيء ولا كلُّ حيٍّ ينطِق بالنُّطق الحقيقيِّ، ومثلُ هذا التخصيص شائعٌ، ومنه ما قيل في: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] و: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وجوِّز أن يكون النطقُ في «أنْطَقَنا» بمعناه الحقيقيِّ، ويحمل النطقُ في «أنطَقَ كلَّ شيء» على الدلالة، فيبقى العامُّ على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص المذكور، ويكون التعبيرُ بالنطق للمشاكلَة. وهو خلافُ الظاهر، والموصول المشعِر بالعلية يأباه إباءً ظاهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ يحتمل أن يكونَ من تمام كلام الجلود ومقولِ القول، ويحتمل أن يكون مستأنَفاً من كلامه عزَّ وجلَّ،

والأول أظهر. والمراد على كلِّ حالٍ تقريرُ ما قبله بأنَّ القادرَ على الخلق أولَ مرةٍ قادرٌ على الإنطاق.

وصيغةُ المضارع إذا كان الخطابُ يومَ القيامة مع أنَّ الرجع فيه متحقِّقٌ لا مستقبَلٌ؛ لِما أنَّ المرادَ بالرجع ليس مجرَّدَ الردِّ إلى الحياة بالبعث، بل ما يعمُّه وما يترتَّب عليه من العذاب الخالد المترقَّب عند التخاطُب على تغليب المتوقَّع على الواقع.

وجوِّز أن تكونَ لاستحضار الصورة مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حكايةٌ لِما سيقال لهم يومئذٍ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود، واستظهر أبو حيان[1] أنه من كلام الجوارح.

و«أن يَشْهَدَ» مفعولٌ له بتقدير مضافٍ، أي: ما كنتم تستترون في الدنيا عندَ مباشرتكم الفواحشَ مخافةَ أو كراهةَ أن تشْهَدَ عليكم جوارحُكم بذلك، أي: ليس استتارُكم للخوف مما ذُكر أو لكراهته ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ولكن لأجلِ ظنِّكم أنَّ الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون - وهو ما عملتم خُفيةً - فلا يُظهره سبحانه يوم القيامة ويُنطِق الجوارح به، فلذا سَعَيتُم في الاستتار عن الخلق دون الخالق عزَّ وجلَّ.

أو هو بتقدير حرف جرٍّ متعلِّق بـ «تَسْتَتِرُونَ»، فقيل: هو الباء، والمستتَر عنه الجوارحُ، والمعنى: ما اسْتَتَرْتُم عنها بملابسةِ أن تشهَد عليكم - أي: تتحمَّل الشهادةَ - إذ ما ظننتم أنَّها تشهَدُ عليكم، بل ظننتم أنَّ الله سبحانه لا يعلَم، فلذا لم يكن استتارُكم بهذا السبب. وقيل: هو «عن»، والمعنى: لم يُمكِنْكم الاستتارُ عن الجوارح لئلا تتحمَّل الشهادَة عليكم حين ترتكبون ما ترتكبون، لكنْ ظننتم ما ظننتم.

وقيل: «أن تَشهَد» مفعولٌ له، والمستتر عنه الجوارح، أي: ما تستترون عن جوارحكم مخافةَ أن تشهَدَ عليكم، لكنْ ظننتم.. إلخ.

---

(١) في البحر ٧/ ٤٩٣.

وقيل: إنَّ «تستَتِرُون» ضُمِّنَ معنى الظنِّ فعُدِّي تعديتَه، أي: ما كنتم تستترون ظانِّين شهادةَ الجوارح عليكم، ويؤيِّده قولُ قتادة: أي: ما كنتم تظنون أن تشهَدَ عليكم.. إلخ[(١)]. والحق أن هذا بيانٌ لحاصل المعنى؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: كنتُ مستتراً بأستارِ الكعبة، فجاء ثلاثةُ نفرٍ: قُرشيٌّ وثَقَفِيَّان، أو ثَقفيٌّ وقُرشِيَّان، كثيرٌ لحمُ بطونهم، قليلٌ عفةُ قلوبهم، فتكَلَّمُوا بكلامٍ لم أسْمَعْه، فقال أحدُهم: أَتَرونَ اللهَ يَسْمَع كلامَنا هذا؟ فقال الآخر: إنَّا إذا رَفَعْنا أصْوَاتَنا يَسمَعُه، وإذا لم نَرْفَعْ لم يَسْمَعْ. فقال الآخر: إن سَمِعَ منه شيئاً سمعه كلَّه. قال: فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[(٢)].

فالحكم المحكيُّ حينئذ يكون خاصًّا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفر، لكنَّه قليلٌ في الكَفَرَة.

وفي «الإرشاد»: لعل الأنسبَ أن يراد بالظنِّ معنًى مجازيٌّ يعمُّ معناه الحقيقيَّ وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٣] ليعمَّ ما حُكي من الحال جميعَ أصناف الكَفَرة، فتدبَّر[(٣)].

وفي الآية تنبيه على أنَّ المؤمنَ ينبغي أن لا يمرَّ عليه حالٌ إلا بملاحظةِ أنَّ عليه رقيباً، كما قال أبو نواس:

إذا ما خَلَوتَ الدهرَ يوماً فلا تقُل ... خَلَوتُ ولكنْ قُل عليَّ رَقِيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخْفَى عليه يَغِيبُ[(٤)]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٦.

(٢) مسند أحمد (٣٦١٤)، وصحيح البخاري (٤٨١٦)، وصحيح مسلم (٢٧٧٥)، وسنن الترمذي (٣٢٤٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٤٠٤)، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٢ لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي.

(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ١١.

(٤) ديوان أبي نواس ص١٠٣، وفيه: عليك. بدل: عليه. وهو الأنسب.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظَنِّهم المذكورِ في ضمنِ قوله سبحانه: «ظننتم»، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغايةِ بعدِ منزلته في الشرِّ والسوء، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ بدلٌ منه، وقولُه سبحانه: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ - أي: أهلككم - خبره.

وجوّز أن يكون «ظَنُّكُم» خبراً، و«أرداكُم» خبراً بعدَ خبر. وردَّه أبو حيان بأنَّ «ذلِكُم» إشارةٌ إلى ظَنِّهم السابق، فيصير التقدير: وظنُّكم بربِّكم أنَّه لا يعلم ظنَّكم بربِّكم. فما استُفِيد من الخبر هو ما استُفِيد من المبتدأ، وهو لا يجوز، كقولهم: سيِّدُ الجارية مالكُها[1]. وقد منعه النحاة.

وأجيب بأنَّه لا يلزم ما ذَكَر؛ لجوازِ جَعْل الإشارة إلى الأمر العظيم في القباحة، فيختلف المفهومُ باختلاف العنوان ويصحُّ الحملُ، كما في: هذا زيد. ولو سُلِّم فالاتحادُ مثله في قوله:

أنـا أبـو الـنـجـم وشـعـري شـعـري[2]

مما يدلُّ على الكمال في الحسن كما في هذا المثال، أو في القبح كما في الجملة المذكورة.

وقيل: المرادُ منه التعجُّب والتهكُّم، وقد يُراد من الخبر غيرُ فائدة الخبر ولازمِها. واختار بعضهم في الجواب ما أشار إليه ابن هشام في شرح: بانت سُعاد، وبسط الكلامَ فيه من أنَّ الفائدة كما تحصل من الخبر تحصل من صفته وقَيْدِه كالحال.

وجوّز في جملةِ «أَرْدَاكُم» أن تكونَ حالاً بتقدير «قد» أو بدونه.

والموصولُ في جميع الأوجه صفةُ «ظنكم». وقيل: الثلاثة أخبارٌ. فلا تغفل.

﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظنِّ السوءِ الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ إذ صار ما أُعْطُوا من الجوارح لنيل السعادة في الدنيا والآخرة لأنَّ بها تعيُّشَهم في

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٣.
(٢) سلف ٧/ ٣١٠.

الدنيا وإدراكَهم ما يهتدون به إلى اليقين ومعرفةِ ربِّ العالمين الموصِل للسعادة الأخروية = سبباً للشقاء في الدارَيْن، حيث أدَّاهم إلى كُفرانِ نِعَم الرازق، والكفرِ بالخالق، والانهماكِ في الغفلات، وارتكاب المعاصي، واتباع الشهوات.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ﴾ أي: محلُّ ثواءٍ وإقامةٍ أبدية لهم بحيث لا براحَ لهم منها، وترتيبُ الجزاء على الشرط؛ لأنَّ التقديرَ: إن يصبروا ـ والظنُّ أنَّ الصبرَ ينفعهم لأنه مفتاحُ الفرج ـ لا ينفعهم صبرُهم إذ لم يصادِفْ محلَّه، فإنَّ النار محلُّهم لا محالة.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: أو لا يصبروا، كقوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور: ١٦].

وقيل: المراد: فإن يصبروا على تركِ دينك واتباعِ هواهم فالنارُ مثوى لهم. وليس بذاك.

والالتفاتُ للإيذان باقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم ويُحكى سوءُ حالهم للغير، أو للإشعار بإبعادهم عن حيِّز الخطاب وإلقائهم في غيابة دَرَكات النار.

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ أي: يَسْألوا العُتَبى، وهي الرجوعُ إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ أي: المجابِين إليها.

وقال الضحاك: المراد: إن يعتذروا فما هم من المعذورين.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري: «وإن يُسْتَعْتَبُوا» مبنيًّا للمفعول «فما هم من المُعْتِبِيْن» اسم فاعل[١]، أي: إن طُلِب منهم أن يُرضُوا ربَّهم فما هم فاعلون، ولا يكون ذلك؛ لأنَّهم قد فارقوا الدنيا دارَ الأعمال كما قال ﷺ: «ليس بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ»[٢].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحتسب ٢/ ٢٤٥. والكلام من البحر ٧/ ٤٩٤.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨١)، والديلمي في مسند الفردوس (٨١٧٨)، كما في زهر الفردوس على هامشه ٥/ ٢٧٨ عن الحسن عن رجل من الصحابة.

ويحتمل أن تكون هذه القراءةُ بمعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدَّرنا، وفي «البحر»: أي: سَبَّبْنا لهم من حيث لم يحتسبوا[١]. وقيل: سلَّطنا ووكَّلْنا عليهم.

﴿قُرَنَاءَ﴾ جمعُ: قرينٍ، أي: أَخْدَاناً وأصحاباً من غُواة الجنِّ. وقيل: منهم ومن الإنس، يستَوْلُون عليهم استيلاءَ القَيْضِ وهو القِشْر على البَيْضِ.

وقيل: أصلُ القَيْضِ البدلُ، ومنه المقايَضَةُ للمعاوَضَة، فتَقْيِيْضُ القرين للشخص إمَّا لاستيلائه عليه أو لأخذه بدلاً عن غيره من قرنائه.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ حسَّنوا وقرَّروا في أنفسهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: من أمر الآخرة، حيث ألقَوا إليهم أنَّه لا جنةَ ولا نارَ ولا بعثَ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات.

وقال الحسن: «ما بين أيديهم» من أمر الدنيا، و«ما خلفهم» من أمر الآخرة.

وقال الكلبي: «ما بين أيديهم» أعمالُهم التي يُشاهِدونها، و«ما خلفهم» ما هم عامِلُوه في المستقبل[٢]. ولكلٍّ وجهةٌ، ولعلَّ الأحسن ما حُكي عن الحسن.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتقرَّر عليهم كلمةُ العذاب وتحقَّق موجبُها ومصداقُها، وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

﴿فِي أُمَمٍ﴾ حالٌ من الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أُمَم، وقيل: «في» بمعنى «مع»، ويحتمِل المعنيَيْنِ قولُه:

إن تَكُ عن أَحْسَنِ الصَّنِيْعَة مأْ ... فُوكاً ففي آخَرِين قَدْ أُفِكُوا[٣]

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٤.

(٢) قول ابن عباس والحسن والكلبي في البحر ٧/ ٤٩٤.

(٣) سلف ١١/ ١٢٧.

وفي «البحر»[(١)]: لا حاجةَ للتضمين مع صحة معنى «في».

وتنكيرُ «أُمَم» للتكثير، أي: في أُمَمٍ كثيرةٍ.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأبِ هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأُمَم، وجوِّز كونُه لهم بقرينة السياق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو: قال بعضُهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تُنصِتوا له؛ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ وهو بمكة إذا قَرأَ القرآنَ يرْفَعُ صوتَه، فكان المشركون يَطْرُدُون الناسَ عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وأْتُوا باللَّغْوِ عند قراءته ليتشوَّشَ على القارئ[(٢)].

والمرادُ باللغو ما لا أصلَ له، وما لا معنى له. وكان المشركون عند قراءته عليه الصلاة والسلام يأتُون بالمُكاءِ والصفير والصِّياح وإنشاد الشعر والأراجيز.

وقال أبو العالية: أي: قَعُوا فيه وعِيبُوه[(٣)].

وفي كتاب ابن خالويه: قرأ عبد الله بن بكر السهمي[(٤)] وقتادة وأبو حيوة وأبو السمال والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بخلاف عنهما: «وَالْغُوا» بضمِّ الغين[(٥)]، مضارعُ: «لَغا» بفتحها، وهما لغتان، يقال: لَغِيَ يَلْغَى، ك: رضِيَ

---

(١) ٧/ ٤٩٤.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٢، وهو عند الطبري ٢٠/ ٤١٧ مختصراً.

(٣) البحر ٧/ ٤٩٤، وهو في النكت والعيون ٥/ ١٧٨ عن ابن عباس.

(٤) في مطبوع القراءات الشاذة ص١٣٣: عبد الله بن بكير السلمي، والمثبت من الأصل و(م) والبحر ٧/ ٤٩٤، والكلام منه. وعبد الله بن بكر السهمي هو أبو وهب البصري، سمع أباه بكر بن حبيب السهمي وغيره، وعنه أحمد وابن المديني وغيرهما. توفي (٢٠٨هـ). تاريخ الإسلام ٥/ ٩٨. وينظر التعليق الذي بعده.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٩، والبحر ٧/ ٤٩٤. وفي المحتسب ٢/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤١٣: بكر بن حبيب السهمي. بدل: عبد الله بن بكر السهمي. وقد ذكر الخلاف في البحر ٧/ ٤٩٤.

يَرْضَى، ولَغَا يَلْغُو ك: عدا يَعْدُو: إذا هَذَى، وقال صاحبُ «اللوامح»(١): يجوز أن يكونَ الفتحُ من لَغِي بالشيء يَلْغَى به: إذا رَمَى به، فيكون «فيه» بمعنى «به»، أي: ارْمُوا به وانبذوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: تغلبونه على قراءته، أو تطمِسون أمرَه وتُميتون ذكره.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فوالله لنُذِيقنَّ هؤلاء القائلين، والإظهارُ في مقام الإضمار للإشعار بالعِلِّية، أو: جميعَ الكفار، وهم يدخلون فيه دخولاً أوليًّا.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقادَر قدرُه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: جزاءَ سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ، ف «أفعل» للزيادة المطلقة، وقيل: إنه سبحانه لا يُجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصِلةِ الأرحام وقِرَى الأضياف؛ لأنها مُحبَطَة بالكفر، والعذابُ إما في الدارين أو في إحداهما، وعن ابن عباس: «عذاباً شديداً» يومَ بدر، و«أسوأ الذي كانوا يَعْمَلُون» في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من الجزاء، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، أي: ما ذكر من الجزاء جزاءٌ معَدٌّ لأعدائه تعالى، وقوله سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ لـ «جزاء»، أو بدلٌ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ.

وجوِّز أن يكون ذلك خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، و«جَزاء» مبتدأ و«النارُ» خبره، والإشارةُ حينئذٍ إلى مضمون الجملة السابقة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ جملةٌ مستقلَّةٌ مقرِّرةٌ لِما قبلها، وجوِّز أن يكون «النار» مبتدأ وهذه الجملة خبره، أي: هي بعينها دارُ إقامتهم؛ على أنَّ «في» للتجريد كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقول الشاعر:

وفي الله إن لم يُنصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ(٢)

---

(١) كما في البحر ٧/ ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣، والبحر ٧/ ٤٩٥، وصدره: أباحت بنو مروان ظُلماً دماءَنا. كما في معاهد التنصيص ٣/ ١٦، وعزاه في الحماسة البصرية ١/ ٨١ لأبي الخطار بشر بن صفوان =

وهو أن يُنتزَعَ من أمر ذي صفةٍ آخَرَ مثلُه مبالغةً فيها. وجُوِّز أن يقال: المقصود ذكرُ الصفةِ، والدارُ إنما ذُكرت توطئةً، فكأنه قيل: لهم فيها الخلود.

وقيل: الكلامُ على ظاهره والظرفيةُ حقيقيةٌ، والمرادُ: إنَّ لهم في النار المشتملة على الدرَكات دارٌ مخصوصةٌ هم فيها خالدون. والأول أبلغ.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ منصوبٌ بفعل مقدَّرٍ، أي: يجْزَوْنَ جزاءً. أو بالمصدر السابق، فإنَّ المصدر ينتصب بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] والباء الأولى متعلِّقةٌ بـ «جزاء»، والثانية بـ «يجحدون» قدِّمت عليه لقصد الحصر الإضافيِّ مع ما فيه من مراعاة الفواصل، أي: بسببِ ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقَّةِ دونَ الأمور التي ينبغي جحودُها. وجعل بعضهم الجحودَ مجازاً عن اللَّغْوِ المسبَّب عنه، أي: جزاءً بما كانوا بآياتنا يَلْغُون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم متقلِّبون فيما ذكر من العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون فريقَيْ شياطين النوعَيْنِ المقيَّضَيْنِ لهم الحامِلَيْنِ لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وقتادة أنَّهما إبليسُ وقابيل، فإنهما سببا الكفرِ والقتلِ بغير حقٍّ(١).

وتعقِّب بأنه لا يصحُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فإنَّ قابيل مؤمنٌ عاصٍ. والظاهر أنَّ الكفارَ إنَّما طلبوا إراءةَ المضلِّين بالكفر المؤدِّي إلى الخلود. وكونُهم رئيسَ الكَفَرَة ورئيسَ أهل الكبائر خلافُ الظاهر.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «أَرْنا» بالتخفيف(٢)، كفَخْذ بالسكون في فَخِذ. وفي «الكشاف»: «أَرِنا» بالكسر للاستبصار، وبالسكون

= الكلابي، برواية: أقادَتْ بنو مروان قيساً دماءنا. وقد سلف الشطر الثاني ١٢/ ٤٤٠ بتغير في اللفظ.

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٦، وتفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٠، والمستدرك ٢/ ٤٤٠.

(٢) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

للاستعطاء، ونقله عن الخليل(١)، فمعنى القراءة عليه: أَعْطِنا اللَّذَيْنِ أضلّانا.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسُهما بها انتقاماً منهما. وقيل: نجعلهما في الدَّرْك الأسفل من النار ليشتدَّ عذابهما، فالمراد: نجعلْهما في الجهة التي تحت أقدامنا.

وقرئ في السبعة: «اللَّذَيْنِّ» بتشديد النون(٢)، وهي حجَّةٌ على البصريين الذين لا يجوِّزون التشديدَ فيها في حالِ كونها بالياء، وكذا في اللتين وهذين وهاتين.

﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ذلًّا ومهانةً، أو مكاناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ شروعٌ في بيان حُسْن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيانِ سوءِ حالِ الكَفَرة فيهما، أي: قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته، كما يُشعِر به الحصرُ الذي يُفيده تعريفُ الطرفَيْنِ كما في: صديقي زيد.

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم ثَبَتُوا على الإقرار ولم يَرجِعوا إلى الشرك، فقد رُوي عن الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه تلا الآية ـ وهي قد نزلت [فيه] على ما رُوي عن ابن عباس(٣) ـ ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يُذنِبوا. قال: قد حملتُم الأمرَ على أَشَدِّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان(٤).

وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا لله تعالى بطاعته، لم يَرُوغُوا رَوَغان الثعالب(٥).

وعن عثمان رضي الله عنه: أخلَصُوا العملَ.

وعن الأمير عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أدَّوا الفرائض(٦).

وقال الثوري: عَمِلُوا على وِفاق ما قالوا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) هي قراءة ابن كثير كما في التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٨.

(٣) قول ابن عباس أن الآية نزلت في أبي بكر ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٥٤، والرازي ٢٧/ ١٢١، وما استدركناه بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٠.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٢٥)، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٥.

(٦) قول عثمان وعلي في الكشاف ٣/ ٤٥٣، والبحر ٧/ ٤٩٦.

وقال الفضيل: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية.

وقال الربيع: أعرَضُوا عمَّا سوى الله تعالى[(١)].

وفي «الكشاف»: أي: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته[(٢)]، وأراد أنَّ من قال: ربِّي الله تعالى، فقد اعترف أنه عزَّ وجلَّ مالكه ومدبِّر أمره ومربِّيه، وأنه عبدٌ مربوبٌ بين يدي مولاه، فالثباتُ على مقتضاه أن لا تزلَّ قدمُه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطَّاه، وفيه يندرج كلُّ العبادات والاعتقادت، ولهذا قال ﷺ لمن طلب أمراً يعتَصِم به: «قل: ربي الله تعالى، ثم استقم»[(٣)]. وذُكر أنَّ ما ورد عن الخلفاء الراشدين ﷺ جزئياتٌ لهذا المعنى، ذكر كلٌّ منها على سبيل التمثيل[(٤)].

ولا يخفى أنَّ كلامَ الصِّدِّيق ﷺ يُبعِد كونَ ما ذَكَره على سبيل التمثيل.

ولعلَّ «ثم» على هذا للتراخي الرُّتبي، فإنَّ الاستقامةَ عليه أعظمُ وأصعبُ من الإقرار، وكذا يقال على أغلب التفاسير السابقة. وجوِّز أن تكونَ للتراخي الزماني لأنها تحصُل بعد مدةٍ من وقت الإقرار.

وجُعِلت على تفسير الاستقامة بأداء الفرائض أو بالعمل للتراخي الرتبي أيضاً، بناءً على أنَّ الإقرارَ مبدأُ الاستقامة على ذلك ومنشؤها، وهذا على عكس التراخي الرتبي الذي سمعتَه أولاً؛ لأنَّ المعطوفَ عليه فيه أعلى مرتبة من المعطوف إذ هو العمدةُ والأساس، وعلى ما تقدَّم المعطوفُ أعلى مرتبةً من المعطوف عليه كما لا يخفى.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ من الله ربِّهم عزَّ وجلَّ ﴿الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال مجاهد والسدي: عند الموت[(٥)]. وقال مقاتل: عند البعث، وعن زيد بن أسلم: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث[(٦)].

---

(١) الأقوال الثلاثة في تفسير القرطبي ١٨/٤١٦-٤١٧، والبحر ٧/٤٩٦.

(٢) الكشاف ٣/٤٥٣.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٤١٠) عن سفيان بن عبد الله الثقفي، وقال: حسن صحيح. وهو عند مسلم (٣٨) بلفظ: «قل: آمنت بالله، فاستقم».

(٤) حاشية الشهاب ٧/٣٩٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/٤٢٦.

(٦) قول مقاتل في النكت والعيون ٥/١٨٠، وقول ابن زيد في إعراب القرآن للنحاس ٤/٦٠.

وقيل: «تتنزَّلُ عليهم»: يُمِدُّونهم فيما يعِنُّ ويطرَأُ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرَحُ صدورَهم ويدفع عنهم الخوفَ والحزنَ بطريق الإلهام، كما أنَّ الكفرةَ يُغوِيهم ما قُيِّضَ لهم من قُرَناء السوء بتزيين القبائح. قيل: وهذا هو الأظهر لِما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزُّلهم في المواطن الثلاثة السابقة وغيرها، وقد قدمنا لك أنَّ جمعاً من الناس يقولون بتنزُّل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين، وأنَّهم يأخذون منهم ما يأخذون، فتذكَّر.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدمون عليه، فإنَّ الخوفَ غمٌّ يلحَقُ لتوقُّع المكروه ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلَّفتم، فإنَّه غمٌّ يلحَق لوقوعه من فوات نافعٍ أو حصول ضارٍّ. ورُوي هذا عن مجاهد(١).

وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ حسناتكم فإنها مقبولةٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورةٌ.

وقيل: المراد نهيهُم عن الغموم على الإطلاق، والمعنى أنَّ الله تعالى كتب لكم الأمنَ من كلِّ غمٍّ فلن تذوقوه أبداً.

و«أن» إما مصدريةٌ و«لا» ناهية، أو نافية وسقوط النون للنصب، والخبرُ في موضع الإنشاء مبالغةً. وإما مخفَّفةٌ من الثقيلة، و«تَتَنَزَّلُ» مضمَّن معنى العلم، و«لا» ناهيةٌ، و«أن» في الوجهين مقدَّرةٌ بالباء، أي: بأنْ لا تخافوا، أو بأنه لا تخافوا، والهاء ضميرُ الشأن. وإما مفسِّرةٌ و«تَتَنَزَّل» مضمَّن معنى القول، و«لا» ناهيةٌ أيضاً.

وفي قراءة عبد الله: «لا تَخافُوا» بدون «أَنْ»(٢)، أي: يقولون: لا تخافوا. على أنه حالٌ من «الملائكة» أو استئنافٌ.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: التي كنتم تُوعَدونها في الدنيا على ألسنة الرُّسُل عليهم السلام، هذا من بِشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة، وقولُه تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى آخِره من بشاراتهم في الدنيا، أي: أعوانُكم في أمورِكم نُلهِمُكم الحقَّ ونُرشِدكم إلى ما فيه خيرُكم وصلاحُكم.

---

(١) في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٧ بمعناه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٦، والقراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٩٦.

ولعلَّ ذلك عبارةٌ عما يخطرُ ببال المؤمنين المستمرِّين على الطاعات من أنَّ ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييدِه لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام، ويجوز على قول بعض الناس أن تقولَ الملائكةُ لبعض المتقين شفاهاً في غير تلك المواطن: «نَحْنُ أَوْلياؤُكم في الحياةِ الدنيا».

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ﴾ نُمِدُّكم بالشفاعة ونتلقَّاكم بالكرامة حين يقع بين الكَفَرَة وقرنائِهم ما يقع من الدعاوى والخِصام. وذهب بعض المفسِّرين على أنَّ هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة أيضاً، على معنى: كنا نحنُ أولياؤكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة. وقيل: هذا من كلام الله تعالى دون الملائكة، أي: نحن أولياؤُكم بالهداية والكفاية في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فُنُون الملاذِّ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ ما تتمنَّون، وهو افتعالٌ من الدعاء بمعنى الطلب، أي: تَدَّعُون لأنفسكم.

وهو عند بعضٍ أعمُّ من الأول؛ لأنَّه قد يَقَعُ الطلبُ في أمورٍ معنويةٍ وفضائلَ عقليةٍ روحانيةٍ. وقيل: بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، إذ قد يشتهي المرءُ ما لا يطلبه كالمريض يشتهي ما يضرُّه ولا يريده، وكون التمنِّي أعمَّ من الإرادة غير مسلَّم، نعم قيل: إذا أريد بالمتمنَّى ما يصحُّ تمنِّيه لا ما يُتمنَّى بالفعل فذاك.

وقال ابن عيسى[1]: المراد: ما تَدَّعُون أنَّه لكم فهو لكم بحُكْمِ ربِّكم.

«ولكم» في الموضعين خبرٌ، و«ما» مبتدأٌ، و«فيها» حالٌ من ضميره في الخبر، وعدمُ الاكتفاء بعطفِ «ما تَدّعون» على «ما تَشْتَهِي» للإيذان باستقلالِ كلٍّ منهما.

﴿نُزُلًا﴾ قال الحسن: مَنًّا[2]. وقال بعضهم: ثواباً. وتنوينُه للتعظيم، وكذا وصفُه بقوله تعالى: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، والمشهورُ أنَّ النُّزُلَ ما يُهَيَّأُ للنزيل ـ أي: الضيف ـ ليأكله حين نزوله، وتحسُن إرادتُه هنا على التشبيه؛ لِما في ذلك من الإشارة إلى عِظَم ما بعدُ من الكرامة.

---

(١) هو علي بن عيسى، وقوله في النكت والعيون ٥/ ١٨٠.
(٢) المصدر السابق.

وانتصابه على الحال من الضمير في الظرف الراجع إلى «ما تَدَّعُوْنَ» لا من الضمير المحذوف الراجع إلى «ما» لفسادِ المعنى؛ لأنَّ التمنِّي والادِّعاء ليس في حال كونه نُزُلاً، بل ثَبَتَ لهم ذلك المدَّعى واستقرَّ حالَ كونه نُزُلاً، وجعْلُه حالاً من المبتدأ نفسه لا يخفى حالُه على ذي تمييز.

وقال ابن عطية[1]: «نُزُلاً» نصبٌ على المصدر. والمحفوظ أنَّ مصدرَ «نَزَل» نُزُولٌ، لا نُزُلٌ، وجعله بعضُهم مصدراً لـ «أَنْزَلَ». وقيل: هو جمع نازِلٍ، كشارِفٍ وشُرُف، فينتَصِبُ على الحال أيضاً، أي: نازِلين، وذو الحال على ما قال أبو حيان: الضميرُ المرفوعُ في «تَدَّعُونَ»[2]. ولا يحسُن تعلُّقُ «مِنْ غَفُورٍ» به على هذا القول، فقيل: هو في موضع الحال من الضمير في الظرف. فلا تغفل.

وقرأ أبو حيوة: «نُزْلاً» بإسكان الزاي[3].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده تعالى وطاعته، والظاهرُ العمومُ في كلِّ داعٍ إليه تعالى، وإلى ذلك ذهب الحسن ومقاتل وجماعة[4].

وقيل بالخصوص، فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، وعنه أيضاً: هم أصحاب محمد ﷺ[5]. وقالت عائشة وقيس بن أبي حازم وعكرمة ومجاهد: نزلت في المؤذِّنين[6]، وينبغي أن يُتأوَّل قولُهم على أنَّهم داخلون في الآية، وإلا فالسورةُ بكمالها مكيةٌ بلا خلاف، ولم يكن الأذانُ بمكة إنما شُرِع بالمدينة. والتزامُ القول بتأخُّرِ حكمها عن نزولها كما ترى.

والظاهر أنَّ المرادَ الدعاءُ باللسان، وقيل: به وباليد، كأن يدعُوَ إلى الإسلام ويُجاهِد.

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ١٥.
(٢) البحر ٧/ ٤٩٧.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٥، والبحر ٧/ ٤٩٧.
(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨١، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٤٩٧.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٣، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧.
(٦) أخرجه عن عائشة وعكرمة النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ٦٠-٦١، وأخرجه عن قيسٍ الطبريُّ في تفسيره ٢٠/ ٤٣٠-٤٣١، وقول مجاهد في زاد المسير ٧/ ٢٥٦، والبحر ٧/ ٤٩٧.

وقال زيد بن عليٍّ: دعا إلى الله بالسيف[١]، ولعلَّ هذا ـ والله تعالى أعلم ـ هو الذي حَمَلَه على الخروج بالسيف على بعض الظَّلَمَة من ملوك بني أمية.

وكان زيدٌ هذا رضي الله عنه عالماً بكتاب الله تعالى وله تفسيرٌ ألقاه على بعض النَّقَلَة عنه وهو في حبسِ هشامِ بن عبد الملك، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظٌّ وافرٌ. ويقال: إنه كان إذا تَناظَر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناسُ بالمحابر، يكتبون ما يصدُر عنهما من العلم، رحمهما الله تعالى ورضي عنهما.

والاستفهامُ في معنى النفي، أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً، أيَّ عملٍ صالحٍ كان. وقال أبو أمامة: صلَّى بين الأذان والإقامة[٢]. ولا يخفى ما فيه، وقال عكرمة: صلَّى وصام. وقال الكلبي: أدَّى الفرائضَ[٣]. والحقُّ العمومُ.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: تلَفَّظَ بذلك ابتهاجاً بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب؛ إذ هو لا ينافيه. أو: جَعَلَ واتخذ الإسلامَ ديناً له، من قولهم: هذا قول فلان، أي: مذهبُه ومعتَقَدُه، وبعضهم يُرجِع الوجهين إلى وجهٍ واحدٍ، والمعنى على القول بكون الآية خاصَّةً بالنبيِّ ﷺ: اختار النسبةَ إلى الإسلام دون عزِّ الدنيا وشَرَفها. وهو ردٌّ على قولهم: «لا تَسْمَعُوا لهذا القُرْآن» وتعجيبٌ منه.

وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال: «وقال إنِّي» بنون مشدَّدةٍ، دونَ نون الوقاية[٤].

واستدلَّ أبو بكر ابن العربي[٥] بالآية على عدم اشتراط الاستثناء في قول القائل: أنا مسلم، أو: أنا مؤمن.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٤١٩، وهو قول عائشة رضي الله عنها كما في النكت والعيون ٥/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥.

(٣) البحر ٧/ ٤٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦، والبحر ٧/ ٤٩٧.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠.

وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عامِلاً عَمَلاً صالحاً؛ ليكون الناسُ إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثْرَ بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والربِّ عزَّ وجلَّ؛ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذيَّة المشركين ومُقابلةِ إساءتهم بالإحسان، والحكم عامٌّ، أي: لا تستوي الخصلةُ الحسنةُ والسيئةُ في الآثار والأحكام.

و«لا» الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفْي، مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٢١] لأن «اسْتَوَى» لا يكتفي بمفردٍ.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لحُسْن عاقبة الحسنة، أي: ادفع السيئةَ حيث اعترضَتْك من بعض أعاديك «بالتي هي أحسنُ» منها، وهي الحسنةُ، على أنَّ المرادَ بالأحسن الزائدُ مطلقاً، أو بأحسنِ ما يُمكِن دفعُها به من الحسنات كالإحسان إلى مَن أساء، فإنه أحسنُ من مجرَّد العَفْو، فـ «أحسن» على ظاهره، والمفضَّل عليه عامٌّ ولذا حُذِف، كما في: الله تعالى أكبر.

وإخراجه مخرج الجواب عن سؤالِ مَن قال: كيف أصنع؟ للمبالغة والإشارةِ إلى أنه مُهِمٌّ ينبغي الاعتناءُ به والسؤالُ عنه، وللمبالغة أيضاً وُضِع «أَحْسَن» موضعَ الحسنة، لأنَّ مَن دَفَع بالأحسن هان عليه الدفعُ بما دونه.

ومما ذكرنا يُعلَم أن ليس المرادُ بالحسنة والسيئة أمرين معيَّنين، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه: الحسنة: حُبُّ الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام، والسيئةُ: بغضُهم. وعن ابن عباس: الحسنة: لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك. وقال الكلبيُّ: الدعوتان إليهما. وقال الضحاك: الحلم والفحش. وقيل: الصبر وضدُّه. وقيل: المداراة والغلظة[1]. وقيل غير ذلك، ولا يخفى أنَّ بعضَ المرويِّ يكاد لا تصحُّ إرادتُه هنا، فلعلَّه لم يثبت عمَّن رُوي عنه.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٨٢، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧-٢٥٨، والبحر ٧/ ٤٩٨، والكلام منه.

وجوِّز أن يكون المرادُ بيانَ تفاوُتِ الحسنات والسيئات في أنفسهما، بمعنى أنَّ الحسنات تتفاوَتُ إلى حسن وأحسن، والسيئات كذلك، فتعريفُ «الحسنة» و«السيئة» للجنس، و«لا» الثانيةُ ليست مزيدةً، وأفعل على ظاهره، والكلام في «ادْفَع» إلخ على معنى الفاء، أي: إذا كان كلٌّ من الجنسين متفاوِت الأفراد في نفسه، فادْفَعْ بأحسن الحسنتين السيِّئ والأسْوَأ. وتركُ الفاء للاستئناف الذي ذكرنا، وهو أقوى الوصلين. ولعلَّ الأولَ أقربُ.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بيانٌ لنتيجة الدفع المأمور به، أي: فإذا فعلتَ ذلك صار عدوُّك المشاقُّ مثل الوليِّ الشفيق. قال ابن عطية: دخلَتْ «كأنَّ» المفيدةُ للتشبيه؛ لأن العدوَّ لا يعود وليًّا حميماً بالدفع بالتي هي أحسن، وإنما يحسُن ظاهرُه فيُشبِه بذلك الوليَّ الحميم[1]. ولعلَّ ذلك من باب الاكتفاء بأقلِّ اللازم، وهذا بالنظر إلى الغالب، وإلا فقد تزول العداوةُ بالكلية بذلك، كما قيل:

إنَّ العداوةَ تَسْتَحِيلُ مودَّةً ... بتدارُكِ الهَفَواتِ بالحَسَناتِ[2]

و«الذي بَيْنَك وبَيْنَه عَداوَةٌ» أبلغُ من: عدوُّك. ولذا اختير عليه مع اختصاره.

والآية قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدوًّا مُبيناً لرسول الله ﷺ، فصار عند أهل السنَّة وليًّا مُصافِياً[3]. وكأنَّ ما عندَه انتقل إلى ولدِ ولده يزيد عليه من الله عزَّ وجلَّ ما يستحقُّ.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُلَقَّى ويُؤتى هذه الفعلة والخصلة الشريفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن. فالضميرُ راجعٌ لِما يُفهَم من السياق، وجوِّز رجوعُه لـ «التي هي أحْسَن»، وحكى مكي أنَّ الضميرَ لشهادةِ أن لا إله إلا الله[4]. فكأنه أرجَعَ لـ «التي هي أحسن» وفُسِّرت بالشهادة المذكورة، ومع هذا هو كما ترى.

وقيل: الضمير للجنةِ، وليس بشيء.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.

(٢) البيت في همع الهوامع ١/ ٤١٤ دون نسبة.

(٣) تفسير البغوي على هامش تفسير الخازن ٤/ ١١٢.

(٤) البحر ٧/ ٤٩٨.

وقرأ طلحة وابن كثير في روايةٍ: «وما يُلاقاها» من الملاقاة[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: الذين فيهم طبيعةُ الصبر وشأنُهم ذلك.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ ذو نصيبٍ عظيمٍ من خصال الخير وكمالِ النفس، كما رُوي عن ابن عباس، وقال قتادة: ذو حظٍّ عظيمٍ من الثواب[2]. وقيل: الحظُّ العظيمُ: الجنة، وعليهما فهو وعدٌ، وعلى الأول هو مَدْحٌ.

وكُرِّر «وَما يُلَقَّاها» تأكيداً لمدح تلك الفعلة الجميلة الجليلة.

ولأوحدِ أهلِ عصره الذي بَخِل الزمانُ أن يأتي بمثله صالح أفندي كاتب «ديوان الإنشاء في الحدباء» في هذه الآية عبارةٌ مختصرةٌ التزم الدقَّةَ فيها رحمة الله تعالى عليه، وهي قوله تعالى: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟) الآيةَ: يمكنُ أن يؤخَذ من الأول ما هو من أوَّلِ الأُول لا الثاني للاتفاق، فيتحقَّق الأشرفُ بعد إعطاء المقام حقَّه، فيتحقَّق الحابسُ أنه مَجْدُود، فيَقِفُ عند الحدِّ المحدود. انتهت.

وأراد ـ والله تعالى أعلم ـ أنه يمكن أن يُؤخَذ من الأول، أي: قوله تعالى: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟) ومن الثاني وهو قولُه سبحانه: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ما ـ أي: شكلٌ ـ هو مِن أولِ ضُروبِ الشكل الأول الأربعة، وهو قياسٌ منه مركَّبٌ من مُوجِبتَيْنِ كُلِّيَّتَيْنِ يُنتِج موجبةً كلِّيَّةً، بأن يقال: كلُّ صابرٍ هو الذي يُلقَّاها، وكلُّ من يُلقَّاها فهو ذو حظٍّ عظيم، يُنتج: كلُّ صابرٍ هو ذو حظٍّ عظيم.

ولا يمكن أن يُؤخَذ قياسٌ من الشكل الثاني للاتفاق في الكَيْفِ، وشرطُ الشكل الثاني اختلافُ المقدِّمَتين فيه كما هو مقرَّرٌ في محلِّه، فيتحقَّقُ بعد الأخذِ وتركيبِ المقدِّمتَيْنِ الأمرُ الأشرفُ، أي: النتيجةُ التي هي مُوجِبةٌ كُلِّيةٌ، وهي أشرفُ المحصوراتِ الأربع؛ لاشتمالها على الإيجاب الأشرف من السلب والكليةِ الأشرف من الجزئية، بعد إعطاء المقام حقَّه من جعل الموصول للاستغراقِ كما أشير إليه ليفيدَ الكليةَ، فعند ذلك يتحقَّقُ ويعلم الحابسُ ـ أي: الصابرُ ـ أنه

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٩٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢، والبحر ٧/ ٤٩٨.

مَجْدُود، أي: ذو جَدٍّ وحظٍّ، فيقف عند الحدِّ المحدود ولا يتجاوزُ من الصبر إلى غيره، فافهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النَّزْغ: النَّخْسُ، وهو المسُّ بطَرَفِ قضيبٍ أو أصبعٍ بعنفٍ مُؤلِم، استُعِيرَ هنا للوسوسة الباعثة على الشرِّ، وجُعل نازغاً للمبالغة على طريقةِ: جَدَّ جدُّه، فـ «من» على هذا ابتدائيةٌ.

ويجوز أن يُراد به: نازغٌ، على أنَّ المصدرَ بمعنى اسم الفاعل، وصفاً للشيطان، فـ «من» بيانيةٌ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال. أو هي ابتدائيةٌ أيضاً لكن على سبيل التجريد.

وجوَّز أن يكون المرادُ بالنازغ وسوسة الشيطان.

و«إن» شرطيةٌ، و«ما» مزيدةٌ، أي: وإن يَنْزَغَنَّكَ ويَصرِفَنَّك الشيطانُ عمَّا وُصِّيتَ به من الدفع بالتي هي أحسنُ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرِّه ولا تُطِعْه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فيسمع سبحانه استعاذَتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ فيعلم جلَّ شأنُه نيَّتَك وصلاحَك.

وقيل: «السميعُ» لقولِ مَن آذاك، «العليمُ» بفعله فينتقم منه مُغنِياً عن انتقامك. وقيل: «العليمُ» بنزغ الشيطان. وفي جعل ترك الدفع من آثار نَزَغاتِ الشيطان مزيدُ تحذيرٍ وتنفيرٍ عنه، ولعلَّ الخطابَ من باب: إياك أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَه.

وجوَّز أن يرادَ بالشيطان ما يعمُّ شيطانَ الإنس، فإنَّ منهم مَن يَصرِف عن الدفع بالتي هي أحسن ويقول: إنَّه عدوُّك الذي فَعَلَ بك كيتَ وكيتَ، فانتَهِز الفرصةَ فيه وخُذْ ثأرَك منه؛ لتعظُم في عينه وأعْيُنِ الناس، ولا يظنَّ فيك العجزَ وقلَّةَ الهمَّة وعدمَ المبالاة. إلى غير ذلك من الكلمات التي ربَّما لا تخطُر أبداً ببالِ شيطانِ الجنِّ، نعوذ بالله تعالى السميع العليم من كلِّ شيطان.

وفسَّر عبدُ الرحمن بن زيد النزغَ بالغضب[1]، واستدلَّ بالآية على استحبابِ الاستعاذة عنده؛ وقد روى الحاكم عن سليمان بن صُرَد قال: استَبَّ رُجُلان عند

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٣٥-٤٣٦، والنكت والعيون ٥/ ١٨٣.

النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ غضبُ أحدهما، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «إنّي لأعْلَمُ كلمةً لو قالها لذهَبَ عنه الغضبُ: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ)[١]. ولعلَّ الغضب من آثار الوسوسة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالَّة على شؤونه الجليلة جلَّ شأنه ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في حدوثهما وتعاقُبِهما وإيلاجِ كلٍّ منهما في الآخر ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في استنارتهما واختلافهما في قوَّة النور والعِظَم والآثار والحركات مثلاً، وقدَّم ذكرَ الليل ـ قيل ـ تنبيهاً على تقدُّمِه مع كون الظلمة عدماً، وناسَبَ ذكرُ الشمس بعد النهار؛ لأنها آيتُه وسببُ تنويره، ولأنها أصلٌ لنور القمر بناءً على ما قالوا من أنه مستفادٌ من ضياء الشمس، وأما ضياؤُها فالمشهورُ أنه غيرُ طارئٍ عليها من جرمٍ آخَر. وقيل: هو من العرش، والفلاسفةُ اليومَ يظنون أنه من جرمٍ آخَرَ وادَّعوا أنهم يَرَونَ في طرفٍ من جرمِ الشمس ظلمةٌ قليلةٌ.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى المسخَّرة على وفق إرادته تعالى مثلكم ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير ـ قيل ـ للأربعة المذكورة، والمقصودُ تعليقُ الفعل بالشمس والقمر لكن نظم معهما الليل والنهار إشعاراً بأنهما من عدادِ ما لا يَعلَم، ولا يختار ضرورةَ أنَّ الليلَ والنهارَ كذلك، ولو ثنَّى الضميرَ لم يكن فيه إشعارٌ بذلك.

وحُكْمُ جماعةِ ما لا يَعقِل ـ على ما قال الزمخشريُّ[٢] ـ حُكمُ الأنثى، فيقال: الأقلامُ بَرَيْتُها وبَرَيْتُهنَّ. فلا يُتوَهَّم أنَّ الضميرَ لَمَّا كان للَّيل والنهارِ والشمسِ والقمرِ كان المناسبُ تغليبَ الذكور، والجوابُ بأنَّه لَمَّا كُنَّ من الآيات عُدَّت كالإناث تكلُّفٌ عنه غِنًى بالقاعدة المذكورة.

نعم قال أبو حيان: ينبغي أن يفرَّق بين جمع القلَّة من ذلك وجمع الكثرة، فإنَّ

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٤١، وأصل الحديث عند البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٥٤.

الأفصحَ في الأول أن يكونَ بضميرِ الواحدة، تقول: الأجذاعُ انكَسَرت. على الأفصح. والأفصح في الثاني أن يكون بضمير الإناث، تقول: الجُذُوع انكَسَرْنَ. وما في الآية ليس بجمعِ قلةٍ بلفظٍ واحدٍ، لكنه منزَّلٌ منزلةَ المعبَّر عنه به[1].

وقيل: الضميرُ للشمس والقمر، والاثنان جمعٌ، وجمعُ ما لا يعقل يؤنَّث، ومن حيث يقال: شُمُوسٌ وأقمارٌ، لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضميرُ إليهما جمعاً.

وقيل: الضميرُ للآيات المتقدِّم ذكرُها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ فإنَّ السجودَ أقصى مراتبِ العبادة، فلا بدَّ من تخصيصه به عزَّ وجلَّ.

وكان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وابن مسعود يسجُدان عند «تَعْبُدُون»، ونُسب القولُ بأنه موضِعُ السجدة للشافعيِّ[2].

وسجَدَ عند «لا يسأمون» ابنُ عباس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله، وكذلك رُوي عن ابن وهب ومسروق والسلمي والنخعي وأبي صالح وابن وثاب والحسن وابن سيرين وأبي حنيفة رضي الله عنهم[3].

ونقله في «التحرير» عن الشافعيِّ رضي الله عنه[4]. وفي «الكشف»: أصحُّ الوجهين عند أصحابنا - يعني الشافعيَّة - أنَّ موضع السجدة ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة، ووجهه أنها تمامُ المعنى على أسلوب «اسْجُد»، فإنَّ الاستكبارَ عنه مذمومٌ.

وعلَّله بعضُهم بالاحتياط؛ لأنها إن كانت عند «تَعْبُدُون» جاز التأخيرُ لقصر الفصل، وإن كانت عند «يسأمون» لم يَجُز تعجيلُها.

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٢٤، والبحر ٧/ ٤٩٩، وتفسير الخازن ٤/ ١١٢.
(٣) المصادر السابقة، وينظر: زاد المسير ٧/ ٢٥٩، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٨.
(٤) البحر ٧/ ٤٩٩.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تعاظَموا عن اجتنابِ ما نُهُوا عنه من السجود لتلك المخلوقات وامتثالِ ما أُمِروا به من السجود لخالقهنَّ، فلا يعبأُ بهم، أو: فلا يُخِلُّ ذلك بعظمة ربِّك ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في حضرة قدسِه عزَّ وجلَّ من الملائكة عليهم السلام الذين هم خيرٌ منهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: دائماً وإن لم يكن عندهم ليلٌ ونهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾ لا يَملُّون ذلك.

وجوابُ الشرط في الحقيقة ما أشرنا إليه أو نحوُه، وما ذُكر قائمٌ مقامَه، ويجوز أن يكون الكلام على معنى الإخبار كما قيل في نحوِ: إن أكرمتني اليومَ فقد أكرمتُك أمسِ: إنَّه على معنى: فأُخبِرك أني قد أكرمتُك أمسِ.

وقرئ: «لا يِسأمُون» بكسر الياء(١).

والظاهر أنَّ الآيةَ في أناسٍ من الكَفَرَة كانوا يسجُدون للشَّمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكبَ، ويزعمون أنهم يقصُدُون بالسجود لهما السجودَ لله تعالى، فنُهُوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصُدوا بسجودهم وجهَ الله تعالى خالصاً.

واستدلَّ الشيخ أبو إسحاق في «المهذب» بالآية على صلاتي الكسوف والخسوف، قال: لأنه لا صلاةَ تتعلَّق بالشمس والقمر غيرُهما(٢). وأخذ من ذلك تفضيلَهما على صلاة الاستسقاء؛ لكونهما في القرآن بخلافها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى﴾ يا مَن تصحُّ منه الرؤية ﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً متطامِنةً، مستعارٌ من الخشوع بمعنى التذلُّل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: المطرَ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرَّكت بالنبات وانتفخت؛ لأنَّ النبتَ إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرضُ وانتفخت ثم تصدَّعت عن النبات.

ويجوز أن يكونَ في الكلام استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شُبِّهَ حالُ جُدوبة الأرض وخلوِّها عن النبات ثم إحياءِ الله تعالى إياها بالمطر وانقلابِها من الجدوبة إلى الخصب وإنباتِ كلِّ زوج بهيج = بحالِ شخصٍ كئيبٍ كاسفِ البال رثِّ الهيئة لا يُؤْبَهُ به، ثم

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٥٤.

(٢) المهذب ١/ ٩٠.

إذا أصابه شيءٌ من متاع الدنيا وزينتها تكلَّف بأنواع الزينة والزخارف، فيختال في مَشْيه زهواً فيهتزُّ بالأعطاف خيلاءَ وكِبْراً. فحُذِف المشبَّهُ واستُعمِل الخشوعُ والاهتزازُ دلالةً على مكانه، ورُجِّح اعتبارُ التمثيل.

وقرئ: «رَبَأَتْ»[(١)]، أي: زادت. وقال الزجاج: معنى «رَبَتْ»: عَظُمَت، و«رَبَأَتْ» بالهمز: ارتفَعَتْ[(٢)]، ومنه الربيئة، وهي طليعةٌ على الموضع المرتفع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بما ذُكر بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ مبالغ[(٣)] في القدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحَّة والاستقامة، فيحملونها على المحامِل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يَضَعُون الكلامَ في غير موضعه[(٤)].

وأصلُه من أَلْحَدَ: إذا مال عن الاستقامة فحفر في شقٍّ، ويقال: لَحَدَ.

وقرئ: (يُلْحِدُونَ) و«يَلْحَدُون» باللُّغتين[(٥)].

وقال قتادة هنا: الإلحاد التكذيب، وقال مجاهد: المكاء والصفير واللَّغْو[(٦)].

فالمعنى: يميلون عمَّا ينبغي ويليق في شأنِ آياتنا، فيكَذِّبون القرآن، أو فيَلْغُون ويَصفرون عند قراءته.

وجوِّز أن يرادَ بالآيات ما يشمَل جميعَ الكتب المنزَّلة، وبالإلحاد ما يشمَل تغييرَ اللفظ وتبديلَه، لكن ذلك بالنسبة إلى غير القرآن؛ لأنَّه لم يقَعْ فيه كما وقع في غيره من الكتب على ما هو الشائع.

وعن أبي مالك تفسيرُ الآيات بالأدلَّة، فالإلحادُ في شأنها الطعنُ في دلالتها

---

(١) هي قراءة أبي جعفر كما في النشر ٢/ ٣٢٥.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٣٨٨.

(٣) في (م): مبالغة، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤١.

(٥) قرأ بالأولى الجمهور، وبالثانية حمزة، كما في التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣.

(٦) الأثران في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤١، والنكت والعيون ٥/ ١٨٤.

والإعراضُ عنها، وهذا أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ إلخ. وما تقدَّم أوفق بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وبما بعد، والآية على تفسير مجاهد أوفقُ وأوفقُ.

والمراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ مُجازاتهم على الإلحاد، فالآيةُ وعيدٌ لهم وتهديدٌ، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تنبيهٌ على كيفية الجزاء، وكان الظاهر أن يقابَل الإلقاءُ في النار بدخول الجنة لكنه عُدِل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناءً بشأن المؤمنين؛ لأنَّ الأمنَ من العذاب أعمُّ وأهمُّ، ولذا عُبِّر في الأول بالإلقاء الدالِّ على القسر والقهر، وفيه بالإتيان الدالِّ على أنَّه بالاختيار والرضا مع الأمن، ودخولُ الجنة لا ينفي أن يبدِّل حالَهم من بعد خوفهم أمناً.

وجُوِّز أن تكونَ الآية من الاحتباك بتقدير: مَن يأتي خائفاً ويُلقَى في النار ومَن يأتي آمناً ويدخل الجنةَ. فحُذِف من الأول مقابلُ الثاني، ومن الثاني مقابلُ الأول. وفيه بعدٌ.

والآية كما قال ابن بحر عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ ومؤمنٍ[1].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل، ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[2].

وأخرج عبد الرزاق وغيره عن بشير بن تميم: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل، و﴿مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ عمار، والآية نزلت فيهما[3].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان. وقيل: فيه وفي عمر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٥، والبحر ٧/ ٥٠٠.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٦.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٨، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٦.

وقيل: فيه وفي حمزة. وقال الكلبي: فيه وفي الرسول ﷺ(١).

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ تهديدٌ شديدٌ للكفَرَة الملحِدين الذين يُلقَون في النار، وليس المقصودُ حقيقةَ الأمر. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غيرِ أن يمضِيَ عليهم زمانٌ يتأمَّلون فيه ويتفكَّرون ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ لا يوجَدُ نظيرُه، أو: منيعٌ لا تتأتَّى معارضتُه. وأصلُ العزِّ حالةٌ مانعةٌ للإنسان عن أن يُغلَب، وإطلاقُه على عدم النظير مجازٌ مشهورٌ، وكذا كونه منيعاً.

وقيل: غالبٌ للكُتُب؛ لنَسْخِه إياها.

وعن ابن عباس: أي: كريمٌ على الله تعالى(٢).

والجملة حاليَّةٌ مفيدةٌ لغايةِ شناعةِ الكفر به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاب»، وما بين يديه وما خلفه كنايةٌ عن جميع الجهات، كالصباح والمساء كنايةٌ عن الزمان كلِّه، أي: لا يتطرَّقُ إليه الباطلُ من جميع جهاته، وفيه تمثيلٌ لتشبيهه بشخصٍ حُمِي من جميع جهاته، فلا يمكّن أعداءه الوصول إليه لأنه في حِصْنٍ حصينٍ من حماية الحقِّ المبين.

وجوِّز أن يكون المعنى: لا يأتيه الباطلُ من جهةِ ما أَخْبَر به من الأخبار الماضية والأمورِ الآتية.

وقيل: الباطل بمعنى المُبطِل، كـ: وارِس بمعنى: مُورِس، أو هو مصدرٌ كالعافية(٣)، بمعنى مُبطِلٍ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ - أي: محمودٍ على ما أَسْدَى من

---

(١) الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٨٥، وزاد المسير ٧/ ٢٦١، والبحر ٧/ ٥٠٠.
(٢) البحر ٧/ ٥٠١.
(٣) في الأصل: كالعاقبة.

النعم التي منها تنزيلُ الكتاب، وحمدُه سبحانه بلسان الحال متحقِّقٌ من كلِّ مُنعَمٍ عليه، وبلسان القال متحقِّقٌ ممن وُفِّق لذلك ـ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو صفةٌ أخرى لـ «كتاب» مفيدةٌ لفخامته الإضافية، كما أنَّ الصفتَيْنِ السابقتَيْنِ مفيدتان لفخامته الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾ إلخ، اعتراضٌ عند مَن لا يجوِّز تقديمَ غير الصريح من الصفات على الصريح، كلُّ ذلك لتأكيدِ بطلان الكفر بالقرآن.

واختلفوا في خبر «إنَّ» أمذكورٌ هو أو محذوفٌ؟ فقيل: مذكورٌ، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وهو قول أبي عمرو ابن العلاء في حكايةٍ جرت بينه وبين بلال بن أبي بُردة، سئل بلالٌ في مجلسه عن هذا فقال: لم أجد لها نفاذاً. فقال له أبو عمرو: إنه منك لقريب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤][(١)]. وذهب إليه الحوفي. وهو في مكان بعيد.

وذهب أبو حيان إلى أنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بحذفِ العائد، أي: الكافرون [به] وحاله أنَّه كتابٌ عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ منهم، أي: متى راموا إبطالاً له لم يصلوا إليه. أو بجعل «أل» في «الباطل» عوضاً من الضمير قول[(٢)] الكوفيين، أي: لا يأتيه باطلهم. أو قولُه سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ إلخ، والعائدُ أيضاً محذوفٌ، أي: ما يقال لك في شأنهم ـ أو فيهم ـ إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، أي: أُوحي إليك في شأنِ هؤلاء المكذِّبين لك ولِما جئت به مثلُ ما أُوحِي إلى مَن قبلَك من الرسل، وهو أنهم عاقبتُهم سيئةٌ في الدنيا بالهلاك، وفي الآخرة بالعذاب الدائم. ثم قال: وغاية ما في هذين التوجيهين حذفُ الضمير العائد، وهو موجودٌ نحو: السمنُ مَنَوان بدِرْهَم، والبرُّ كُرٌّ بدرهم، أي: منه.

ونَقَل عن بعض نُحاة الكوفة أنَّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾، وتَعقَّبه بأنه لا يُتعقَّل[(٣)].

---

(١) نقله في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ عن النقاش، وهو في البحر ٧/ ٥٠٠.

(٢) قبلها في (م): به، وهو خطأ.

(٣) البحر ٧/ ٥٠٠-٥٠١، وما سلف بين حاصرتين منه.

وقيل: هو محذوفٌ، وخبرُ «إنَّ» يُحذَف لفهم المعنى.

وسأل عيسى بنُ عُمر عَمْرو بنَ عبيد عن ذلك، فقال عمرو: معناه في التفسير: إنَّ الذين كفروا بالذكر لَمَّا جاءهم كَفَرُوا به وإنه لكتاب عزيز. فقال عيسى: أَجَدْتَ يا أبا عثمان[١].

وقال قوم: تقديره: معاندون، أو: هالكون.

وقال الكسائي: قد سدَّ مسدَّه ما تقدَّم من الكلام قبلُ، وهو قوله تعالى: «أفمن يلقى»[٢]، وكأنه يُريد أنَّه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، فيمكن أن يقدَّر: يُخلَّدون في النار.

ويقدّر الخبر على ما استحسنه ابن عطية[٣] بعد «حميد».

وفي «الكشاف» أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ بدلٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾[٤]. قال في «البحر»: ولم يتعرَّض بصريح الكلام إلى خبر «إنَّ» أمذكورٌ هو أو محذوفٌ، لكنه قد يُدَّعى أنه أشار إلى ذلك، فإنَّ المحكومَ به على المبدَل منه هو المحكومُ به على البدل، فيكون التقديرُ: إنَّ الذين يُلحِدون في آياتنا، إن الذين كفروا بالذكر لَمَّا جاءهم لا يَخْفون علينا[٥].

وفي «الكشف»: فائدةُ هذا الإبدال التنبيهُ على أنَّه ما يَحمِلهم على الإلحاد إلا مجرَّدُ الكفر، وفيه إمدادُ التحذير من وجوه: ما ذُكر من التنبيه، ووضْعُ «الذكر» موضعَ الضمير الراجع إلى الآيات زيادةَ تحسيرٍ لهم، وما في «لَمَّا» من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء، وما فيه من التعظيم لشأن الآيات والتمهيدِ للحديث عن كمال الكتاب الدالِّ على سوء مغبَّةِ المُلحِد فيه.

ثم الأشبهُ أن يحمَلَ كلامُ «الكشاف» على أنَّ الخبرَ محذوفٌ لدلالة السابق

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩، والبحر ٧/ ٥٠٠.
(٢) البحر ٧/ ٥٠٠.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ١٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٥.
(٥) البحر ٧/ ٥٠٠.

عليه، ولزيادة التهويل لذهاب الوهم كلَّ مذهبٍ، وتكون الجملةُ بدلاً عن الجملة؛ لأنَّ البدلَ بتكرير العامل إنَّما جُوِّز في المجرور لشدَّة الاتصال. انتهى، فتأمَّل، والله تعالى الموفِّق.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ إلى آخره، تسليةٌ له ﷺ عمَّا يُصيبه من أذيَّة الكفار من طعنهم في كتابه وغير ذلك، فالقائلُ الكفارُ، أي: ما يقول كفَّارُ قومِك في شأنك وشأنِ ما أُنزِل إليك من القرآن ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ أي: مثل ما قد قال الكَفَرة السابقون ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكلام المؤذي المتضمِّن للطعن فيما أنزل إليهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: تعليلٌ لِما يُستفاد من السياق من الأمر بالصبر، كأنه قيل: ما يقال لك إلا نحوُ ما قيل لأمثالك من الرسل، فاصبِرْ كما صبروا، إنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ عظيمةٍ لأوليائه، وذو عقابٍ أليم لأعدائهم، فينصُرُ أولياءَه وينتقم من أعدائهم.

أو جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: إنَّ ربَّك لذو مغفرة لأوليائه، وذو عقابٍ أليم لأعدائهم، وقد نصر لذلك مَن قبلك مِن الرسل عليهم السلام وانتقم من أعدائهم، وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً.

وجُوِّز أن يكونَ القائلُ هو الله تعالى والمعنى على ما سمعتَ عن أبي حيان، وقد جَعَل هذه الجملةَ خبرَ «إنَّ»، أي: ما يُوحِي الله تعالى إليك في شأن الكفَّار المؤذِين لك إلَّا مثلَ ما أَوْحَى للرسل من قبلك في شأن الكفار المؤذِين لهم، من أنَّ عاقبتَهم سيئةٌ في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فاصبِرْ إنَّ ربك.. إلخ[1].

وقد يُجعَل «إنَّ ربك» إلخ، باعتبار مضمونه تفسيراً للمقول، فحاصل المعنى: ما أُوحِي إليك وإلى الرسل إلا وعدُ المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة، دونَ العكس الذي يزعمه الكَفَرة بلسان حالهم، فاصبر فسيُنجِز الله تعالى وعدَه.

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٠-٥٠١.

وقيل: المقول هو الشرائع، أي: ما يُوحَى إليك إلا مثلُ ما أُوحِي إلى الرسل من الشرائع دونَ أمور الدنيا، وقد جرت عادةُ الكفار بتكذيب ذلك، فما عليك إذا كَذَّب كفارُ قومك، واصبر على ذلك. وجُعِل «إنَّ ربك» إلخ تعليلاً لِما يُستفاد من السياق أيضاً. وجَعَله بعضُهم تفسيراً لذلك المقول، أعني: الشرائعَ؛ لأنها الأوامرُ والنواهي الإلهية، وهي مجمَلة فيه، وفيه من البعد ما فيه.

وإلى نحو ما ذكرناه أولاً ذهب قتادة؛ أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: (مَّا يُقَالُ لَكَ) من التكذيب (إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)، فكما كُذِّبوا كُذِّبْتَ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبِرْ على أذى قومك لك(١).

واختيار «أَلِيم» على: شَديد ـ مع أنه أنسبُ بالفواصل ـ للإيماء إلى أنَّ نظمَ القرآن ليس كالأسجاع والخُطَب، وأنَّ حسنَه ذاتيٌّ والنظرُ فيه إلى المعاني دون الألفاظ، ويُحسِّن وصفَ العقاب به هنا كونُ العقاب جزاءَ التكذيب المؤلم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابٌ لقولهم: هلَّا أُنزِل القرآنُ بلغة العجم، والضميرُ لـ «الذكر».

﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَت لنا وأُوضِحت بلسانٍ نَفْقَهُه.

وقولُه تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ـ بهمزتين: الأولى للاستفهام، والثانية همزةُ «أعجَمِيّ»، والجمهورُ يقرؤون بهمزة استفهام بعدها مدَّةٌ هي همزةُ «أعجمي»(٢) ـ إنكارٌ مقرِّرٌ للتحضيض، أي: أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ أو مرسلٌ [إليه](٣) عربيٌّ؟! وحاصلُه: لو أنه نَزَل كما يريدون لأنكروا أيضاً وقالوا: ما لَكَ وللعُجْمَة. أو: ما لَنا وللعُجْمة.

والأعجميُّ أصله: أعجم، بلا ياء، ومعناه مَن لا يُفهَم كلامُه للُكْنَتِه أو لغَرابةِ لغتِه، وزيدت الياءُ للمبالغة كما في أحمريٍّ ودَوَّارِيٍّ، وأطلِق على كلامه مجازاً لكنه

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٧، وهو في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤٦.

(٢) ينظر ما ورد فيها من وجوه في التيسير ص١٩٣، والنشر ١/ ٣٦٦، والبحر ٧/ ٥٠٢.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ١٦، ولا يتم المعنى بدونها، وينظر ما سيرد قريباً من كلام المصنف على كلمة «عربي».

اشتهر حتى التحقَ بالحقيقة، وزعم صاحبُ «اللوامح» أنَّ الياء فيه بمنزلة ياءِ «كُرسي» وهو وهمٌ.

وقيل: «عَرَبيٌّ» ـ على احتمالِ أن يكونَ المرادُ: ومرسلٌ إليه عربيٌّ ـ مع أنَّ المرسلَ إليهم جمعٌ، فحقُّه أن يقال: عربيةٌ أو عربِيُّون؛ لأنَّ المرادَ بيانُ التنافي والتنافُر بين الكلام وبين المخاطَب به، لا بيانُ كونِ المخاطَب به واحداً أو جمعاً، ومن حقِّ البليغ أن يجرِّد الكلامَ للدلالة على ما ساقه له، ولا يأتي بزائدٍ عليه إلا ما يشدُّ من عَضُده، فإذا رأى لباساً طويلاً على امرأةٍ قصيرةٍ قال: اللباسُ طويلٌ واللابسُ قصيرٌ. دونَ: واللابسةُ قصيرةٌ؛ لأنَّ الكلامَ لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته، فلو قال لخُيِّلَ أنَّ لذلك مدخلاً فيما سيق له الكلام، وهذا أصلٌ من الأصول يجب أن يكونَ على ذكرٍ، ويبنى عليه الحذفُ والإثباتُ والتقييدُ والإطلاقُ إلى غير ذلك في كلام الله تعالى وكلِّ كلامٍ بليغٍ.

وقرأ عمرو بن ميمون: «أَعَجَمِيٌّ» بهمزة استفهام وبفتح العين[1]، أي: أكلامٌ منسوبٌ إلى العَجَم. وهم مَن عدا العرب، وقد يخصُّ بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً، فبين الأعجميِّ والعَجَمِيِّ عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ.

والظاهرُ أنَّ المراد بالعربيِّ مقابلُ الأعجميِّ في القراءة المشهورة، ومقابلُه العَجَميُّ في القراءة الأخرى.

وقرأ الحسن وأبو الأسود والجحدريُّ وسلام والضحَّاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما «أَعْجَمِيٌّ» بلا استفهام وبسكون العين[2]، على أنَّ الكلامَ إخبارٌ بأنَّ القرآن أعجميٌّ، والمتكلِّم به أو المخاطَب عربيٌّ.

وجوِّز أن يكونَ المرادُ: هلا فُصِّلَتْ آياتُه فجُعل بعضُها أعجميًّا لإفهام العَجَم، وبعضُها عربيًّا لإفهام العرب. ورُوي هذا عن ابن جبير[3]، فالكلامُ بتقدير مبتدأ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠، والبحر ٧/ ٥٠٢.
(٢) البحر ٧/ ٥٠٢، وهي رواية هشام عن ابن عامر كما في التيسير ص١٩٣، والنشر ١/ ٣٦٦.
(٣) البحر ٧/ ٥٠٢.

هو: بعضٌ، أي: بعضُها أعجميٌّ وبعضُها عربيٌّ، والمقصودُ من الجملة الشرطية إبطالُ مقتَرَحِهم ـ وهو كونه بلغة العجم ـ باستلزامه المحذورَ، وهو فواتُ الغَرَض منه، إذ لا معنى لإنزاله أعجميًّا على مَن لا يفهمه، أو الدلالةُ على أنَّهم لا ينفكُّون عن التعنُّت، فإذا وُجِدت الأعجميةُ طلبوا أمراً آخَرَ، وهكذا.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾ يَهدي إلى الحقِّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور من شكٍّ وشبهةٍ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ، خبرُه: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، على أنَّ «في آذانهم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«وَقْرٌ» مبتدأٌ، أي: مستقِرٌّ في آذانهم وَقْرٌ، أي: صَمَمٌ منه فلا يسمعونه. وقيل: خبرُ الموصول «في آذانِهم»، و«وَقْرٌ» فاعلُ الظرف.

وقيل: «وَقْر» خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه هو، أي: القرآنُ، و«في آذانِهم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «وَقْر». ورجّح بأنه أوفَقُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

ومَن جوَّز العطفَ على معمولَي عاملين عَطَفَ الموصولُ على الموصول الأول، و«وَقْر» على «هُدى»، على معنى: هو للذين آمنوا هُدًى وللذين لا يؤمنون وَقْرٌ، وقولُه تعالى: «في آذانهم» ذُكِرَ بياناً لمحلِّ الوقر، أو حالٌ من الضمير في الظرف الراجع إلى «وَقْر». والأول أبلغ، ويَرِد عليه بعد الإغماض عمَّا في جواز العطف المذكور من الخلاف أنَّ فيه تنافراً بجعل القرآن نفسَ الوقر لاسيَّما وقد ذُكر محلُّه وليس كجعله نفسَ العمى؛ لأنه يُقابِل جعلَه نفسَ الهدى، فرُوعِي الطِّباقُ ولذا لم يبيِّن محلَّه، وأما الوَقْر إذا جُعِل نفسَ الكتاب فهو كالدخيل ولم يطابق ما وَرَد في سائر المواضع من التنزيل، وهذا يَرِد على الوجه الذي قبله أيضاً.

وجَوَّز ابن الحاجب في «الأمالي» أن يكونَ «وَهُوَ علَيْهِم عَمًى» مرتبطاً بقوله سبحانه: (هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ) والتقديرُ: هو للذين آمنوا هدًى وعلى الذين لا يؤمنون عمًى، وقولُه تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ) جملةٌ معترضةٌ على الدعاء.

وتعقّب بأنَّ هذا وإن جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعاني مردودٌ لفكِّ النظم.

وزعم بعضُهم أنَّ ضميرَ «هُو» عائدٌ على الوقر، وهو من العمى كما ترى.

وأولى الأوجُه ما تقدَّم، وجيء بـ «على» في «عليهم عمًى» للدلالة على استيلاء العمى عليهم، ولم يُذكَر حالُ القلب لِمَا عُلِم من التعريض في قوله سبحانه: «للذين آمنوا هدى وشفاء» بأنه لغيرهم مرضٌ فظيعٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافِه بما في حيِّز صلتِه، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعدِ منزلته في الشرِّ مع ما فيه من كمال المناسَبة للنداء من مكانٍ بعيدٍ، أي: أولئك البعداءُ الموصوفون بما ذُكر من التَّصَامِّ عن الحقِّ الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات التي يُشاهِدونها.

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ تمثيلٌ لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له بمن يُنادَى من مسافةٍ نائيةٍ فهو يَسمَع الصوتَ ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه، أو لا يسمَعُ ولا يفهم، فقد حَكَى أهلُ اللغة أنه يقال للذي لا يَفهَم: أنتَ تُنادَى مِن بعيدٍ، وإرادةُ هذا المعنى مرويةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ومجاهد[1].

وعن الضحاك أنَّ الكلامَ على حقيقته، وأنهم يومَ القيامةُ ينادَون بكُفرهم وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بُعدٍ حتى يسمَع ذلك أهلُ الموقف، فتعظُمُ السمعةُ عليهم وتحلُّ المصائبُ بهم.

وحاصلُ الردِّ أنه هادٍ للمؤمنين شافٍ لِما في صدورهم كافٍ في دفع الشُّبَه، فلذا وَرَدَ بلسانهم مُعجِزاً بَيِّناً في نفسه مُبيِّناً لغيره، والذين لا يؤمنون بمعزلٍ عن الانتفاع به على أيِّ حالٍ جاءهم.

وقرأ ابن عمر وابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وابن هرمز: «عَمٍ» بكسر الميم وتنوينه[2].

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٣. والكلام وما بعده منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١، والبحر ٧/ ٥٠٣.

وقال يعقوب القارئ وأبو حاتم: لا ندري نوَّنوا أم فَتَحوا الياء على أنه فعلٌ ماضٍ. وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار وسليمان بن قتيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ أنَّ الاختلافَ في شأنِ الكتب عادةٌ قديمةٌ للأمم غيرُ مختصٍّ بقومك، على منهاجِ قوله تعالى: (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ) على ما سمعتَ أولاً، أي: وبالله لقد آتينا موسى التوراةَ فاختُلِف فيها، فمِن مصدِّقٍ لها ومُكذِّب، وهكذا حالُ قومك في شأنِ ما آتيناك من القرآن، فمن مؤمنٍ به وكافر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقِّ أمتك المكذِّبة، وهي العِدَةُ بتأخير عذابهم وفَصْلِ ما بينهم وبينَ المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المكذِّبين كما فُعِل بمكذِّبي الأمم السالفة.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفارُ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ ۝٤٥﴾ مُوجِبٍ للقلَقِ والاضطراب، وقيل: الضميرُ الثاني للتوراة والأولُ لليهود بقرينة السياق، لأنهم الذين اختلفوا في كتاب موسى عليه السلام. وليس بشيء.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأنْ آمنَ بالكتب وعَمِل بمُوجَبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه يَعمَله، أو: فلنفسه نفعُه لا لغيره، و«مَن» يصحُّ فيها الشرطيةُ والموصوليةُ، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرُّه، لا على الغير.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مبنيٌّ على تنزيلِ ترك إثابة المُحسِن بعمله أو إثابة الغير بعمله، وتنزيلِ التعذيب بغير إساءة أو بإساءةِ غيره = منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدورُه عنه تعالى، ولم يَحْتَجْ بعضُهم إلى التنزيل، وقد مرَّ الكلام في ذلك وفي توجيه النفي والمبالغة، فتذكَّر.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئل عنها قيل: الله تعالى يعلم، أو: لا يعلمها

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١، والبحر ٧/ ٥٠٣.

إلا الله عز وجل. فالمقصود من هذا الكلام إرشادُ المؤمنين في التفصِّي[١] عن هذا السؤال، وكلا الجوابين يلزمه اختصاصُ علمِها به تعالى، أما الثاني فظاهرٌ، وأما الأول فلأنك إذا سُئلتَ عن مسألةٍ وقلت: فلانٌ يعلمه. كان فيه نفْي عنك كنايةً، وتنبيهٌ على أنَّ فلاناً أهلٌ أن يُسأَل عنه دونك.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، جمعُ «كِمٍّ» بالكسر، وهو وعاءُ الثمرة كجفِّ الطلعة، مِن كَمَّه: إذا ستره. وقد يُضَمُّ، وكُمُّ القميص بالضم.

وقرأ الحسن في روايةٍ والأعمشُ وطلحة وغيرُ واحد من السبعة: «من ثَمَرَةٍ»[٢]، على إرادة الجنسِ والجمعِ لاختلاف الأنواع.

وقرئ: «من ثَمَرَاتٍ من أَكْمامِهِنَّ» بجَمْع الضمير أيضاً[٣].

و«ما» نافية، و«مِنْ» الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنصِّ عليه، و«من» الثانية ابتدائيةٌ، وكذا «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: حَمْلَها، وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ في موضع الحال، والباءُ للملابسة أو المصاحبة، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال، أي: ما يحدُثُ شيءٌ من خروج ثمرةٍ ولا حَمْلِ حامل ولا وَضْعِ واضعٍ مُلابَساً أو مُصاحَباً بشيء من الأشياء إلا مصاحَباً أو ملابَساً بعلمه المحيط سبحانه واقعاً حسبَ تعلُّقِه به.

وجُوِّز في «ما»[٤] الأولى أن تكون موصولةً معطوفةً على «الساعة» أي: إليه يُرَدُّ علم الساعة وعلمُ ما تَخرُج، و«من» الأولى بيانيةٌ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، و«من» الثانية على حالها، وتأنيثُ «تخرج» باعتبار المعنى لأنَّ «ما» بمعنى ثمرة. قيل: ولا يجوز في «ما» الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرَّغ، وأجازه

---

(١) أي: التخلص. القاموس (فصى).

(٢) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم، وقرأ بها يعقوب وخلف من العشرة. التيسير ص١٩٤، والبحر ٧/ ٥٠٤، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٦.

(٤) قوله: ما، ليس في (م).

بعضُهم، ويكفي لصحة التفريغ النفيُ في قوله تعالى: (وَلَا تَضَعُ)، وجملةُ «لا تَضع» إما حالٌ أو معطوفةٌ على جملة «إليه يُرَد» إلخ.

ولا يخفى عليك أنَّ المتبادِرَ في الموضعين النفيُ، ثم إنَّ الاستثناءَ متعلِّقٌ بالكلِّ، وتبيينُ القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة وجَعْلُه الأصلَ في تعلُّقِ المفرَّغ كما سمعتَ لإظهار المعنى والإيماءِ إلى أنه لا يُحتاج في مثله إلى حذفٍ من الأولَين، أعني: «ما تَخْرُج» و«ما تحمِل»، وهو قريبٌ من أسلوب:

وقد حِيْلَ بينَ العَيْرِ والنزَوَان[1]

لأنَّ: خَرَجَ زيدٌ، معناه: حَدَثَ خروجُه، كما أنَّ معنى ذلك فعلُ الحيلولة، وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقِّب لجملٍ والخلافِ في متعلَّقه في شيء؛ لأنَّ ذلك في غير المفرَّغ، فقد ذكر النحويون في باب التنازُع وإن كان منفياً بـ «إلا» فالحذف ليس إلا، ولو كان منه لم يكن من المختلَف فيه؛ لاتحاد الجمل في المقصود وظهورِ قرينة الرجوع إلى الكلِّ.

والكلامُ على ما في «شرح التأويلات»[2] متصلٌ بأمر الساعة والبعث، فإنَّه لا يَعلَم هذا كلَّه إلا اللهُ تعالى، فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة، وأنَّ الكلَّ إيجادٌ بعد العدم بقدرته عز وجل فيكون كالبرهان على الحشر.

وجوِّز أن يكون متصلاً بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ إلخ الآية: ٣٧]، وبقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ إلخ [الآية: ٣٩]، فالمعنى: من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن تخرُجَ الثمراتُ وتَحمِل الحواملُ وتَضَع حسبَ علمه جلَّ وعلا، والأولُ أقرب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: بزعمكم كما نصَّ عليه بقوله سبحانه: ﴿أَيْنَ

---

(١) سلف ١/ ٢٣٣.

(٢) لمحمد بن عبد الحميد السمرقندي، علاء الدين أبي بكر، الفقيه الحنفي، المتوفى سنة (٥٥٢هـ)، شرح فيه كتاب التأويلات لأبي منصور الماتريدي في أربع مجلدات. هدية العارفين ٢/ ٩٢.

﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وفيه تهكُّمٌ بهم وتقريعٌ لهم. و«يوم» منصوبٌ بـ «اذكر»، أو ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّر قد تُرِك إيذاناً بقصور البيان عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وضمير «يُنادِيهم» عامٌّ في كلِّ مَن عَبَدَ غيرَ الله تعالى فيندرج فيه عَبَدَةُ الأوثان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: أولئك المنادَون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أعلَمْناك، والمرادُ بالإعلام هنا الإخبارُ؛ لأنَّه تعالى عالِمٌ فلا يصحُّ إعلامُه بما هو سبحانه عالمٌ به، بخلاف الإخبار فإنه يكون للعالم، فكأنه قيل: أخبرناك.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: بأنه ليس منا أحدٌ يشهَدُ لهم بالشركة، فالجملة في محلِّ نصبِ مفعولِ «آذَنَّاك» وقد عُلِّق عنها، وفي تعليق بابِ أَعْلَمَ وأنبأ خلافٌ، والصحيحُ أنَّه مسموعٌ في الفصيح.

و«شهيد» فعيلٌ من الشهادة، ونفْيُ الشهادة كنايةٌ عن التبرُّؤ منهم لأنَّ الكَفَرَة يوم القيامة أنكروا عبادةَ غيره تعالى مرَّةً وأقرُّوا بها وتبرَّؤُوا عنها مرَّةً أخرى.

وفسره السمرقنديُّ[1] بالإنكار لعبادتهم غيرَ الله تعالى وشركهم كذباً منهم وافتراءً، كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وظاهرُ «آذنَّاك» يقتضي سبقَ الإيذان في جوابِ «أين شُرَكائي»، وإنما سُئلوا ثانياً حتى أجابوا بأنه قد سبق الجوابُ؛ لأنه توبيخٌ، وفي إعادة التوبيخ من تأكيد أمرِ الجناية وتقبيح حالِ مَن يرتكبها ما لا يخفى.

واستظهر أبو حيان[2] أنَّ المراد إحداثُ إيذانٍ لا إخبارٌ عن إيذانٍ سابقٍ، على نحو: طلَّقتُ، وأمثالِه.

وجُوِّز أن يقال: إنه إخبارٌ بإعلامٍ سابقٍ، وذلك الإعلامُ السابقُ ما عَلِمه تعالى من بواطنهم يومَ القيامة أنهم لم يَبقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة، وكأنه إعلامٌ

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٤، وهو علاء الدين السمرقندي صاحب شرح التأويلات.
(٢) في البحر ٧/ ٥٠٤.

منهم بلسان الحال، وهذا لا يقتضي سبقَ سؤالٍ ولا جوابٍ، وفيه حسنُ أدبٍ، كأنهم يقولون: أنت أعلم به. ثم يأخذون في الجواب.

قال في «الكشف»: وهذا الوجهُ هو المختارُ لاشتماله على النكتة المذكورة، وما في الآخَرَيْنِ من سوء الأدب.

ويحتمل أن يكون المعنى: آذنَّاك بأنه ليس منا أحدٌ يشاهِدُهم، فـ «شهيد» من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة، ونفْي مشاهدتِهم: الظاهرُ أنه على الحقيقة وذلك في موقفٍ، وجَعْلُ بعضِ العَبَدة مقرِّين بمعبوداتهم في آخَر، فلا تنافيَ بينهما، وقيل: هو كنايةٌ عن نفي أن يكونَ له تعالى شريكٌ، نحو قولك: لانرى لك مِثْلاً. تريد: لا مِثْلَ لك لنراه، والكلام في «آذنَّاك» على ما آذنَّاك.

وقيل: ضميرُ «قالوا» للشركاء، أي: قال الشركاء: ليس منا أحدٌ يشهَدُ لهم بأنهم كانوا مُحقِّين، فـ «شهيد» من الشهادة لا غير، والمراد التبرُّؤُ منهم. وفيه تفكيكُ الضمائر.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ ـ على ما قيل ـ أنَّ شركاءهم الذين كانوا يدعُونهم من قبلُ ويرجُون نفعَهم غابوا عنهم، على أنَّ الضلال على معناه الحقيقيِّ، وهو الذي يقابل الوجدانَ. أو أنَّ شركاءَهم لم ينفعوهم بشيء، على أنَّ الضلال مجازٌ عن عدم النفع.

و«ما» اسم موصول عبارةٌ عن الشركاء، ويحسن جمعُ مَن يعقِلُ ومَن لا يعقل في التعبير بـ «ما» في مثل هذا المقام.

وجُوِّز أن تكونَ «ما» عبارةً عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من أنهم آلهةٌ وشركاءُ لله سبحانه وتعالى، والمعنى: نَسُوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الألوهية إليهم. ولك أن تجعلَها مصدريةً.

والجملةُ يحتمل أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً، وذكر بعض الأجلة أنه يتعيَّن الأخيرُ على القول بأنَّ ضميرَ «قالوا» للشركاء، وكونِ الضلال مجازاً عن عدم النفع. فتدبَّر.

﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنُوا، كما قال السديُّ وغيره؛ لأنه لا احتمالَ لغيره هنا. والظنُّ يكون بمعنى العلم كثيراً.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مهرَبٍ، والظاهرُ أنَّ الجملة في محلِّ نصبٍ سادَّةٌ مسدَّ مفعولي «ظَنَّ»، وهي معلَّقةٌ عنها بحرف النفي.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله تعالى: (وَظَنُّوا)، والظنُّ على ظاهره، أي: وترجَّح عندهم أنَّ قولَهم: (مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) منجاةٌ لهم أو أمرٌ يُمَوِّهُون به، والجملة بعدُ مستأنفةٌ، أي: لا يكون لهم منجًى أو موضعُ روغان.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ لا يملُّ ولا يفترُ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلبِ السعة في النعمة وأسباب المعيشة، و«دُعَاء» مصدرٌ مضافٌ للمفعول، وفاعلُه محذوفٌ، أي: من دعاء الخير هو.

وقرأ عبد الله: «مِن دعاءٍ بالخير» بباءٍ داخلة على «الخير»[1].

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضيقة والعُسر ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فهو يَؤُوسٌ قَنُوطٌ من فضل الله تعالى ورحمته، وهذا صفةُ الكافر، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة[2].

وقد بُولِغ في يأسه من جهة الصيغة لأنَّ فعولاً من صيغ المبالغة، ومن جهة التكرار المعنويِّ فإنَّ القنوطَ أن يظهر عليه أثرُ اليأس فيتضاءل وينكسر، ولمَّا كان أثره الدالُّ عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكرُه ثانياً بطريقٍ أبلغ، وقدَّم اليأسَ لأنه صفةُ القلب، وهو أن يقطع رجاءَه من الخير، وهي المؤثِّرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤُل والانكسار.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: لئن فرَّجْنا عنه بصحةٍ بعد مرضٍ، أو سعةٍ بعد ضيق، أو غير ذلك ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: حقِّي أستحِقُّه لِمَا لي

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والكشاف ٣/ ٤٥٧، والبحر ٧/ ٥٠٤.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢، والبحر ٧/ ٥٠٤.

من الفضل والعمل، لا تفضُّلٌ من الله عز وجل، فاللام للاستحقاق. أو: هو لي دائماً لا يزول، فاللامُ للملك وهو يُشعِر بالدوام، ولعلَّ الأول أقربُ.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لَلْحالةَ الحسنى من الكرامة، والتأكيدُ بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مَجزيّاً بالحسنى، لجزمه باستحقاقه للكرامة، لاعتقاده أنَّ ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأنَّ نعمَ الآخرة كذلك، فلا تنافي بين «إنْ» التي الأصلُ فيها أن تُستعمَل لغير المتيقَّن، وبين التأكيد بالقسم و«إنَّ» واللام وتقديمِ الظرفين وصيغةِ التفضيل.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لنُعلِمنَّهم بحقيقةِ أعمالهم، ولنبصِّرنَّهم بعكس ما اعتقدوا فيها، فيظهر لهم أنهم مستحِقُّون للإهانة لا الكرامة كما توهَّموا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ لا يمكنهم التفصِّي عنه لشدَّته، فهو كوثاقٍ غليظٍ لا يمكن قطعه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تكبَّر واختال، على أنَّ الجانبَ بمعنى الناحية والمكان، ثم نُزِّل مكانُ الشيء وجهتُه كنايةً منزلةَ الشيء نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقول الشاعر:

ذَعَرتُ به القطا ونفيتُ عنه ... مقامَ الذئب كالرجُل اللَّعِينِ[1]

وقولُ الكتَّابِ: حضرةُ فلان، ومجلسُه العالي، وكتبتُ إلى جهته وإلى جانبه العزيز. يريدون نفسَه وذاتَه، فكأنه قيل: نأى بنفسه، ثم كَنَى بذَهَبَ بنفسه عن التكبُّر والخيلاء.

وجُوِّز أن يرادَ بـ «جانبه» عِطْفُه، ويكون عبارةً عن الانحراف والازورار، كما قالوا: ثَنى عِطْفَه وتولَّى برُكنه. والأول مشتمل على كنايتين: وَضْع الجانب موضعَ النفس، والتعبيرِ عن التكبرُّ البالغ بنحوِ: ذهب بنفسه، وهذا على واحدةٍ على ما في «الكشف».

---

(١) البيت للشماخ بن ضرار الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٢١.

وجعل بعضُهم الجانبَ والجنبَ حقيقةً ـ كالعِطْفِ ـ في الجارحة وأحدِ شقَّي البدن، مجازاً في الجهة، فلا تغفل.

وعن أبي عبيدة: نأى بجانبه: أي: نَهَضَ به[1]. وهو عبارةٌ عن التكبر كـ: شَمَخ بأنفه، والباءُ للتعدية.

ثم إنَّ التعبيرَ عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلسِ كثيراً ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن التصريح بالاسم، وهم[2] يتركون التصريحَ به عند إرادة تعظيمه، قال زهير[3]:

فَعَرِّضْ إذا ما جئتَ بالبانِ والحِمَى   وإيـاكَ أن تَـنْـسَـى فـتَـذْكُـرَ زَيْـنَـبَـا
سيكفيك مِن ذاك المسمَّى إشارةٌ   فـدَعْـه مَـصـونـاً بـالـجـلالِ مُـحَـجَّـبَـا

ومن هنا قال الطيبي: إنَّ ما هنا واردٌ على التهكم.

وقُرئ: «ونِئى» بإمالة الألف وكسر النون للإتباع[4]، وَ«نَاءَ» على القلب[5] كما قالوا: رَاءَ، في: رَأَى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ أي: كثيرٍ مستمرٍّ، مستعارٌ مما له عرضٌ متَّسعٌ، وأصلُه مما يوصَف به الأجسام وهو أقصرُ الامتدادَيْن، وأطولُهما هو الطول، ويُفهَم في العرف من العريض الاتساعُ، وصيغةُ المبالغة وتنوين التكثير يُقوِّيان ذلك، ووصف الدعاء بما ذُكر يستلزم عظمَ الطول أيضاً لأنه لا بدَّ أن يكون أزيدَ من العرض، وإلا لم يكن طولاً، والاستعارةُ في كلٍّ من الدعاء والعريضِ جائزةٌ، ولا يخفى كيفية إجرائها.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٥، وجاء في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٩٨: «أعرض ونأى بجانبه» أي: تباعد عنِّي.
(٢) في (م): وهو.
(٣) هو زهير بن محمد المهلبي المعروف ببهاء الدين، والشعر في ديوانه ص٢٩. وفيه: جُزتَ، بدل: جئتَ.
(٤) هي قراءة الكسائي وخلف. ورواية عن حمزة، كما في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٤٤.
(٥) وهي قراءة ابن ذكوان وأبي جعفر كما في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٤٤.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ الآيات قد تضمَّنت ضربين من طغيان جنس الإنسان:

فالأول: في بيان شدَّة حرصه على الجمع وشدَّة جزعه على الفقد، والتعريض بتظليم ربِّه سبحانه في قوله: «هذا لي» مُدمِجاً فيه سوءَ اعتقاده في المعاد المستجلِب لتلك المساوي كلها.

والثاني: في بيان طيشه المتولِّد عنه إعجابُه واستكبارُه عند وجود النعمة، واستكانتُه عند فقدها.

وقد ضمِّن في ذلك ذمُّه بشغله بالنعمة عن المنعم في الحالتين، أما في الأول فظاهر، وأما في الثاني فلأنَّ التضرُّعَ جزعاً على الفقد ليس رجوعاً إلى المنعم، بل تأسُّفٌ على الفقد المُشغِل عن المنعم كلَّ الإشغال، وذَكَر أنَّ في ذكر الوصفين ما يدلُّ على أنه عديمُ النُّهية، أي: العقل، ضعيفُ المنة، أي: القوة، فإنَّ اليأسَ والقنوطَ ينافيان الدعاءَ العريضَ، وأنه عندَ ذلك كالغريق المتمسِّك بكلِّ شيء. انتهى.

ومنه يُعلَم جوابُ ما قيل: كونه يدعو دعاءً عريضاً متكرِّراً ينافي وصفَه بأنه يؤوسٌ قنوطٌ؛ لأنَّ الدعاء فرعُ الطمع والرجاء، وقد اعتُبِر في القنوط ظهورُ أثر اليأس، فظهورُ مَا يدلُّ على الرجاء يأباه.

وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال: الحال الثاني شأنُ بعضٍ غيرِ البعض الذي حُكي عنه اليأسُ والقنوط. أو شأنُ الكلِّ في بعض الأوقات.

واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: (فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) على أنَّ الإيجازَ غيرُ الاختصار، وفسَّره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد المعنى، والإيجازَ بحذفِ طوله وهو الإطنابُ. وهو استدلالٌ بما لا يدلُّ؛ إذ ليس فيها حذفُ ذلك العرض فضلاً عن تسميته.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ إلخ رجوعٌ لإلزام الطاعنين والملحِدين، وختمٌ للسورة بما يلتفت لفتَ بدئها، وهو من الكلام المنصف، وفيه حثٌّ على التأمُّل واستدراجٌ للإقرار مع ما فيه من سحر البيان، وحديثُ الساعة وَقَعَ في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على

ما هم فيه من الضلال البعيد. كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى بسطُ الكلام في ذلك.

ومعنى «أرأيتم»: أخبِروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع تعاضُدِ مُوجِبات الإيمان به، و«ثم» ـ كما قال النيسابوري[1] ـ للتراخي الرتبي.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ أي: خلافٍ ﴿بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ غايةَ البُعد عن الحقِّ، والمراد ممن هو في شقاقٍ المخاطَبون، ووُضِع الظاهرُ موضعَ ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

وجملةُ «مَن أضلُّ» على ما قال ابن الشيخ سادَّةٌ مسدَّ مفعولَي «رَأَيتُم». وفي «البحر»[2]: المفعولُ الأولُ محذوفٌ تقديرُه: أَرَأَيتُم أنفسَكُم، والثاني هو جملةُ الاستفهام.

وأيًّاما كان فجوابُ الشرط محذوفٌ، قال النيسابوري: تقديرُه مثلاً: فمَنْ أَضَلُّ منكُم[3]. وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني مَن أضلُّ منكم. ولعلّه الأظهر.

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ إلخ مرتبطٌ على ما اختاره صاحب «الكشاف»[4] بقوله تعالى: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ) إلخ على وجه التتميم والإرشاد إلى ما ضُمِّن من الحثِّ على النظر؛ ليؤدِّي إلى المقصود، فيُهْدَوا إلى إعجازه ويؤمنوا بما جاء به، ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كلَّ الفوز، وفسَّر الآياتِ بما أجرى الله تعالى على يدَي نبيه ﷺ وعلى أيدي خلفائه وأصحابه[5] رضي الله عنهم من الفتوحات الدالَّة على قوة الإسلام وأهله، ووهنِ الباطل وحِزبه، والآفاقُ: النواحي، الواحد أُفُقٌ

(١) في غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٥/ ١٤.
(٢) ٧/ ٥٠٥.
(٣) غرائب القرآن ٢٥/ ١٤.
(٤) ٣/ ٤٥٨.
(٥) في (م): وأصحابهم.

بضمتين، وأَفَقٌ بفتحتين، أي: سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أنَّ هذه الإراءةَ كائنةٌ لا محالةَ حقٌّ لا يحوم حولَها ريبة.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في بلاد العرب خصوصاً، وهو من عطفِ «جبريل» على «ملائكته»[1]، وفي العدول عنها إلى المنزَّل ما لا يخفى من تمكينِ ذلك النصر، وتحقيقِ دلالته على حقِّيَّةِ المطلوب إثباتُه، وإظهارِ أنَّ كونَه آيةً بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونُه فتحاً بالنسبة إلى الأرض والبلدة.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي: القرآنُ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيه ولا من خلفه، فهو الحقُّ كلُّه من عند الله تعالى المطَّلِعِ على كلِّ غيبٍ وشهادةٍ، فلهذا نُصِر حاملوه وكانوا مُحقِّين، وفي التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالةً وقدراً.

وفيما ذُكر إشارةٌ إلى أنه تعالى لا يزال يُنشِئ فتحاً بعد فتحٍ وآيةً غِبَّ آيةٍ إلى أن يُظهِرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون، فانظر إلى هذه الآية الجامعة كيف دلَّت على حقِّية القرآن على وجهٍ تضمَّنَ حقِّيَّةَ أهلِه ونصرتَهم على المخالفين، وأعظِم بذلك تسلِّياً عما أشعرتْ به الآية السابقة من انهماكهم في الباطل إلى حدٍّ يقرب من اليأس.

وقيل: الضمير للرسول ﷺ، أو الدين، أو التوحيدِ. ولعلَّ الأولَ أولى.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئنافٌ واردٌ لتوبيخهم على إنكارهم تحقُّقَ الإراءة. والهمزة للإنكار، والواوُ على أحد الرأيَيْن للعطف على مقدَّرٍ دخلت عليه الهمزةُ يقتضيه المقام، والباءُ مزيدةٌ للتأكيد، و«ربك» فاعلُ «كفى»، وزيادةُ الباء في فاعلها هو القولُ المشهورُ المرضيُّ للنحاة، وتُزاد في فاعلِ فعلِ التعجُّب أيضاً، نحو: أَحْسِن بزيد، فإنَّ «أَحْسِن» فعلٌ ماضٍ جيء به على صيغة الأمر، والباءُ زائدةٌ و«زيد» فاعلٌ عند جماعةٍ من النحويين، ولاتكاد تزاد في غيرهما، وقوله:

---

(١) يعني في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٨].

ألـم يـأتـيـك والأنـبـاءُ تـنـمـي بـمـا لاقَـتْ لَـبُـونُ بـنـي زِيَـادِ[١]

شاذٌّ قبيحٌ على ما قال الشهاب[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ بدلٌ من الفاعل بدلَ اشتمالٍ، وقيل: هو بتقدير حرف الجرِّ، أي: أو لم يكفهم ربُّك بأنه.. إلخ، وما للنحويين في مثل هذا التركيب من الكلام شهيرٌ، أي: أنكروا إراءةَ ذلك الدالَّةَ على حقِّية القرآن، ولم يكفهم دليلاً أنه عزَّ وجل مُطَّلعٌ على كلِّ شيء عالمٌ به، ومن ذلك حالُهم وحالُك الموجِبان حكمةَ نَصْرك عليهم وخذلانهم، وكأنَّ ذلك لظهوره نُزِّل منزلةَ المعلوم لهم.

وفي «الكشف» أي: أو لم يكفهم أنَّ ربَّك سبحانه مطَّلعٌ على كلِّ شيء يستوي عنده غيبُ الأشياء وشهادتها، على معنى: أو لم يكفهم هذه الإراءةُ دليلاً قاطعاً. ولمَّا كان ما وعده غيباً عنهم ـ كيف وقد نَزَل وهو في حالِ ضَعفٍ وقلةٍ يُقاسُون ما يُقاسُون من مشركي مكة ـ قيل: أو لم يكفهم اطِّلَاعُ مَن هذا الكتابُ الحقُّ من عنده على كلِّ غيبٍ وشهادةٍ دليلاً على كينونة الإراءة وإحضارِ ذلك الغيب عندَهم، إذ لا غيبَ بالنسبة إليه تعالى.

وفي العدول إلى هذه العبارة فائدتان:

إحداهما: تحقيقُ إنجازِ ذلك الموعود كأنه مشاهَدٌ بذكرِ الدليل القاطع على الوقوع.

والثانية: الدلالةُ على أنَّ هذه الإراءةَ الآنَ وهو في ضعفٍ وقلَّة قد تمَّت بالنسبة إلى إثبات حقِّية القرآن، لأنَّ مَن عَلِمَ أنه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ، وعَلِم أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ من عنده، عَلِم أنَّ جميعَ ما فيه حقٌّ وصدقٌ، فعَلِم أنَّ تلك النصرةَ كائنةٌ.

والحاصل أنه كما يُستدلُّ من تلك الآيات على حقِّية أهله تارةً يُستدلُّ من إعجازِ

(١) سلف ١٢/٢٢٩.

(٢) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/٤٠٧.

القرآن على حقِّية تلك الآيات وقوعاً، وحقِّيةِ أهلِ الإسلام أخرى، فأُدِّي المعنيان في عبارةٍ جامعةٍ تُؤدِّي الغرضين على وجهٍ لا يمكن أتمُّ منه. انتهى.

ولا يخفى أنَّ في الآية عليه نوعاً من الإلغاز.

وقيل: أي: ألم يُغنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيِّنةِ لحقِّية القرآن، ولم يكفهم في ذلك أنَّه تعالى شهيدٌ على جميع الأشياء وقد أخبر بأنَّه من عنده عز وجل. وهو كما ترى.

وقيل: المعنى: أو لم يكْفِك أنَّه تعالى على كلِّ شيءٍ شهيد محقِّقٌ له، فيحقِّقُ أمرَك بإظهار الآيات الموعودة كما حقَّق سائرَ الأشياء الموعودة.

وتُعقِّب بأنه ـ مع إيهامه ما لا يليق بجلالة منصبه ﷺ من التردُّد فيما ذُكر من تحقُّق الموعود ـ لا يلائم قولَه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شكٍّ عظيمٍ من ذلك بالبعث لاستبعادهم إعادةَ الموتى بعد تبدُّدِ أجزائهم وتفرُّقِ أعضائهم، فلا يلتفتون إلى أدلَّةٍ ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقِّية القرآن = لأنَّه[1] صريحٌ في أنَّ عدمَ الكفاية معتبَرٌ بالنسبة إليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾ لبيانِ ما يترتَّبُ على تلك المرية بناءً على أنَّ المعنى: إنَّه تعالى عالِمٌ بجميعِ الأشياء على أكمل وجهٍ، فلا يخفى عليه جلَّ وعلا خافيةٌ منهم، فيجازيهم جلَّ جلالُه على كفرهم ومريتهم لا محالةَ.

وقيل: دفعٌ لمريتهم وشكِّهم في البعث وإعادةِ ما تفرَّقَ واختلط مما يتوهَّمون عدمَ إمكانِ تمييزِهِ، أي: إنه تعالى عالم بجُمَلِ الأشياء وتفاصيلها، مقتدرٌ عليها لا يفوته شيءٌ منها، فهو سبحانه يعلم الأجزاءَ ويَقدِر على البعث.

هذا وما ذكر في تفسيرِ «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» في معنى ما رُوي عن الحسن ومجاهد والسدي وأبي المنهال وجماعةٍ قالوا: إنَّ قولَه سبحانه: (سَنُرِيهِمْ) إلخ وعيدٌ للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حولَ

---

(١) قوله: لأنه...، متعلق بقوله: لا يلائم...

مكة، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر، وأراد بقوله تعالى: (وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ) فتح مكة[(١)].

وقال الضحاك وقتادة: «في الآفاق» ما أصابَ الأممَ المكذِّبةَ في أقطار الأرض قديماً، و«في أنفسهم» ما كان يومَ بدر[(٢)]، فإنَّ في ذلك دلالةً على نصرةِ مَن جاء بالحقِّ وكُذِّب من الأنبياء عليهم السلام، فيدلُّ على حقِّية النبيِّ ﷺ وما جاء به من القرآن.

وأُورِد عليه أنَّ «سَنُرِيهم» يأبى كونَ ما في الآفاق ما أصابَ الأُممَ المكذِّبةَ؛ لكونه مرئيّاً لهم قبلُ.

وقال عطاء وابن زيد: إنَّ معنى «سنريهم آياتنا في الآفاق»: أي: أقطارِ السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك، و«في أنفسهم» من لطيفِ الصنعة وبديع الحكمة[(٣)].

وضعَّف ذلك الإمامُ بنحو ما سمعتَ آنفاً[(٤)]. وأجيب بأنَّ القومَ وإن كانوا قد رأوا تلك الآيات إلا أنَّ العجائبَ التي أودعها الله تعالى فيها مما لا نهايةَ لها، فهو سبحانه يُطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُشاهِد بِنيةَ الإنسان، إلا أنَّ العجائب المودَعة في تركيبها لا تُحصَى، وأكثر الناس غافلون عنها، فمن حمل على التفكُّر فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الإلهية كلَّما ازداد تفكُّراً ازداد وقوفاً، فصحَّ معنى الاستقبال.

واختار ذلك صاحب «الكشف» تبعاً لغيره، وبيَّن وجهَ مناسبة الآيات لِمَا قبلها

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦١، وزاد المسير ٧/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٥٠٥.
(٢) زاد المسير ٧/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٥٠٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٢، والبحر ٧/ ٥٠٥.
(٤) يعني أنَّ قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى لم يطلعهم على الآيات إلى الآن بل سيطلعهم عليها بعد ذلك، مع أن الآيات موجودة في العالم قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك، فتعَذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه. التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٩، وقد ذكر الإمام الرازي هذا التضعيف، ثم أجاب عنه بما سيأتي.

عليه، وجعل ضميرَ «أنه الحقُّ» لله عز وجل، فقال: إنَّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إشعاراً بأنَّ كونَه من عنده سبحانه ينافي الكفرَ به، وأنَّهم مسلِّمون ذلك لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل، ولذا جعل نحو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] في جواب قولهم ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل: ٢٤] أنه إعراضٌ عن كونه منزَّلاً، وجوابٌ بأنه أساطيرُ لا منزَّلٌ، فأريد أن يبيِّن إثباتُ كونه حقّاً من عنده تعالى على سبيل الكناية؛ ليكونَ أوصل إلى الغرض ويناسبَ ما بُني عليه الكلامُ من سلوك طريق الإنصاف، فقيل: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: سيُري الله تعالى، والالتفاتُ للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيقِ ثبوت الإراءة، ثم قيل: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أنَّ الله جلَّ جلالُه هو الحقُّ من كلِّ وجهٍ ذاتاً وصفةً وقولاً وفعلاً، وما سواه باطلٌ من كلِّ وجهٍ، لا حقَّ إلا هو سبحانه، وإذا تبيَّن لهم حقِّيتُه عزَّ شأنه من كلِّ وجهٍ يلزم ثبوتُ القرآن وكونُه من عنده تعالى بالضرورة، ثم قيل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أو لم يكفك شهودُه تعالى على كلِّ شيء، فمنه سبحانه تشهَدُ كلَّ شيء، لا من آياتِ الآفاق والأنفس تشهده تعالى، فالأول استدلالٌ بالأثر على المؤثِّر، والثاني من المؤثِّر على الأثر، وهذا هو اللِّمِّيُّ اليقيني.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضميره ﷺ وإيثارِه على: أو لم يكف به، إشعارٌ بأنه ﷺ وأتباعَه من كلِّ العارفين هم الذين يكفيهم شهودُه على كلِّ شيء دليلاً، وأنَّ ذلك لهم نفسُ عنايتِه تعالى وتربيتِه من دون مدخلٍ لتعلُّمهم فيه بخلاف الأول.

ثم قيل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كلِّ شيءٍ شهيدٌ لأنه لا شهودَ لهم ليشُدُّوا شهودَه تعالى، فهو شاملٌ لفريقَي الأبرار والكفَّار، أما الكفَّار فلأنهم في شكٍّ في الأصل، وأما الأبرار فلأنَّهم في شكٍّ من الشهود، أي: لا علمَ لهم به إلَّا إيماناً متمحِّضاً عن التقليد. وإطلاقُ المرية للتغليب، ولا يخفى حسنُ موقعه.

ثم قيل: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ تتميماً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ لأنَّ من أحاط بكلِّ شيء علماً وقدرةً لم يتخلَّف شيءٌ عن شهوده، فمن شَهِدَه شَهِدَ

كلَّ شيء، فهذا هو الوجه في تعميم الآيات من غير تخصيصٍ لها بالفتوح، وهو أنسبُ من قول الحسن ومجاهد، وأجْرَى على قواعد الصوفية وعلماءِ الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين. انتهى.

وقد أَبْعَدَ عليه الرحمة المغزى وتكلَّف ما تكلَّف.

ونقل العارف الجامي قدِّس سره في «نفحاته»[1] عن القاشاني[2] أنَّ قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ) إلخ يدلُّ على وحدة الوجود. وقد رأيتُ في بعض كتب القوم الاستدلالَ به على ذلك، وجَعْلَ ضميرِ «أنه الحقُّ» إلى المرئيِّ، وتفسيرَ«الحقّ» بالله عز وجل، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه: سبحانَ من أظهر الأشياءَ وهو عينُها[3]. وهذه الوحدةُ هي التي حارت فيها الأفهامُ وخرجت لعدم تحقيقِ أمرها رِقابٌ من رِبْقة الإسلام، وللشيخ إبراهيم الكوراني قدِّس سرُّه النوراني عدةُ رسائل في تحقيق الحقِّ فيها وتشييد مبانيها، نسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بصحيح الشهود، ويحفظنا بجوده عما عَلِقَ بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود.

وقرئ: «إنَّه على كلِّ شيءٍ شهيد» بكسر همزة «إنَّ»[4]، على إضمار القول.

وقرأ السلمي والحسن: «في مُرْيَة» بضم الميم[5]، وهي لغةٌ فيها كالكسر، ونحوُها: خُفْية، بضم الخاء وكسرها، والكسر أشهر لمناسبة الياء.

❁ ❁ ❁

(١) نفحات الأنس من حضرات القدس لنور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي، المتوفى سنة (٨٩٨هـ). كتبه بالفارسية، وعربه الشيخ تاج الدين زكريا العثماني النقشبندي المتوفى بمكة سنة (١٠٠٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٩٦٧-١٩٦٨.

(٢) هو الشيخ كمال الدين أبو الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفى سنة (٨٨٧هـ)، له تأويلات القرآن المعروف بتأويلات الكاشاني، وهو تفسير بالتأويل على اصطلاح التصوف. كشف الظنون ١/ ٣٣٦.

(٣) الفتوحات المكية ٢/ ٤٥٩.

(٤) البحر ٧/ ٥٠٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٨، والبحر ٧/ ٥٠٦.

ومن كلمات القوم في الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ أجرَ المؤمن الغير العامل ممنونٌ، أي: منقوصٌ بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل، وأجرُ هذا العامل على الأعمال البدنية كالصلاة والحج الجنةُ، وعلى الأعمال القلبية كالرضا والتوكُّلِ الشوقُ والمحبةُ وصدقُ الطلب، وعلى الأعمال الروحانية كالتوجُّه إلى الله تعالى كشفُ الأسرار وشهودُ المعاني والاستئناسُ بالله تعالى والاستيحاشُ من الخلق والكرامات، وعلى أعمال الأسرار كالإعراض عن السِّوَى بالكلية دوامُ التجلِّي.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض البشرية ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ يومَي الهوى والطبيعة ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ من الهوى والطبيعة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ العقولَ الإنسانية ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ بالحواسِّ الخمس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ من القوى البشرية.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ سماءِ القلب ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ هيولى إلهيةٌ.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ هي الأطوار السبعة للقلب: فالأول: محلُّ الوسوسة. والثاني: مَظهرُ الهواجس. والثالث: معدنُ الرؤية، ويسمَّى الفؤاد. والرابع: منبعُ الحكمة، ويسمَّى القلب. والخامسُ: مرآة الغيب، ويسمى السويداء. والسادس: مثوى المحبة، ويسمَّى الشَّغاف. والسابع: موردُ التجلِّي ومركز الأسرار ومهبط الأنوار، ويسمَّى الحَبَّة.

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ يومَي الروح الإنساني والإلهام.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ وهي أنوار الأذكار والطاعات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يومَ خوطبوا بـ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ على إقرارهم لمَّا خرجوا إلى عالم الصُّوَر، ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين، وذُكر أنَّ الاستقامةَ متفاوتةٌ، فاستقامةُ العوامِّ في الظاهر بالأوامر والنواهي، وفي الباطن بالإيمان. واستقامةُ الخواصِّ في الظاهر بالرغبة عن الدنيا، وفي الباطن بالرغبة عن الجنان شوقاً إلى الرحمن. واستقامةُ خواصِّ

الخواصُّ في الظاهر برعاية حقوق المبايعة على وفْق المتابعة[١] بتسليم النفس والمال، وفي الباطن بالفناء والبقاء.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تنزُّلاً متفاوِتاً حسب تفاوُتِ مراتبهم. وعن بعض أئمة أهل البيت: إنَّ الملائكةَ لتُزاحِمنا بالرُّكَب، أو ما هذا معناه.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هي أيضاً متفاوتةٌ، فمنهم من يبشَّر بالجنة المعروفة، ومنهم من يبشَّر بجنة الوصال ورؤيةِ المَلِك المتعال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتركِ ما سواه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لئلا يخالِفَ حالُه قالَه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمِه تعالى الراضين بقضائه وقَدَره، وفيه إشارةٌ إلى صفات الشيخ المرشِد وما ينبغي أن يكونَ عليه، ويحقُّ أن يقال في كثير من المتصدِّين للإرشاد في هذا الزمان المتلاطمة أمواجُه بالفساد:

خَلَتِ الرِّقاعُ من الرِّخاخ ... وتَفَرْزَنَت فيها البيادِقْ
وتصاهَلت عُرجُ الحميرِ ... وذاك من عُدم السوابِقْ[٢]

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ وهي التوجُّه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوصِ المحبة ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ وهي طلبُ السِّوَى، والرضا بالدون.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي طلبُ الله تعالى طلبَ ما سواه سبحانه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ وهو النفس الأمارة بالسوء ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لِتَزَكِّي النفس عن صفاتها الذميمة، وانفطامِها عن المخالَفات القبيحة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ لتميلَ إلى ما يهوى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وارجعْ إليه سبحانه، لئلا يؤثِّرَ فيك نَزْغُه، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الأمنُ من المكر والغفلةُ عن الله عز وجل.

---

(١) قوله: على وفق المتابعة. سقط من (م).
(٢) البيتان في النجوم الزاهرة ١٥/ ٣٥٤ دون نسبة، وفيه: فقلت، بدل: وذاك. والرخاخ: جمع الرخ، وهو من أدوات الشطرنج، والفِرزان: الوزير من قطع الشطرنج. القاموس المحيط (رخخ) و(فرزن).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ فيه إشارةٌ إلى سُوء المنكِرين على الأولياء، فإنَّهم من آيات الله تعالى، والإنكارُ من الإلحاد، نسأل الله تعالى العفوَ والعافية.

﴿قُلۡ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ على حسب مراتبهم، فمنهم مَن يَهدِيه إلى شهود المَلِك العلَّام، فعن الصادق على آبائه وعليه السلام: لقد تجلَّى اللهُ تعالى في كتابِه لعباده، ولكن لا يُبصرون.

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الخلقَ لا يرون الآياتِ إلاَّ بإراءته عز وجل، وهي كشف الحُجُب ليظهر أنَّ الأعيانَ ما شَمَّت رائحةَ الوجود ولا تشمُّه أبداً، وأنه عزَّ وجل هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن، كان الله ولا شيء معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان، وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدِّس سره:

ما آدمُ في الكون ما إبليسُ ... ما مُلكُ سليمانَ وما بلقيسُ
الكلُّ إشارةٌ وأنتَ المعنى ... يا مَن هو للقلوب مَغْناطيسُ[(١)]

وأكثرُ كلامه قدِّس سرُّه من هذا القبيل، بل هو أمُّ وحدةِ الوجود وأبُوها وابنُها وأخوها، وإياك أن تقولَ كما قال ذلك الأجلُّ، حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل، والله عز وجل الهادي إلى سواء السبيل.

تمَّ الكلامُ على السورة، والحمد لله على جزيل نعمائه، والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهرِ أسمائه، وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبائه، صلاةً وسلاماً باقيَيْنِ إلى يوم لقائه.

(١) سلفا ١٣/٤٩١.